ما بعد العولمة

إريك كازدين وإمري زيمان



ما بعد العولمة

ما بعد العولمة

تأليف
إريك كازدين وإمري زيمان

ترجمة
أميرة أحمد إمبابي

مراجعة
مصطفى محمد فؤاد



ما بعد العولمة

إريك كازدين وإمري زيمان

After Globalization

Eric Cazdyn and Imre Szeman

الطبعة الأولى ٢٠١٦م
رقم إيداع ٢٦٨٧٢ / ٢٠١٥
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + **فاكس:** ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

كازدين، إريك.
ما بعد العولمة/تأليف إريك كازدين، إمري زيمان.
تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٧٦٨ ٤٧١ ٢

١-المذاهب السياسية
٢-المذاهب الاقتصادية
٣-العولمة

أ-العنوان

٣٢٠,٥

تصميم الغلاف: خالد المليجي.

المحتويات

مُهدًى إلى إف آر جيه.

شكر وتقدير

دائمًا ما يزيد المجهود المبذول لإصدار الكتاب عن مجرد عمل مَن قاموا بتأليفه بالفعل. بادئ ذي بَدء، نتوجه بالشكر إلى مساعدينا من الباحثين؛ وهم: نيكولاس هولم وَفرانك كاستيليوني (من جامعة ماكماستر)، وَسناء غني (من جامعة ألبرتا)؛ لما قدموه من مساعدة لخدمة هذا المشروع، وخاصةً العمل المرهق المتمثل في تفريغ ساعات من المقابلات. وقد هَبَّ جاستين سولي في النهاية لتقديم يد المساعدة لنا، تمامًا كما يفعل في المشروعات الأخرى التي نشترك بها؛ الشكر الجزيل لكَ يا جاستين.

من دون دعم الزملاء في البلدان التي عملنا بها، كنا سنجد مشقة بالغة في تنظيم مقابلات الطلاب. نتوجه بالشكر لكلٍّ من جاكا بريموراتس (كرواتيا)، وَتشي-شي لي وَتسونج-يي ميشيل هوانج (تايوان)، وَإيفا بوزنبرج (ألمانيا)، وَألكسندرا كليشاينا (روسيا)، وَسارة مونوك (المجر)، وَجريجوري لوبو (كولومبيا)؛ لقد ساهم كل هؤلاء الباحثين البارعين في هذا الكتاب من خلال الأفكار التي شاركونا بها والأحداث العرضية التي أشركونا فيها أثناء زيارتنا للبلدان التي يعملون بها.

أُجريت مقابلات الطلاب في الجامعة الأوروبية المركزية (بودابست، المجر)، وجامعة هومبولت (برلين، ألمانيا)، ومعهد العلاقات الدولية (زغرب، كرواتيا)، وجامعة تايوان الوطنية (تايبيه، تايوان)، وجامعة لوس أنديس (بوجوتا، كولومبيا)، وجامعة يكاترينبرج الحكومية (يكاترينبرج، روسيا). كما أننا ممتنون كذلك للعاملين في مركز بانف للفنون، حيث تَمَّت كتابة جزء من هذا الكتاب في يناير عام ٢٠١٠.

أيضًا قدَّمَت إيما بينيت، وَكارولين كلامب، وَكارولين ريتشاردز، وَبن ثاتشر من دار نشر وايلي-بلاكويل؛ مساعداتٍ هائلةً في تحويل المخطوطة الأولية إلى الكتاب الذي بين أيديكم.

وقد أمكن تنفيذ هذا المشروع بفضل منحة مقدَّمة من مجلس أبحاث العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية في كندا.

ملخص: النقاط محور النقاش في هذا الكتاب

(١) كان المعنى السائد للعولمة عمومًا هو أنها تتعلق بتحولات اقتصادية وسياسية وثقافية؛ أو بعبارة أخرى، تغيير في «كل شيء» دفعةً واحدة، أو نقلة نوعية أو تغيير في النظام ناتج عن عناصر محددة، أو متمثل فيها (الأسواق العالمية، وثقافة النشاط الدائم الممتد طوال الأربع والعشرين ساعة، والاتصالات الفورية، وزيادة مستويات الهجرة، وما إلى ذلك)، مع استخدام التكنولوجيا بوصفها الوسيط الأساسي لإحداث كل ذلك.

(٢) كما كانت العولمة، منذ البداية، مشروعًا أيديولوجيًّا، ساعد على تطبيع الرأسمالية تحت مظلته. وقد جَعَلَت العولمةُ الرأسماليةَ غيرَ مرئية (أو غير مرئية بدرجة غير مسبوقة)؛ حيث خبَّأَتها خلف مجموعة من التغييرات التي تم التعامل معها بوصفها ظواهر شبه طبيعية لا يملك الإنسان إزاءها سوى أقل القليل. كانت جميع الأشياء التي حدثت بوصفها جزءًا من العولمة حقيقية بما فيه الكفاية، ولكن السرد الشامل الكبير للعولمة التي وُضعت فيه تلك الأشياء كان خيالًا؛ وهو خيال فعال، ولكنه يظل رغم ذلك خيالًا.

(٣) عندما عادت الرأسمالية إلى الظهور في أعقاب الأزمة الاقتصادية التي حدثت في عام ٢٠٠٨ (بوصفها خطابًا يمكن التحدث به ووضعًا واضحًا وضوحًا شديدًا للتنظيم الاجتماعي)، كان ثمة اعتراف بأن المشروع الأيديولوجي للعولمة الذي سيجعل الرأسمالية تختفي قد انتهى. ومع مواجهة الرأسمالية بفنائها، والكشف عن أن العولمة محض خيال، تَوقَّع الكثيرون حدوث صحوة سياسية على نطاق عالمي.

(٤) لكن لم تكن ثمة مواجهة جادة مع ما يأتي بعد العولمة؛ لأن العولمة تستند إلى مشروع أيديولوجي أكثر جوهرية، وهو مشروع لم يكن معترَفًا به وقت تأسيسه، على

الرغم من أنه كان ضروريًّا لعملها بفعالية؛ فالعولمة تشمل «تكوينًا زمنيًّا» معينًا، لا يمكن أن يتخيل «ما بعده». يمكن أن يلي الحداثةَ ما بعد الحداثة، ولكن ماذا عن العولمة؟ يبدو مصطلح «ما بعد العولمة» كما لو كان خاتمة ديستوبية لكل شيء، وليس مرحلة جديدة من الوجود الإنساني.

(٥) يهدف كتابنا إلى فهم بناء هذا «الحد الزمني» الذي يعمل تحت اسم العولمة، حتى عندما تنتهي العولمة. بعد عرض سبع أطروحات تتحدى تلك الأيديولوجية الزمنية (الأطروحات التي تدحض الافتراضات القياسية حول التعليم، والأخلاق، والأمة، والمستقبل، والتاريخ، والرأسمالية، والحس العام)، سنتناول أعمال أربعة مفكرين كبار (ريتشارد فلوريدا، وَتوماس فريدمان، وَبول كروجمان، وَناعومي كلاين)، ونشير إلى كيفية تأثُّر أعمالهم المهمة سلبًا بهذه الافتراضات. لم يكتفِ هؤلاء المفكرون بنشر هذه الافتراضات فحسب، ولكنهم أنتجوها وأعادوا إنتاجها كذلك. وكان التأثير الكلي لهذه الافتراضات هو أنها حالت دون القدرة على التفكير في «ما بعد» العولمة، وأدَّت إلى الاعتماد على الروايات القديمة لكيفية التعامل مع الرأسمالية، بغض النظر عن التناقضات الواضحة المتضمنة فيها.

(٦) بطبيعة الحال، يمكننا أن نجد أن أيديولوجية العولمة، وكذا حدها الزمني، يقعان أيضًا خارج عمل مثل هؤلاء المفكرين الليبراليين. ونحن نحقق في ذلك من خلال ما أجريناه من حوارات مع طلاب من جميع أنحاء العالم يميلون إلى فهم العالم على نحو مختلف عن الطريقة التقليدية، والذين يبدو أنهم غير مقتنعين وغير مهتمين بالوعود الكاذبة للافتراضات السبعة و«الحد الزمني» الذي تزعمه.

(٧) في كلتا الحالتين، تلك الخاصة بالمروِّجين للعولمة من الليبراليين وكذا أبناء العولمة، نجد أن ثمة «شيئًا ما مفقودًا»، ثمة شيء ما مفقود بين هاتين المجموعتين، وكذلك في طريقة فهمهم لأن ثمة شيئًا ما مفقودًا في العالم.

(٨) من المفيد أن نفهم هذه الحدود والفجوات، وننظر فيما تعنيه الإمكانيات الخيالية. ولكن علينا أيضًا أن نكون على وعي بأن ثمة شيئًا آخر مفقودًا؛ وهو القدرة الحقيقية على التفكير في «ما بعد» العولمة. وهذه هي نقطة البداية لعالم السياسة اليوم.

الفصل الأول

نهاية العولمة

(١) لا شيء يمكن أن ينقذنا

لا شيء يمكن أن ينقذنا؛ لا مخططات لجان التخطيط الحكومي، ولا الانتشار المظفر للديمقراطية الليبرالية في أركان العالم الأربعة، ولا الاكتشافات العلمية المفاجئة، ولا أعاجيب التكنولوجيا، ولا الحلول السريعة، ولا الحلول الناجعة للمشكلات؛ لا تحول اليمين إلى يسار، ولا اليسار إلى يمين، ولا أن يثوب الجميع إلى رشدهم ويَصِلوا إلى حل وسط يحظى بقبول الجميع؛ ولا الحراس ولا الطلائع، ولا الأمة، ولا المنظمات غير الحكومية، ولا الحس العام، ولا الرأسمالية، ولا المستقبل؛ وبالتأكيد ليس سياسيٌّ شابٌّ ذكيٌّ ولبقٌ، قادرًا على إشعال آمال الواقعيين والمثاليين على حد سواء.

إذا لم يكن يوجد ما يمكنه إنقاذنا، فلِمَ نتكبد عناء الاستيقاظ صباحًا والقيام من أسِرَّتنا؟

إنَّ فَهْمنا لحقيقة أنه ليس ثمة ما يمكنه أن يساعدنا لا يعني على الإطلاق أن نكفَّ أيدينا ونتوقف عن العمل. على النقيض من ذلك، هذه هي الخطوة الأولى لاستيعاب الحدود الحقيقية لما نحن فيه، وما يقتضيه الأمر لتخطي تلك الحدود. في الوقت الراهن، نحن نعمل في إطار هذه الحدود، ونتقبلها بوصفها أمرًا واقعًا وما يجب أن تكون عليه الأمور، ونترك للحكومات تحديد الأسس المنطقية لتخطيط مجتمعاتنا وتنظيمها، ونبقى في انتظار هذا الكيان المجرد الذي يُدعى «العِلم» (أو السوق، أو الإله، أو التراحم)، لينقذنا في اللحظة الأخيرة من جميع أنواع الأزمات الوشيكة؛ مثل استنفاد أنواع الوقود الحفري، وانتشار الأمراض، وارتفاع درجة حرارة الأرض. كما نتصور أن السياسة هي ساحة نصل فيها إلى أرضية مشتركة (مهما كان الوصول إليها صعبًا وعويصًا) تسعد الجميع من خلال النقاش الذكي فيما بين الأطراف المتنافسة، أو أنها، على الأقل، تجعلنا نصل إلى موقف

مشترك بما يكفي للسماح للأمور بالتحسن التدريجي. وحتى مع استمرارنا في الإدلاء بأصواتنا بوداعة في الانتخابات، فقد أصبحت الديمقراطية مرتبطة بالممارسة الغريبة للتصويت لساسة من أحزاب مختلفة، ولكنهم يعتنقون نفس النظرة تجاه العالم. نحن نفضل القبض على اللصوص متلبسين بجرائمهم، ونرضى باكتشاف متعة الاستثناءات بدلًا من الاضطرار إلى مواجهة الحقائق القاسية للقواعد، حتى نتمكن من مواصلة الاستثمار في السوق، والإيمان بقدسية نظمنا الاجتماعية. نحن نتصور أن عائلاتنا واقتصاداتنا تنهار، ليس بسبب طريقة بنائها، ولكن بسبب الأشخاص الطماعين، أو الجشعين، أو ضعيفي الإرادة الذين يتسببون في انحرافها، ونستمر في إظهار مشاعر التشكك والصدمة في مواجهة الأزمات والفضائح، مهما كانت هذه الأحداث متضمنة على نحو جدلي في طريقة عمل الأشياء.

تقع جميع هذه المعالم — هذه الحدود — في قلب تصوراتنا الاجتماعية، وخاصة عندما تعمل على نحو غير واعٍ. ولكنها تقع كذلك في قلب السياسة مباشرة. ومع كل مظاهر الاحتفال بالنظام العالمي الجديد، نرجع باستمرار لمفهوم الأمة، هذا الشكل السياسي القديم البديل الذي ظننا يومًا أننا نجحنا في تجاوزه (أو كنا على مشارف ذلك)، والذي لا يزال حتى الآن لغزًا معقدًا وغريبًا للفضاء الجيوسياسي الذي يرضى معظمنا بالعيش فيه. نحن نعلم أن الأمة هي الخيال الذي يجمع بنحو اعتباطي بين المكان والانتماء. ومع ذلك، لا تزال الأمة تضع الهياكل لكل شيء؛ بدءًا من رغباتنا الأكثر عمقًا، وحتى الجيوش التي تدافع عنها. وحتى الأحلام الأكثر تفاؤلًا لعالمٍ ما بعد القومية، سواء كان هذا العالم في تصورنا يأخذ شكل السكان المحليين للبلاد أو المرتحلين الذين لا بلد لهم، تتكسر صورتها عبر عدسة الأمة. كان من المفترض أن تتسبب العولمة في اختفاء مفهوم الأمة؛ ولكن عوضًا عن ذلك، نشهد في القرن الحادي والعشرين تأكيد الدول على هوياتها وقتالها المستعِر من أجل الحصول على الفتات المتبقي من موارد الأرض. لقد عرقلَت المصالحُ القوميةُ التي كان من المفترض أن نكون قد تجاوزناها النضالَ من أجل مواجهة مشكلة تغير المناخ مرارًا وتكرارًا، وهي أكثر مشكلة تستحق أن نصفها بالعالمية. في الحقبة التي خُيِّلَ لنا أنها ستكون حقبة ما بعد القومية، أصبح مفهوم الأمة أقوى من أي وقت مضى.

إن ما ينطبق على الأمة ينطبق أكثر على الرأسمالية. أصبحت الرأسمالية الآن في كل مكان، وهو ما يبدو تأكيدًا ليس على استدامتها وفاعليتها فحسب، بل وعلى شرعيتها أيضًا. وبسبب عدم وجود أي نظام منافس للرأسمالية يمكن مقارنته بها الآن، فهي

لم تَعُد محلًّا للنقاش. لا يعني هذا أن الجميع راضون عنها، أو أننا لا نستطيع أن نحلل المشاكل والإخفاقات المقترنة بها، بل يعني أن حقيقتها كنظام قد اختفت في خلفية الحياة اليومية. إن المشكلات التي من المتوقع أن تهدد وجود الرأسمالية تؤكد ببساطة على أهميتها وقوتها باعتبارها نظامًا اجتماعيًّا وسياسيًّا (وليس اقتصاديًّا فحسب)؛ ومن ثم، تشكل الرأسماليةُ نفسها الآن «حدًّا حقيقيًّا للفكر». عندما تُنتِج الأزمة الاقتصادية بطالةً، على سبيل المثال، لا تتبدى الحاجة إلى نظام جديد؛ بدلًا من ذلك، يحدونا الأمل في أن تبدأ الرأسمالية من جديد «بأسلوب سليم» حتى يعود الجميع إلى العمل؛ أي أن يعودوا إلى ما أصبحنا نراه حياة عادية. ربما من السمات الفريدة للرأسمالية، والتي تُعد أعظم سماتها، أنها نظام يسمح بأي شيء، إلا التدقيق الشديد في منطقها. لقد أصبح من المستحيل التفكير خارج إطار الرأسمالية، على الرغم من أننا نعلم أنه كان ثمة زمن يسبق الرأسمالية، ومن المؤكد أنه سيكون ثمة زمن بعدها، إلا إذا كنا نشهد نهاية التاريخ البشري في واقع الأمر.

الأزمة، والأمة، والرأسمالية؛ كلها أمور منطقية ندركها من خلال «الحسِّ العام»، نفس الحس العام الذي ذكرنا آنفًا أنه لا يمكن أن ينقذنا. ما الذي نعنيه باستدعاء الحس العام هنا، هذا المفهوم الذي يتناول الحكمة المسلَّم بها (من النوع الذي يزعج الشباب) والبراجماتية التي ترى نفسها تحتل الفضاء الواقع خارج الأيديولوجية؟ المقصود بالحس العام هو مجموعة المفردات الجاهزة، المتاحة في متناول الجميع، التي تصف ما تبدو عليه الأمور، وما يجب أن تكون عليه، والروايات التي قَبِلنا بها لتفسير طبيعة الأشياء. إنه مجموعة متنوعة من الأمور النظرية والعملية التي تتألف من معتقدات موروثة عن الهياكل السياسية، والأفكار المتعلقة بكيفية قضاء الشخص ليومه، والأشياء التي ينبغي على المرء أن يسعى إليها ويناضل من أجلها، وذلك من بين جملة أمور أخرى. في كثير من الأحيان، لا تتعارض رغباتنا الأكثر عمقًا وغير الواعية مع الحس العام، ولكنها تتسق معه أيما اتساق. يحدد الحس العام القرارات والأفعال العقلانية والطبيعية، كما يحدد ما يناقض ذلك. وهو لا يمثل الاعتقاد فحسب، كما أنه ليس بنتاج للطبيعة الإنسانية (أيًّا ما كان هذا، فهو في كثير من الأحيان وعاء فارغ يمكن ملؤه بجميع أنواع الأيديولوجيات)، بل هو نتاج النظم الاجتماعية والسياسية التي نعيش في ظلها. ومن خلال سبيل تبادلي لا يجب أن يفاجئ أحدًا، يضع الحس العام الحدود الخيالية لهذه النظم، ويحمي هياكلها بطريقة شبه إقليمية بُغية استمرار المنطق المحكم الخاص به، ومنع الأفكار الخارجية من

تحدي بديهياته أو مبادئه. الحس العام هو الصوت الأبوي الذي يوقفنا، ويذكِّرنا بأننا قد ضللنا طريقنا وتجاوزنا المعقول، وأننا قريبًا سنجعل من أنفسنا أضحوكة إذا لم نتخلَّ عن مسلكنا الصبياني. إن هذا هو ما نعنيه عندما نقول: «هكذا حال البشر» أو «هكذا تسير الأمور»، وعندما نصرُّ على أن الأمور ستكون دائمًا على ما هي عليه الآن (ربما فقط تسرع من وتيرتها) لأنها كانت دائمًا على هذا النحو.

التناقض الأكثر إذهالًا فيما يتعلق بالحس العام لا يكمن في أنه بلا معنًى؛ ففي الواقع، يبدو الحس العام معقولًا، وعقلانيًّا، ومنطقيًّا للغاية؛ ولهذا السبب يحرز نجاحًا كبيرًا في الحد في خيالنا. بالأحرى، يبدو التناقض الأنيق والقاسي في الوقت ذاته لِلْحِس العام في أنه لا يبالي بعموم الناس على الإطلاق؛ فهو يدَّعي وجود عمومية معتادة وتجريبية ونفعية، ولكنه يعطي مزايا لـ «أقلية» على حساب «الأغلبية»، على الرغم من أن الأغلبية هم الأكثر اعتناقًا وترديدًا لادعاءاته. نحن نريد أن ندافع عن الجانب الآخر للحس العام، الذي لا يفتقر إلى العقلانية (كما يمكن للمرء أن يفترض من وجهة نظر الحس العام)، ولكنه يبدو عقلانيًّا في إطار مختلف؛ فوفقًا للحس العام، تبدو التكوينات السياسية والاجتماعية التي نعيش فيها حاليًّا جيدة بشكلٍ ما؛ حيث إنها كافية لتلبية احتياجات ورغبات عموم الناس. أما حينما أو حيثما تبدو غير مناسبة، فكل ما يقتضيه الأمر هو صقل تروس الآلة القديمة أو إصلاح المكسور منها، أو على أقصى تقدير، عندما ينشأ تحدٍّ كبير وغير متوقع، يمكن إضافة بعض الآليات الجديدة لها. ولكننا لا نرى الأمور على هذا النحو. إن سبب مواجهتنا للعديد من المشكلات والتحديات ليس أننا لم نُولِ التروس والروافع العالقة القائمة بالفعل بأفضل طريقة ممكنة الاهتمامَ الكافي، ولا لأن الكثير من الشخصيات السيئة والشريرة استغلت الآلة (بحيث لو أنهم اختفوا ببساطة، أو أُجبروا على الاختفاء، لعاد كل شيء للعمل كما ينبغي!) وفي كلتا الحالتين، ستستمر الآلة بأكملها، التي أنشئت تدريجيًّا على مدى قرون، في التعثر طول الطريق. ولكن القَدَرَ فرض على ما توجده وتنتجه — أي إنتاجها — أن يظل غير عادل كما كان في القرون الماضية. ومع هذا، يخبرنا الحس العام بأن الزمن يأتي بتحسينات اجتماعية مستمرة؛ فنحن الآن أفضل مما كنا عليه في الماضي، وسنكون أفضل من ذلك غدًا.

هل يمكن أن تتمثل حلول مشاكلنا في إدخال إصلاحات بسيطة في نظام غير عادل؟ لنكن واضحين، لا أعتقد أن النظام معيب أو معطوب؛ فهو يعمل بنجاح كبير، تمامًا مثل القواعد والبديهيات التي أبدعت في تصميمه. والمشكلة تحديدًا هي أنه يعمل، ويستمر

في العمل؛ فلم تفشل كل فضائح الفساد وحالات التعطل المؤقت للنظام في إبطال النظام فحسب، بل ساعدت على دعم استقراره وسلامته. لا شيء يمكنه أن ينقذنا سوى مواصلة تمسكنا بنظام الحس العام الذي أوصَلَنا إلى ما نحن عليه الآن.

(٢) من العولمة إلى معاداة أمريكا

بدأ هذا الكتاب بوصفه مشروعًا لدراسة التعبيرات المعاصرة لمعاداة أمريكا في جميع أنحاء العالم. في صيف عام ٢٠٠٤، كنا ندرِّس مقررًا دراسيًّا في ساو باولو يتناول طرق فهم الحضارة، والتنظير لها، وصناعتها في سياق العولمة. بالنسبة إلينا، من المهم أن نصرَّ على أن العولمة ليست مجرد قوة ساعدت على نشر أشكال وممارسات ثقافية في جميع أنحاء العالم؛ فالطريقة الأكثر شيوعًا للتفكير في الثقافة فيما يتعلق بالعولمة، حتى اليوم، هي من خلال علاقتها بأشكال هجينة جديدة من التعبير الثقافي تنشأ من مزج الأشكال المحلية الموجودة (التي عادةً ما تكون قومية) ومواءمتها. وقد بدا أن الأعمال الأكاديمية وغير الأكاديمية التي تتناول الثقافة المعاصرة ترى مؤخرًا أن الأشكال والممارسات والتعبيرات الثقافية تتلامس بعضها مع بعض، ويُعاد تشكيلها أثناء هذه العملية؛ ومن ثم فليس ثمة معنًى لتصور وجود نقاء ثقافي أو ما شابه. ولا نحتاج للتفكير مليًّا لندرك أن التبادل الثقافي سمة من سمات الثقافة في حد ذاتها؛ فقد كان جوته متأخرًا بالفعل في الكتابة عن الآداب العالمية في عشرينيات القرن التاسع عشر.[1] هناك أمر مشكوك فيه على نحو متساوٍ وهو الافتراض المبدئي الخاص بالثبات المكاني للأشكال والممارسات الثقافية (مرة أخرى، هي عادةً ما ترتبط بالثقافات القومية)، والتي تقتلع من جذورها وتتحول إلى شيء آخر فيما تتحرك؛ إنها أسطورة الأصول إذا كان ثمة ما يسمى بذلك. أردنا أن ندفع طلابنا إلى التفكير بنحو أعمق في العلاقة بين العولمة والثقافة، ولكن بطرق تتجاوز الروايات القياسية التي كانت تكتفي في أكثر الأحيان بدراسة عولمة الثقافة أو ثقافة العولمة. بعبارة أخرى، كنا نريد منهم أن يفكروا بجدية في معنى وأهمية الأمرين السابقين، وفحص كيفية ارتباطهما؛ حيث إن الأول يشير إلى نتيجة عملية (أي إن الثقافة قد تعرضت للعولمة)، في حين أن الثاني يصف شكلًا من أشكال الانتماء لِلَحظة من الزمان تم تحديد طابعها مسبقًا.

وفي خضم التحضير لانتخابات الرئاسة الأمريكية في وقت لاحق من ذلك العام، لم يَسَعنا الهروب من إدراك أن الموضوع الذي كنا نُدرِّسه يبدو متأخرًا. بالنسبة إلينا، لم

تكن العولمة قَط مجرد وسيلة لتسمية تلك التطورات الموضوعية في ظاهرها التي يربطها الجميع الآن بها من دون تفكير؛ وهي في الأساس تشابك الاقتصادات القومية بعضها مع بعض من خلال التجارة والتمويل؛ بل كانت «رؤية» جديدة لكيفية سير الأمور في العالم، رؤية تحتاج هي نفسها للتحليل والتقييم والانتقاد. لقد كانت العولمة مسمًّى لتأكيد جديد على قوة اقتصادية وثقافية وسياسية تحتاج إلى التواري خلف حجاب مزاعمها بأنها قد عرَّفت، بطريقة شبه علمية، ظاهرةً موجودةً في الواقع. وفي جوهرها، كانت امتدادًا وتوسيعًا لقوة أمريكا، واستحضارًا لـ «النظام العالمي الجديد» الذي أعلن عنه الرئيس جورج بوش الأب، ونفذه على نحو أكثر فاعلية الرئيس بيل كلينتون، بغية تأمين موقف الهيمنة العالمية التي كانت تتآكل بسرعة بسبب النهضة الاقتصادية والسياسية التي شهدتها دول مثل الصين والهند والبرازيل. في ساو باولو في ذلك الصيف، بدا أن الجميع قد أدركوا بالفعل أكذوبة العولمة، وفهموا أنها كانت مشروعًا أيديولوجيًّا أكثر منه اسمًا لعملية تاريخية موضوعية، مثل الزمن نفسه، لا يمكن للمرء أن يفعل شيئًا إزاءها. لقد جئنا معنا بمخططات معقدة، وعرضنا أُطُرًا تنظيرية بديلة لتوضيح المساحات والأماكن التي كانت العولمة تربك فيها الأمور وتعقدها، خاصةً فيما يتعلق بالثقافة، إلى جانب أمور أخرى. كان لدى الطلاب والأصدقاء البرازيليين طريقة أسهل كثيرًا لتأطير الأمور؛ فقد نَحَّوْا العولمة جانبًا، وكانوا يَتَحَدَّوْن قوة الولايات المتحدة والوضع العالمي القائم بنحو أعم من خلال معاداتهم لأمريكا بأكثر الطرق المباشرة الممكنة.

في الواقع، يبدو أنه إذا لم يكن الجميع قد أصبحوا معادين لأمريكا بالكامل بالفعل، فهم في طريقهم لذلك سريعًا. كانت الحرب ضد العراق تسير على قدم وساق (وكان صدام حسين يحاكَم بتهمة ارتكاب جرائم حرب)، وكان جورج دبليو بوش يواجه صعوبة في تكوين تحالف الراغبين. وأصبحت الحقيقة الواضحة هي أن الولايات المتحدة ستكمل وحدها إذا ما اقتضى الأمر ذلك. لقد كان من الصعب أن تجادل مع بلد يمتلك أكبر جيش في العالم، ليس هذا فحسب، بل وينفق على الدفاع أكثر من نصف إنفاق دول العالم مجتمعة.[2] كان فيلم مايكل مور «فهرنهايت ١١ / ٩» قد صدر للتوِّ، وسرعان ما أصبح أكبر فيلم وثائقي في التاريخ على الإطلاق من حيث الإيرادات.[3] ورغم الاهتمام الهائل الذي حظي به الفيلم في أمريكا، فإن حجم الجمهور الكبير الذي شاهد الفيلم خارج أمريكا كان له دلالات واضحة في واقع الأمر؛ ففي أقل من عام، تحول التعاطف الذي شعر به العالم بأسره إزاء الولايات المتحدة الأمريكية بعد أحداث ١١ / ٩ إلى شك واسع النطاق،

مدفوع بالحقيقة المحبطة بأن العديد من الأمريكيين (بما في ذلك الرئيس بوش) واجهوا صعوبة في التمييز بين صدام حسين وأسامة بن لادن. كان العداء لأمريكا حينها على أتم استعداد للبدء، ولا يمكن مقاومته، مثل الفاكهة المعلقة على الأشجار في متناول اليد. وتتمثل ألمعية بوش في أنه كان لا يعير هذا الأمر اهتمامًا. لقد كان مؤمنًا حقيقيًّا، وكان يَذْكر لكلِّ مَن يصغي إليه بأنَّ تولي رئاسة البلاد ليس مسابقة شعبية، على الرغم من أن الهيكل السياسي في الولايات المتحدة (مع الإعلانات العاطفية للمرشحين وتنظيمهم لتجمعات سياسية جيدة التنظيم) قائم على نظام المسابقة الشعبية. لقد كانت شعبية بوش داخل الولايات المتحدة الأمريكية هي نفسها ما ألهب مشاعر العداء تجاه الولايات المتحدة الأمريكية في الخارج. لقد بدا وكأن العالم يتساءل: «كيف يمكن لمواطني الولايات المتحدة أن يكونوا على استعداد لانتخابه رئيسًا «مرة أخرى»؟»

وبينما كنا في البرازيل، لم نستطع تجنُّب فيلم «فهرنهايت ١١ / ٩»؛ كانت كل محادثة يتخللها دائمًا تعليق حول الفيلم، وبدا أن كل محادثة تفضي إلى التساؤل حول الآثار السياسية التي ستَنتج والتي يمكن أن تَنتج عنه. هل يمكن أن تكون ثمة حركة عالمية منظمة تسعى لتوجيه الانتقادات للولايات المتحدة الأمريكية؟ هل ستعيد تلك الحركة شحن الطاقات الكامنة لمواجهة التمدد المتجبر للقوة العالمية، وهي الطاقة التي شهدتها الاحتجاجات العالمية ضد الحرب على العراق عام ٢٠٠٣؟ هل سيغير الفيلم مسار الحرب؟ وهل سيكون له تأثير على الانتخابات الأمريكية؟ هل ستكون التيارات الغاضبة المعادية لأمريكا، التي تتسم بالتقدمية، أكثرَ فاعليةً في إحداث تغيير في العالم من العدد الكبير من الدعوات اليوتوبية التي ترنو لمستقبل ديمقراطي جديد؟ بالطبع، لم يحدث أيٌّ من هذا. وعلى الرغم من الْتقاط فيلم مور للأجواء السائدة في ذلك الوقت، وتوليده نقدًا من المستحيل تجنُّبه لطبيعة السياسة المعاصرة، لم يكن الفيلم بالقوة التي كان يأمل بها الكثيرون، بما في ذلك المخرج نفسه.[4] ولم يكن هذا مفاجئًا لنا، وكذا زيادة المشاعر المعادية لأمريكا في جميع أنحاء العالم في أعقاب التدخل العسكري الأمريكي في أفغانستان والعراق. ولكن بوصفنا باحثين مهتمين بالعولمة، كنا مفتونين بطبيعة وطابع هذه المشاعر، وكيفية تعلقها بخطابات وروايات العولمة، والتي شكلت، على مدى العقد السابق عليها، حجر الأساس لكيفية تصور الناس للعالم.

أما ما بدا واضحًا لنا آنذاك فهو أن العداء للولايات المتحدة كان عَرَضًا لشيء آخر؛ فالقضية ليست في كونه لا يتعلق بالولايات المتحدة أو حتى جورج بوش فحسب، بل

أنه لم يكن يُشْبه أشكال معاداة أمريكا في الماضي، مثل تلك التي ظهرت إبان الحرب المكسيكية الأمريكية (١٨٤٦–١٨٤٨)، أو تلك التي نتجت عن حرب فيتنام. وفي تلك الحالات، كان الأمريكيون على قناعة مخيفة بتفوقهم واستقامتهم الأخلاقية، وتسببوا، من خلال استخدام قوتهم العسكرية، في ظهور مشاعر مماثلة من الخوف، وخيبة الأمل، والكراهية، والقلق إزاء الحكومة الأمريكية والأيديولوجيات التي تضع هيكل الحياة اليومية في الولايات المتحدة، وكذا تجاه الثقافة الجماهيرية الأمريكية (كما ظهر من خلال الربط بين كوكاكولا وماركس في فيلم «مذكر ومؤنث» [١٩٦٦] لجان لوك جودار). لا نحتاج إلى وقت طويل لندرك أنه على الرغم من تشابه المشاعر، فقد كانت السياقات التي تم التعبير فيها عن معاداة أمريكا مختلفة نوعيًّا؛ ومن ثَمَّ يجب الاهتمام بمحتواها والظروف التي تمت فيها بدقة. وقد انتبه بعض النقاد لهذا الاختلاف.[5] وعلى الرغم من ذلك، فقد تعامَلَت معظم الدراسات مع معاداة أمريكا باعتبارها ظاهرة يسهل التعرف عليها ويسهل شرحها. ومن هنا بدأت الأبحاث والدراسات ومقالات الرأي في التدفق، لتربط بين التعبيرات الحالية والسابقة الخاصة بمعاداة أمريكا، وتهتم بالأشكال المتميزة التي ظهرت من خلالها هذه الموجة الأخيرة من معاداة أمريكا في دول مختلفة (وذلك في تناغم مع الحاجة للنظر في الإطار العالمي). دائمًا ما كانت كل هذه المنشورات تتمحور حول سؤال واحد: لماذا يكرهوننا؟[6]

وهنا تعود العولمة للظهور. قبل ١١ / ٩، كان الإدراك المتزايد للعولمة والحركات المناهضة للعولمة تميل إلى عدم اعتبار الولايات المتحدة القوة الجيوسياسية الرئيسية. كانت الولايات المتحدة لاعبًا مهمًّا ومعترَفًا به باعتبارها الفاعل الأوحد الأكثر نفوذًا في العالم؛ ومع ذلك، كان التركيز بنحو مباشر على الولايات المتحدة الأمريكية على حساب الشبكات وأنظمةِ السلطة وصنع القرار الجديدةِ يعامَل كخطأ في التصنيف. وقد بدا أن المؤسسات فوق القومية (بدءًا من صندوق النقد الدولي والبنك الدولي وحتى الشركات المتعددة الجنسيات) هي المواد الرئيسية للدراسة وللمقاومة بالنسبة إلى الحركات الاجتماعية. في الكتاب المؤثر «الإمبراطورية» (٢٠٠٠) لمايكل هارت وَأنطونيو نيجري، على سبيل المثال، كان أي تفضيل للولايات المتحدة يبدو أنه يغيب عنه الحقيقة التي تقول بأنه لم تَعُد توجد مراكز إقليمية للسلطة وحدود ثابتة؛[7] ولهذا السبب، استبدل العديد من الباحثين من مختلف التخصصات بصفة «الدولي» صفة «العابر للحدود»، وهو مصطلح أكثر ملاءمة للعولمة، ويلفت الانتباه إلى ضيق الأفق والأبوية المتسم بهما عصر الدول القومية، وظهور جهات فاعلة جديدة غير الدول تتمتع بسلطة كبيرة ونفوذ واسع.

وبعد أحداث ١١ / ٩ وما تلاها من حروب على أفغانستان والعراق، عادت الولايات المتحدة مجددًا لتكون الجهة الفاعلة الأكثر نفوذًا في العالم. كانت القوةَ العظمى الوحيدةَ، إلا أنها كانت قوة عظمى في أفول! وقد نتج عن هذا الأفول تحركاتها وأثرها على العالم في الوقت الحاضر. وجادلت أعمال كلٍّ مِن ديفيد هارفي، وَجيوفاني أريجي، وَنيل سميث، وغيرهم، بأن التغيرات في القوة الجيوسياسية بعيدًا عن الولايات المتحدة تتضح من خلال تأكيد إدارة بوش على الحلول السياسية والعسكرية لمعالجة مشكلات كانت في الأساس اقتصادية تتعلق بالرأسمالية العالمية.[8] بالنسبة إلى هؤلاء المفكرين، إن تمويل قوة عظمى لحلول مشكلاتها السياسية من خلال الإنفاق غير المسبوق بما يتجاوز الميزانية والإكراه الدبلوماسي يمثل تحولًا رئيسيًّا في تاريخ القوى المهيمنة. وقد كانوا يرون أنه مثلما أفسحت لحظة الهيمنة البريطانية الطريق أمام هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية في القرن العشرين، كانت المشكلات الناجمة عن تجاوز القوة العظمى لحدودها ووصولها إلى أفغانستان والعراق من علامات النهاية الوشيكة للهيمنة الأمريكية وصعود قوة مهيمنة أخرى (من المرجح أن تكون الصين). وقد اختلف الكُتاب الذين يقفون على جانب اليمين في الطيف السياسي (بما في ذلك نيل فيرجسون) في تحليلهم لوضع الولايات المتحدة الحالي فقط في رؤيتهم للرغبة العامة في تراجع القوة المهيمنة العالمية الحالية.[9] ومع ذلك، حتى بالنسبة إلى هؤلاء النقاد، عند دراسة بعض الأرقام مثل حصة الولايات المتحدة من الناتج المحلي الإجمالي العالمي، لا يسعنا إلا أن نرى تحولًا كبيرًا في القوة والتأثير.[10]

منذ حرب فيتنام، كانت الأعمال البحثية التي تُنتَج داخل وخارج أمريكا وتَتناول معاداة أمريكا، تتزامن عادة مع لحظات التدخل العسكري الفاضح الذي تمارسه الولايات المتحدة الأمريكية. ليس ثمة شك في أن الزيادة الهائلة الحالية في عدد الكتب التي تتناول معاداة أمريكا (والتي تشارك في تكوين الخطابات المعادية لأمريكا بطرق مثيرة للاهتمام) ترتبط بالفشل الواضح لأمريكا في الاستجابة «المناسبة» لتحديات مرحلةِ ما بعد الاتحاد السوفييتي، وعصرِ ما بعد ١١ / ٩. ولكنْ بدلًا من تفسير معاداة أمريكا فقط من خلال تحديد أسبابها الجذرية المتمثلة في مشاعر العداء الموجهة للقوة المهيمنة، سواء أكانت هذه القوة في أوج عنفوانها، أم كانت لا تزال قوية ولكنها في طريقها للأفول، يمكن للبحث المتعمق في هذا الخطاب الحالي السياسي والثقافي شبه العالمي أن يسمح لنا باكتشاف سمات غير متوقعة للطابع الحالي للقوة العالمية.

تنبثق الأعمال الحالية المتعلقة بمعاداة أمريكا عادةً من إطارِ دراسات المناطق الذي يتعقب أحدث موجات معاداة أمريكا في دولة أو منطقة معينة، ثم يتحرك إلى الخلف بغية

تحليل الجذور التاريخية لهذه الموجة.[11] غني عن القول أن ثمة اختلافات ثقافية عميقة بين ردِّ فعل كلٍّ من كوريا الجنوبية أو تركيا من جهة، وردِّ فعل كلٍّ من البرازيل أو كندا من جهة أخرى؛ إزاء السياسة الخارجية الأمريكية. لا بد من إجراء أبحاث لتحديد هذه الاختلافات، غير أن ثمة خطرًا ماثلًا على الدوام من أن تعمل هذه الأبحاث على فصل كل ثقافة وتمييزها، مما سيؤدي إلى إخفاء الروابط التي نعتزم استكشافها. وبدلًا من التحرك رأسيًّا ووضع معادة أمريكا في سياق قومي، سوف نتحرك أفقيًّا لوضع معادة أمريكا في سياق عالمي يركز على أوجه التشابه بين مواقف الدول، بدلًا من أوجه الخلاف فيما بينها.

علاوة على ذلك، بما أن معاداة أمريكا ليست هي الهدف الأساسي من دراستنا هنا (ولكنها وسيلة لدراسة كيف حَدَّت الخطابات المهيمنة للعولمة من الخيال العالمي المعاصر)، فنحن نعتزم دراسة معاداة أمريكا «تحليليًّا» بدلًا من تقييمها معياريًّا. في الواقع، نرى أن هذا التحيز العام المعياري في الأعمال الأخيرة التي تتناول معاداة أمريكا — الذي إما أن يُدين معاداة أمريكا لسذاجتها وآثارها السلبية[12] وإما أن يحتفي بها لأصالتها وشجاعتها[13] — عيب قاتل فيها. وحتى في أفضل الكتب التي قُدمت مؤخرًا حول معاداة أمريكا، كان الهدف من تقديم نظرة عامة على الخطابات المعادية لأمريكا هو تقديم تفسير لجمهور القراء في الولايات المتحدة الأمريكية للأصول التاريخية لمعاداة أمريكا من خلال جميع النكبات الحربية والسياسية حول العالم؛ أي إنها تقلل من أهميتها من خلال تفسيرها، وهكذا من جديد تُتناول هذه الخطابات كما لو كانت تعبر بالضرورة عن شيء آخر. لكن ما نرغب به هو تقييم لطبيعة هذا الخطاب «العالمي» الطابع وفهمها، وأن نأخذ معاداة أمريكا على محمل الجد بدلًا من محاولة الوصول إلى نتيجة تشير إلى كونها صحيحة أو خاطئة. كما نرغب في وضع الحالة المعاصرة لمعاداة أمريكا في سياق أو فيما يتعلق بذلك الخطاب الآخر الذي يفترض به أن يفسر لنا العالم اليوم؛ ألا وهو: العولمة. لقد أشرنا قبل ذلك إلى أننا كنا نظن أن هذا العداء للولايات المتحدة كان عَرَضًا لشيء آخر؛ فقد كان علامة على التباسات العولمة، من أيديولوجية، وسرد، وخطابٍ ما بعد قوميٍّ، وغيرها؛ حيث بدأت تصل إلى نهايتها دون أن تشير إلى ما بعدها.

(٣) العودة من معاداة أمريكا إلى العولمة

من المفاجئ أن خطابات معاداة أمريكا عاودت الظهور خلال النصف الثاني من العقد الماضي. وما يثير الدهشة ليس أسباب مثل هذه التعبيرات، أو الأساس المنطقي الذي

تقوم عليه؛ فمن الواضح أن المشاعر الأخيرة المعادية للولايات المتحدة كانت بسبب الأعمال العدائية التي قامت بها الحكومة الأمريكية في أعقاب ١١ / ٩. لقد تنحَّت مشاعر التعاطف والاهتمام بالمتضررين بنحو مباشر من الهجوم على برجَي مركز التجارة العالمي، وبالشعب الأمريكي بنحو عام، وتحولت لمشاعر قلق وخوف وغضب؛ عندما أصبح واضحًا أن رد الحكومة الأمريكية سيكون إعلان الحرب أولًا على أفغانستان ثم على العراق. لقد تسببت قدرة الولايات المتحدة على المضي قدمًا في شن هذه الهجمات (وخاصة غزو العراق) من دون تفويض من المجتمع الدولي، ودون خوف من الإخلال بالتوازن الجيوسياسي الهش (لو كان هذا قد حدث خلال الحرب الباردة)؛ في إظهار الطبيعة الحقيقية للقوة المعاصرة أمام الجميع. لقد تسبب انهيار الكتلة السوفيتية في تحوُّل الولايات المتحدة إلى القوة العظمى الوحيدة في عام ١٩٨٩؛ وكان هذا واضحًا للجميع. ولكن، حتى في أعقاب العمليات العسكرية التي قامت بها الولايات المتحدة خلال فترة تولِّي إدارة كلينتون سدة الحكم (فَرْض منطقة حظر طيران على العراق، والصومال، والبوسنة والهرسك، وهايتي، وليبيريا، وسيراليون، وما إلى ذلك، ولكن ليس رواندا)؛ لم تصبح النتائج الحقيقية لهذا التحول المهم في ديناميكيات القوة واضحة وتدعو للقلق إلا مع شن حرب على نطاق واسع، والتوسع الهائل في إجراءات الأمن القومي من خلال إنشاء وزارة الأمن الداخلي.[14]

فما الذي جعل معاداة أمريكا الآن أمرًا يدعو للتعجب؟ بالنسبة إلينا لا تتمثل المفاجأة فيما يتعلق بالمشاعر الأخيرة المناهضة لأمريكا، التي عبَّر عنها الناس في جميع أنحاء العالم، في «المعاداة» — سواء كانت خاصة بالحرب، وقتل المدنيين، والظلم المستمر من خلال التدابير الأمنية الجديدة، وما إلى ذلك — بقدرِ ما تتعلق بوجود «أمريكا» المقترِنة بها هذه المعاداة. ويعود ذلك إلى أن أمريكا، على الأقل من الجانب النظري، لم يَعُد من المفترض أن يكون لها وجود في القرن الجديد. كلما وحيثما ظهرت مشاعر معادية لأمريكا كان ذلك بمنزلة وضع خريطة للقوة العالمية؛ حيث تُعد هذه المشاعر صورة مختصرة لطريقة سير الأمور وكيفية تنظيم العالم. لكن، وكما قلنا فيما سبق، يُعد السياق التاريخي غاية في الأهمية لتقييم طرق وأسباب معاداة أمريكا. لقد ظهرت مشاعر معاداة أمريكا الخاصة بالقرن الحادي والعشرين، مثل تلك التي شهدناها في البرازيل وسمعناها في المقابلات التي أجريناها في جميع أنحاء العالم (سنتناول هذه المقابلات في الفصل الثالث)، في أعقاب الصورة المختصرة الأخرى التي سيطرت على الخيال العام حول طبيعة القوة المعاصرة والاتجاه المرجح أن تسلكه في المستقبل؛ وهي العولمة. إن أحد المبادئ الرئيسية

للعولمة — وهو شيء أساسي جدًّا في رؤيتها للأمور، ومزعوم كفرضية، حتى وإن لم يُعبَّر عنه بنحو مباشر — هو أن الأمة (إن لم تكن الدولة، على الرغم من أنها قد تكون مقصودة هنا أيضًا) كانت تقترب من نهايتها. شهدت ثمانينيات القرن العشرين نقدًا مركَّزًا (وإن كان متأخرًا) لفكرة الأمة في الأوساط الأكاديمية ومن قِبل العلماء في مختلف المجالات مثل النقد الأدبي والعلوم السياسية.[15] وبدا أن نهاية الحرب الباردة قد وفَّرَت الظروف التاريخية المناسبة، أخيرًا، للمساعدة على إنهاء عملية تقسيم العالم إلى دول يتم ترسيم حدود لها، وهي العملية التي اقتادونا فيها مثل الماشية المرسلة لمواجهة مصيرها في التنقل من حياة إلى أخرى، وجعلتنا نتنقل عبر الحدود التي تقيدنا (أو لا تقيدنا). كانت تلك الحقبة الجديدة هي العولمة، وكان من المفترض أن نجد في نهايتها أي شيء إلا التأكيد والدفاع الوقح عن الأوطان. إلا أن هذا الدفاع عن الأمم، الذي ينطوي على مفارقة تاريخية، يصير واضحًا، ليس فقط عندما يتم تأييد أمريكا باعتبارها القوة المهيمنة العالمية، ولكن أيضًا عندما تنتقد الدولُ الأخرى أمريكا لتعريض مصالحها القومية للخطر. وبسبب هذا الأمر (الذي يُحتمل أن يوقع النقاد من جميع الجوانب الأيديولوجية في شَرَكه)، يجب أن تبدأ جميع الدراسات التي تتناول معاداة أمريكا في إجراء تحليل دقيق للعولمة نفسها.

كانت العولمة، ولا تزال، مفهومًا غير واضح المعالم. وعلى الرغم من أنه يُستخدم الآن من دون تعليق في الصحافة والأعمال الأكاديمية — كما لو كان هذا يشير إلى أنه مصطلح حَصَلَ على تعريف ثابت هناك اتفاق عام حوله — فمن الأفضل أن ننظر إليه بوصفه مفهومًا يستحضر مجموعة من الارتباطات؛ فلا تقتصر الموضوعات والقضايا والعناوين المرتبطة بالعولمة على التطورات والأنظمة والعمليات العالمية «الفعلية» فحسب، ولكنها تشمل أيضًا الرغبات والآمال والمعتقدات. ما الأشياء التي أصبحنا نربطها بالعولمة؟ تُعد النهاية المحتملة للدولة القومية إحدى المفاهيم الأساسية المرتبطة بالعولمة. إن الظروف الاقتصادية والتكنولوجية والسياسية الجديدة للقرن الحادي والعشرين، التي بدأت في القرن الثامن عشر، وازدهرت في القرن التاسع عشر، وأشاعت دمارًا شديدًا في القرن العشرين، قد كشفت الشقوق الخطيرة (المؤسسية والمفاهيمية) في الأسس التي بُنيت عليها الدول، وأشارت إلى أن ثمة أشكالًا جديدة للتنظيم السياسي قد تظهر إلى حيز الوجود.

كانت التحولات التي حدثت في النظم الاقتصادية والابتكارات التكنولوجية في العقود الأخيرة تعني أن العمليات والقوى التي شكَّلَت الحياة والتجارب في أي دولة بعينها قد تمددت الآن لتصل إلى ما وراء حدودها، وأصبحت على نحو متزايد خارج سيطرتها. تحتاج

كل دولة إلى المشاركة بفاعلية في التجارة الدولية لتزويد نفسها بالسلع والخدمات التي لا تُنتج داخل حدودها، وكذا للحصول على دخل من خلال تزويد الآخرين بالشيء نفسه، وهو ما لا يخفى على أحد. ما أراد مصطلح «العولمة» لفت الانتباه إليه هو التغيير الواسع في هذه العملية، هذا النموذج الجيوسياسي الجديد، الذي حوَّل الحكم الذاتي وسيادة الدول القومية الحالية على نحو متزايد إلى بناءٍ هشٍّ.

كان يُعتقد أن الدافع الأساسي لهذا التغيير هو الأشكال التكنولوجية الجديدة التي جعلت العالم أسرع وأصغر. لقد اضطلعت التقنيات المختلفة بدور مهم في إحداث هذه النقلة النوعية، بما في ذلك النقل الجوي (فيما يتعلق بالتوسع والدَّقْرَطَة)، وتقنيات الكمبيوتر، وأشكال وسائل الإعلام الجديدة مثل الإنترنت والهواتف المحمولة. تجاوزت هذه التقنيات الحواجز القومية، كما أنها لعبت دورًا مهمًّا في إحداث تغييرات في الممارسات الاقتصادية. وقائمة التطورات التالية مألوفة لكلِّ مَن يتابع المستجدات السياسية والاقتصادية على مدى العقود القليلة الماضية: التصنيع حسب الحاجة، وسلاسل الإنتاج العالمية، والاستعانة بعمالة خارجية على نطاق دولي. ولم تقدِّم التقنياتُ الجديدة الدعمَ المادي للنظام الاقتصادي الجديد فحسب، ولكنها لعبت دورًا مباشرًا في الاقتصاد نفسه: الإنتاج، والتوزيع، والتسويق، والتمويل. باختصار، تشير العولمة إلى التغيرات السياسية والتكنولوجية والاقتصادية التي تعمل معًا لإحداث تغيير مرحلي تاريخي، خاصةً فيما يتعلق بوضع الأمة في النظام الجيوسياسي.

وفي حين كان ثمة بعض مظاهر القلق حول آثار هذا التغيير على مكانة وقوة الدول القومية، وتأثيرها على السكان على الصعيد القومي، فإن مما يدعو للدهشة بالنسبة إلى العولمة أن هذا التطور — في المجمل — كان مُرحَّبًا به. لقد أشار تغيير الشكل الأممي إلى إمكانيات جديدة للمجتمعات البشرية، ولم يكن نظام الدولة القومية يستحق الاحتفاء والتشبث به؛ فسجله يحتوي على حروب لا تنتهي، ومعاناة وإقصاءات. ولا تكمن الخلافات والقلق حول العولمة في النهاية المرتقبة للأمم بقدرِ ما تتعلق بالطابع الدقيق لما كان سيحلُّ محل نظام الدولة القومية. لم يلجأ القوميون إلى معارضة العولمة بسبب الحب العميق والثابت للشكل السياسي القومي، ولكن لأنهم كانوا يخشون أن بعض البرامج والسياسات التي تدعمها مجتمعات قومية معينة — مثل الرعاية الصحية الشاملة، وحماية البيئة، والتعليم العام، وما إلى ذلك — سوف تتعرض للخطر أو تختفي تمامًا. وحتى الحركات المناهضة للعولمة عرضت بسرعة تصحيح الاسم الذي أطلقه عليها

الصحفيون بعد الاحتجاجات ضد المؤتمر الوزاري لمنظمة التجارة العالمية في سياتل عام ١٩٩٩. لقد أرادوا أن يعلنوا أنهم لم يكونوا ضد العولمة أو كانوا يعملون لصالح الأمة، بل هم يريدون مواجهة النظام السياسي والاقتصادي القادم ليحل محل نظام الدولة القومية (ومن ثم فإن الوصف الأفضل للحركات المناهضة للعولمة هو المقدمة لعولمة بديلة؛ حيث إن القضية هنا هي تقديم عولمة بديلة، وليس القضاء على العولمة). وقد كان هذا بمنزلة نظام يتكون من هيئات صنع قرار ومنظمات دولية غير تمثيلية وغير منتخبة، تسيطر عليها — إلى حدٍّ كبير — الدولُ الغربية الغنية، التي بدت على استعداد لتولِّي دور حكومة الأمر الواقع بالنيابة عن الكوكب بأسره.[16] لقد كانت العولمة قادمة لا محالة، وكانت في طريقها للظهور بالفعل، مهما حدث؛ فقد كانت أمرًا لا مفر منه. أما كيف كان لها أن تَحْدث، وما الذي سينطوي عليه هذا، فهذا ما كان محلًّا للنقاش العلمي وموضوعًا للصراع السياسي؛ أما حقيقة ما يسمى ب «العولمة»، فلم يكن كذلك في حد ذاته.

وينبثق جزء من الافتقار إلى الدقة الذي صاحَبَ مفهومَ العولمة من العدد الكبير من المحاولات المتعارضة لتعريف «كيفية» حدوثه.[17] لقد كانت الرغبة في تسمية وتعريف هذا الشيء الجديد لا تُقاوم؛ وتجاوزت هذه المحاولات الاقتصاد والسياسة، وَوَصلت إلى عالم الثقافة والهوية. يبدو هذا معقولًا؛ نظرًا لأهمية الثقافة والهوية بالنسبة إلى منهاج سير الأمم. لقد أنتجت الدولة القومية مواطنًا قوميًّا؛ فنتج عن الهشاشة المتزايدة لسيادتها، بالإضافة إلى الحدود المادية والثقافية، إمكانيةُ ظهور هويات هجينة أو ما بعد قومية، على نطاقٍ يتجاوز كثيرًا التجاربَ السابقة للهجرة أو السفر (على الرغم من أن هذه الحالات أصبحت موضوعات مثيرة للاهتمام في التحليلات التي يقوم بها مَن أرادوا فحص حركة التنقل في القرون السابقة من خلال عدسة العولمة). وتقوم تحليلات عدم اليقين والضَّعف — اللذين يُعتقد أن الأفراد المعاصرين سيعانون منهما في مواجهة الحياة — في ظل العولمة حول فرضية وجود المواطن القومي الذي كان مستقرًّا، الذي تؤدي قدرته على الاستماع الآن إلى مغنية الراب مايا أو موسيقى الريجيه تون، وقراءة أعمال أورهان باموق أو روبرتو بولانيو، إلى ظهور فرص جديدة وغير متوقعة للفرد والمجتمع. إن إمكانية التحرك عبر الحدود أو استحالته، سواء كانت حقيقية أو متصورة أو متوهمة، هي ما تعرِّف طريقة المرور بتجربة العولمة. وقد سعى عدد كبير من الكتب والمقالات الأكاديمية لتقديم تحليلات معقدة لهذه التصورات، مع وضع كلمات جديدة وابتكارات مفاهيمية خاصة بها (على سبيل المثال، استخدام رولاند روبرتسون لمصطلح «العولمة المحلية» أو أبعاد الثقافة

العالمية التي ينادي بها أرجون أبادوراي)،[18] يحاول كلٌّ منها أن يصل إلى «الجديد» في العولمة و«كيفية» عملها بصورة سليمة، حتى نتمكن من العيش في حياة أصبحت فجأة شديدة التعقيد.

وعلى خلفية عالَمٍ دَخَلَ إلى مرحلة العولمة، يمكن أن نرى أن معاداة أمريكا تنطوي على مفارقة تاريخية؛ ففي أحسن الأحوال، تمثل معاداة أمريكا التعبير المجرد عن عدم الرضا السياسي؛ وفي أسوأ الأحوال، تعبر عن خطأ في التصنيف يعجز عن فهم أننا نحيا الآن في زمن مختلف تمامًا. ولكن من الخطأ أن نرى الحركات الجديدة لمعاداة أمريكا مثلَ ما شهدناه في البرازيل على هذا النحو؛ كخطوة للعودة إلى نعيم سياسة كانت حتى في وقت مبكر سهلة للغاية. إن معاداة أمريكا ليست ردَّ فعلٍ على تعقيد العولمة للعالم، ونكوصًا إلى وجهة نظر أكثر شفافية لطريقة تنظيم العالم. ولكن بدلًا من ذلك، ينبغي أن يذكرنا إعادة الظهور المفاجئ للأمة في الخطاب المناهض للولايات المتحدة الأمريكية بحقيقة أساسية؛ مفادها أنه على الرغم من أن عمليات وآثار العولمة موجودة بالفعل، فإن «العولمة نفسها غير موجودة».

بطبيعة الحال، العديد من الأشياء — أو بالأحرى معظم الأشياء — التي ارتبطت بالعولمة موجودة بالفعل، بدءًا من مجتمعات الفضاء الإلكتروني، وصولًا إلى معاهدات التجارة العابرة للحدود القومية، إلا أن العولمة، كنظام، لا وجود لها بالطريقة التي يتصورها البعض عادةً. في الواقع، ظهرت العولمة إلى الوجود وتستمر في عملها اليوم تحديدًا بوصفها خطابًا يبتغي التعتيم على نظام موجود بالفعل؛ ألا وهو الرأسمالية. فثمة خفة يد مفاهيمية تعمل كلما استُدعيت العولمة. ومثل أي اسم يهدف إلى تحديد وتوضيح شيء معقد مثل فترةٍ تاريخيةٍ ما (على سبيل المثال، الحداثة)، أو الإشارة باختصار في كلمة واحدة إلى طابع «روح العصر»، فإن العولمة هي مجموعة من الإجراءات والعمليات والآثار والنتائج المنفصلة والمتميزة، المجمعة معًا بهدف إنتاج مصطلح مفهوم وواضح. ولكن، في الواقع، ليس هذا ما تفعله العولمة؛ فبدلًا من إنتاج الوضوح، تُنتج العولمةُ الغموضَ؛ فغالبًا ما تُمثَّل بوصفها نظامًا متماسكًا، بينما هي في الواقع مجموعة من العمليات والآثار عبر المجالات المختلفة على نطاق واسع من الحياة الاجتماعية، وتتجمع معًا من أجل الوصول إلى غاية ونتيجة محددة.

داخل العالم الأكاديمي، ليس من الصعب تتبُّع وشرح خطأ التصنيف هذا. قبل منتصف تسعينيات القرن العشرين، لم تَرِدِ العولمة بنحو واسع في البحوث الأكاديمية.

بالطبع كانت العمليات والخصائص التي ارتبطت فيما بعدُ بالعولمة (مثل ضغط الوقت والمكان، والاتصالات الجديدة، والأشكال الجديدة من المضاربات المالية، وغيرها) كثيرًا ما تَرِدُ، ولكنها دائمًا ما كانت تأتي تحت مسمًّى آخر؛ مثل رأسماليةِ ما بعد الصناعة، وما بعد القومية، والرأسمالية المتأخرة، وما بعد الفوردية، والرأسمالية المعلوماتية، وما بعد الحداثة، والتراكم المرن، والرأسمالية العالمية، وما إلى ذلك. ولم يكن استبدال لفظ «العولمة» بهذه الأسماء فحسب مسألة دلالية؛ أي حلًّا لغويًّا لتبسيط مجموعة من المفاهيم المختلطة، وإنما بالأحرى، كانت الهيمنة الجديدة للعولمة، في جوهرها، بمنزلة وسيلة لتجنب التفكير في الرأسمالية والحديث عنها، وأهمُّ من ذلك، لتجنُّب قضية النظام تمامًا، وهي القضية الكبرى.

كانت آثار العولمة شاملة للغاية، وغير متبلورة، ومتغيرة الشكل، وفوضويةً لدرجةِ أن مجرد التفكير في تحديد منطقها أو اتجاهاتها (كما هو الحال مع أي نظام آخر) أصبح مصدرًا للإحباط. وفي هذه المرحلة، اقتحم الأكاديميون من جميع المجالات البحث في هذا الشأن. فعمد الباحثون في الأدب الإنجليزي إلى الكتابة عن عولمة شكسبير (ليس فقط عن عولمة دراسات شكسبير اليوم، ولكن العولمة خلال عصر شكسبير)؛ وتتبع علماء الأنثروبولوجيا تقاطُع تدفقات الشتات؛ حيث اكتشفوا أننا نتعرض للعولمة طوال تاريخنا كجنس بشري، أما علماء الأوبئة فدرسوا الانتشار العالمي للأمراض، إلى آخره، وصولًا إلى مديري الجامعات الذين سعدوا لتصنيف جامعاتهم بوصفها «عالمية»؛ اللفظ الذي سيستخدم في وقت لاحق بوصفه صفة لأي اسم (الجامعات العالمية، والخبرة الجامعية العالمية، والمناهج العالمية، والجهات المانحة العالمية، وما إلى ذلك).

ولكن كما هو معتاد، كان المؤرخون هم أقل الأشخاص اقتناعًا؛ فعندما يتحدث شخصٌ ما بحماس عن حداثة العولمة — مدى اختلاف كل شيء وكيف يمكن لأي شخص لا يقدِّر هذه التغييرات أن يكون متأخرًا — دائمًا ما يظهر مؤرخ ليذكِّر الجميع بأن كل الخصائص الجديدة المنسوبة إلى العولمة كانت في واقع الأمر موجودة بالفعل منذ فترة. وإذا ما جادل شخص بأن العولمة بدأت في سبعينيات القرن العشرين مع أزمات النفط وظهور الحاجة الجديدة لتقنيات معلوماتية لتوفير مرونة أكبر في الاستفادة من رءوس الأموال، فسيظهر مؤرخ ليشير إلى أن العديد من هذه الروابط والشبكات نفسها كانت تعمل بالفعل في بداية القرن.[19] أو إذا ما جادل أحد علماء العلوم السياسية بشأن سبل تقويض استقلال الأوطان في إطار العولمة، فسيصحِّح مؤرخٌ الصورةَ لدى الجميع من

خلال توضيح كيفية تقويض طرق التجارة في العصر الحجري القديم بدورها للاستقلال المحلي. إلا أن هؤلاء الرافضين لم يستهدفوا متخصصي العلوم الاجتماعية فحسب؛ فإذا ناقش باحث أدبي كيف ترتبط المرونة الجديدة للعولمة بالابتكارات الشكلية للرواية المعاصرة (مثل النظر للعالم من منظور شخص آخر، أو استخدام أسلوب الصور المجزأة، أو الافتقار إلى الصوت السردي الثابت)، يتقدم أحد مؤرخي الكلاسيكيات ليوضح للجميع أن كل تلك التقنيات موجودة بالفعل منذ عصر هوميروس.

ومن ثم، تَحوَّل الجدل الدائر في الجامعة حول العولمة، إلى نقاش حول كيفية تحديد إطار زمني لهذا الشيء الجديد. متى «بدأت»؟ وكيف «تتصل» بما كان قبلها؟ وردًّا على المؤرخين التقليديين، هل يمكن أن تعمل الظاهرة نفسها بنحو مختلف في لحظات تاريخية مختلفة؟ من الضروري أن تشمل مثل هذه الأسئلة السؤالَ الخاص بكيفية تناول العولمة؛ أي كيفية سرد قصة العولمة. المهم هنا هو أن لحظة هيمنة العولمة (اغتصاب الرأسمالية ومشكلة النظام نفسه) كانت هي نفسها لحظة التخلي عن كل محاولات «تفسيرها». كان كل ما تبقى في هذه المرحلة هو «وصف» العولمة — التي أصبحت حينها اسمًا لمرحلة زمنية وقوة تاريخية عالمية فعلية لا تقاوم — بكل مجدها اليوتوبي أو تهديدها الديستوبي. إن الصراع حول كون العولمة شيئًا جديدًا نوعيًّا، أم استمرارًا لما هو معتاد — وهو الصراع الذي كان يقع دائمًا على مستوى الوصف — قد تمخض عن هذا السؤال المهم: متى يمكن أن «تنتهي» العولمة؟

من المستحيل أن نسأل هذا السؤال ضمن الخطاب السائد للعولمة، وتحديدًا بسبب أن فهم العولمة على المستوى الوصفي فقط (على سبيل المثال، بوصفها فئة أسلوبية: أنها أسرع، وأكثر مرونة، وأقل مركزية) يجعل المرء لا يستطيع أن يتخيل دخول نظام مختلف إلى حيز الوجود؛ فالعولمة هي اسم واقعنا وحاضرنا، والمستقبل بقدرِ ما نستطيع أن نرى. أما عند النظر إليها بوصفها فئة زمنية، فقد كانت لها طابع مختلف تمامًا عن أوصاف سائر فترات التاريخ البشري. فحتى إبان ذروة الحرب الباردة، لم يكن من المتخيل قط أن تستمر هذه الحرب إلى الأبد. كان لا بد من أن نشهد نهاية لهذه الحرب؛ سواء من خلال انتصار أحد الجانبين في الحرب، أو التوصل إلى حل وسط أيديولوجي معين، أو تدمير للجنس البشري من خلال الصراع النووي.

إن ظهور نظام تجعله عناصرُه الأساسية من النوع الذي لا يمكن أن ينتهي كان مفتاحًا لإحاطة العولمة بهالة حتمية. ويتضح هذا بدرجة أكبر من خلال الخلط المتعمَّد

الناتج عن المصطلح؛ هذا المزيج السلس من عناصره التجريبية والأيديولوجية. إن العولمة هي التقدم التكنولوجي. بالتأكيد، سيتزايد صِغر حجم تقنيات الكمبيوتر وسرعتها، وستلعب دورًا أكبر من أي وقت مضى في الحياة اليومية! تشير العولمة إلى الإنتاج في مواقع متفرقة في جميع أنحاء العالم؛ من ثَمَّ، هل يمكن أن يكون ثمة معنًى لصنع شيءٍ ما في منطقة قومية واحدة مرة أخرى؟ لماذا سيرغب المرء في أن يصبح أقل إنتاجية وكفاءة؟ ألَمْ تكن هذه، على أي حال، وسيلةً لزيادة الناتج المحلي الإجمالي للجميع، مما يساعدهم على الوصول لنفس المستوى من النجاح الاقتصادي؟ وربما كانت إزالة كل الحدود والحواجز الاقتصادية بين دول العالم هي الشيء الوحيد الذي من المتوقع أن يتطلب قدرًا كبيرًا من الوقت، فهي بطيئة في عالمٍ يتَّسم بسرعة ونطاق كبيرين في كافة عملياته الأخرى على نحو مثير للدهشة. لا يمكن للعولمة أن تنتهي، ومجرد الإشارة إلى هذا قد يعني الرغبة في حدوث سيناريوهات كارثية، أو يعني استحضار سيناريوهات مثيرة للضحك من اللاضية الزمانية (أي محاولة إيجاد سبل للحياة دون تدخل من التكنولوجيا، مثل الزراعة العضوية وما إلى ذلك)؛ ومن ثم، فإن التحول التصنيفي من بنية الرأسمالية إلى آثار العولمة، ومن التفسير إلى الوصف، من شأنه أن يقضي على إمكانية التفكير في بديل للعولمة. وحتى لو تزايدت صعوبة تخيُّل مثل هذه السيناريوهات، فقد كان يمكن للرأسمالية أن تفشل أو أن يحل محلها نظام اقتصادي آخر. ولكن ماذا عن العولمة؟ إن الديمقراطيات الاجتماعية مثل النرويج والسويد، أو الدول صاحبة المبادئ الاقتصادية الأبعد عن الرأسمالية، مثل بوليفيا أو كوبا أو فنزويلا، يمكن أن يُنظر إليها بوصفها كيانات بعيدة عن الرأسمالية إلى حدٍّ ما؛ إلا أنها قد اشتركت جميعًا في العولمة. وكيف يمكن ألا تشترك؟ فالعولمة بلا حدود أو نهاية؛ فهي يمكنها فقط أن تسرع من وتيرتها، وأن تصبح أكثر تكاملًا أو انقسامًا، وأكثر عمقًا وانغماسًا في الحياة اليومية لكل شخص، في كل مكان.

لكن مع حدوث الانهيار المالي في نهاية عام ٢٠٠٨، بدأت العولمة تفقد قوتها؛ فبالرغم من كل شيء، جاءت نهايتها على نحو غير متوقع. كانت معاداة أمريكا التي نشأت خلال سنوات حكم بوش أُولى بوادر ظهور بعض الصعوبات التي واجهتها العولمة في أَسْر خيال الناس بوصفها الحسَّ العام الجديد لطريقة سير الأمور. إن العناصر الأساسية المكونة للعولمة — على سبيل المثال: تأثير التكنولوجيا على التجربة الحياتية، أو حركة الشعوب عبر الحدود، أو الآثار الواقعية لمستويات التجارة الدولية المرتفعة تاريخيًّا — لم تتوقف

على حين غرة. لكن لم يستطع العمل الأيديولوجي للعولمة أن يقاوم الاضطراب؛ إذ انكشف أمره أخيرًا وتمامًا من خلال انهيار النظام. فبدلًا من العولمة، التي يجب أن نتذكر أنها كان يفترض أن تسمى كذلك في الوقت الراهن، أصبح من الممكن الآن أن نتحدث مباشرة عن الرأسمالية، التي حجب وأخفى وجودَها وقوَّتَها وشراستَها فكرةُ العولمة التي ظهرت بعد الحرب الباردة. ويتجلى ظهور الرأسمالية من جديد في الإشارات العديدة إلى «النظام» التي ظهرت اليوم في محاولات لوصف الظروف التي نواجهها الآن: «لم ينجح النظام»، «النظام يواجه أزمة»، «يجب إصلاح النظام إصلاحًا جوهريًّا». أما من يقول مثل هذه الأشياء، فهذا أمر يجب أن يحظى باهتمامنا. بالنسبة إلى بعض اليساريين، فإن إمكانية تسمية النظام — الرأسمالية — مباشرةً خارج مزيج التعتيم الذي تقوم به المفاهيم والقوى والعمليات المرتبطة بالعولمة، تمثِّل لحظة تسمح بوجود احتمالية سياسية حقيقية. وبالنسبة إلى المعنيين بصياغة فكر العولمة من البداية، فإن الاعتراف بالأخطاء، الذي من المتوقع أن يَرِدَ في المناقشات التي تتناول الحاجة إلى إصلاح النظام، لم يظهر في أي مكان تقريبًا. وعندما يظهر مثل هذا الاعتراف، كما هو الحال في اعتراف آلان جرينسبان بالخطأ في أكتوبر عام ٢٠٠٨ (عندما بدأت حالات الإفلاس وعمليات الإنقاذ في التزايد)، فإنه يشير إلى أن السبب في هذه المشاكل هو قِصَر نظرهم (بطريقة نرجسية نموذجية) وليس منطق النظام نفسه.

إن أحد أقدم توصيفات العولمة، وأكثرها دقة وانتقادًا (وهو ما يجب أن نشير إليه)، هو ما زعمه فرانسيس فوكوياما من أن نهاية الحرب الباردة في العالم ستكون «نهاية التاريخ». لا يهتم هذا الزعم في الواقع بالزمن أو التاريخ، على الرغم من أن استحضاره لنهاية العالم يشير إلى مفهوم اللازمنية الذي سيصبح ضروريًّا للحتمية الواضحة للعولمة وعدم إمكانية تجنبها. إنه، بالأحرى، زَعْم بخصوص الأيديولوجية والتغيير، وتحديدًا فيما يتعلق بالهياكل السياسية والاقتصادية. يشير فوكوياما للوضع العالمي بعد سقوط جدار برلين قائلًا:

> إن ما نشهده قد لا يشير إلى نهاية الحرب الباردة فحسب، أو إلى مرور فترة معينة من تاريخِ ما بعد الحرب، ولكنه يشير إلى نهاية التاريخ كما نعرفه ... أيْ نقطة النهاية للتطور الأيديولوجي للجنس البشري وعولمة الديمقراطية الليبرالية الغربية باعتبارها الشكل النهائي لحكم البشرية.[20]

لا يُعد هذا وصفًا لإمكانية تجريبية موجودة بالفعل، بل ولا يمكن أن يكون كذلك؛ وحتى إذا ما صدقنا فكرة فوكوياما حول التطور التاريخي بأقوى ما يمكن، فإن مثل هذا الزعم

لا يزال في حاجة إلى إثبات صحته واستمراره بمرور الوقت. ولكن على أي حال، فإن هذا ليس وصفًا ولا فلسفة، ولكنه دعوة لتبنِّي مشروع سياسي؛ مشروع يهدف إلى تحقيق شروط «نهاية التاريخ» التي تم الإعلان عنها هنا. وكان اسم هذا المشروع، بطبيعة الحال، هو العولمة.

يمكن للمرء أن يتوقع أن انهيار النظام الذي نعيش في ظله قد وضع نهاية لمثل هذا الحديث الواثق عن «نهاية التاريخ»، وقد حدث هذا بالفعل. يتضح هذا في عنوان كتاب روبرت كاجان الذي يتحدث عن نهاية العولمة «عودة التاريخ ونهاية الأحلام».[21] ولكن الاعتراف بعودة التاريخ — وليس أنه كان موجودًا طوال الوقت؛ مخفيًّا أو محجوبًا؛ بل لم يكن موجودًا (لعقدين من العولمة) ثم عاد (في اللحظة الراهنة) — لا يعني الاعتراف بأن أي شيء ذي أهمية كبيرة قد تغير فيما يتعلق بزخم التاريخ أو حركته. ولكي نكون واضحين، تعني نهاية التاريخ بالنسبة إلى فوكوياما أن الإنسانية قد نضجت لتصل إلى النقطة التي أصبحت فيها الديمقراطية الليبرالية الغربية هي الخيار الوحيد المناسب، وبالنسبة إلى كاجان، تُعد الديمقراطية الليبرالية الغربية هي الشكل السياسي الشرعي الناضج الوحيد. والفارق هنا هو أنه، بالنسبة إلى كاجان، لا تمنح حركة التاريخ الذاتية الشرعية التي تنتج عن النضج السياسي والأيديولوجي. إذا كان من الممكن تصور أن التاريخ قد انتهى مع تأسيس «شكل جديد من النظام الدولي، مع اندماج الدول القومية معًا أو اختفائها، واختفاء الصراعات الأيديولوجية، واختلاط الثقافات، وزيادة الاتصالات والتجارة الحرة»،[22] فقد عاد التاريخ الآن في صورة منافسة دولية بين دول قومية. لقد عدنا إلى المستقبل، إلى نهاية الحرب الباردة، إلى صورة قديمة من الصور الجيوسياسية، وإن كان ذلك في سياق جديد. لقد أثبتت التطورات التي حدثت في السنوات العشرين الماضية خطأ فرضية أن التحرر الاقتصادي يؤدي إلى التحرر السياسي، فضلًا عن «الاعتقاد الراسخ بحتمية التقدم الإنساني، الاعتقاد بأن التاريخ يتحرك في اتجاه واحد فقط.»[23] وعلى الرغم من عولمة التجارة بالكامل، يشهد العالم عودة المنافسة بين الأنظمة الديمقراطية ونظيراتها الاستبدادية (روسيا والصين وإيران)، وإنشاء «خطوط صدع جيوسياسية؛ حيث تتداخل طموحات القوى العظمى وتتصارع.»[24] ما الدرس المستفاد من كل هذا؟ الدرس المستفاد هو أنه «يجب أن تبدأ ديمقراطيات العالم في التفكير في كيفية حماية مصالحها والدفاع عن مبادئها في عالمٍ تواجِه فيه تلك المبادئُ تحدياتٍ قوية مرة أخرى.»[25] تبقى المبادئ كما هي، برغم كل شيء. أما الذي يتغير، فهو ببساطةٍ طبيعة المشروع السياسي الذي يمكن تحقيق هذه المبادئ من خلاله.

بدأ مدح المعلقين السياسيين ومؤلفي الكتب التي تتناول الأحداث الجارية للتقدم الذي تحرزه العولمة وفاعليتها السياسية والاقتصادية في الاختفاء. وظهر شعور بأن العالم يواجه كل أنواع التحديات التي تتطلب كلًّا من التفكير والعمل الجادَّين، بالإضافة إلى إحداث تغيير كبير في طريقة إدارة الأمور. وحتى مع ذلك، وكما يظهر من خلال كتاب كاجان، ثمة اختلافات بسيطة على نحو ملحوظ بين الأفكار والقيم — في واقع الأمر، طبيعة النظام نفسه — التي من المتوقع أن نستخدمها لمواجهة هذه المشكلات؛ بل إنه يبدو أن هناك إدراكًا أقل بأن هذه المشكلات قد تكون نتاج النظام الذي نتصور الآن أنه السبيل الوحيد لحلها. إن الفكرة السياسية الأساسية للعولمة كانت أن نرى الديمقراطية الانتخابية والرأسمالية متلازمتين في جميع أنحاء العالم. ثمة مبدآن يقودان المشروع السياسي للعولمة؛ أولًا، ودون أن يتم الإعلان عن ذلك صراحةً: كانت العولمة وسيلة للحفاظ على الوضع المهيمن للولايات المتحدة في العالم والتحكم به، وقد قامت بذلك بالفعل من خلال التعبير المتواصل عن حتمية جميع العمليات والقوى المرتبطة بالعولمة وجدواها؛ أي إنتاج ونشر قيم الرأسمالية الديمقراطية الليبرالية، لا بوصفها أيديولوجية يمكن لأي شخص أن يبدي رأيه بشأنها أو قد يختلف معها، ولكن باعتبارها شكلًا من أشكال الحسِّ العام، بل وأكثر من هذا، فهي حس عام لا يرتبط بالولايات المتحدة الأمريكية ارتباطًا مباشرًا. ثانيًا: كان هذا التطور، بأي حال من الأحوال، حتميًّا تاريخيًّا؛ إذ كانت الأمم والأفراد سيجدون أنفسهم في هذا الوضع في مرحلةٍ ما؛ أي إن المقاومة غير مجدية، ليس فقط بسبب قوة المؤسسات القائمة، ولكن نظرًا لحركة الزمن نفسه.

وماذا عما بعد العولمة، عندما عاد التاريخ؟ من المدهش أن الانتشار العالمي للديمقراطية الليبرالية والرأسمالية يُنظر إليه بوصفه أمرًا لا مفرَّ منه، ولكن ظهرت الآن مرة أخرى الحاجة إلى النضال من أجل تحقيق هذا الوضع على أرض الواقع؛ وهو نضال ينطوي على الدول القومية. قد توحي معاودة الأمة للظهور في السياسة بأن ثمة لاعبًا جديدًا تمامًا على الساحة السياسية العالمية، استيقظ فجأة من سُباته. في الحقيقة، لطالما كانت العولمة تشمل الدول القومية، وخصوصًا الولايات المتحدة الأمريكية. (ويمكننا أن نفكر في الصين كذلك، ذلك البلد الذي تَطلَّب اندماجه الناجح في الاقتصاد العالمي وجود دولة قومية قوية، أو اشتراك حكومات روسيا والبرازيل والهند وغيرها، في الواقع، اشتراك كل الدول القومية في حدوث العولمة.) كانت العولمة أحد الأشكال التي استطاعت أمريكا من خلاله أن توضح العقلانية والحس العام للقيم والأفكار التي تدَّعيها نيابةً

عن الرأسمالية والديمقراطية. وبعد العولمة، كانت ثمة حاجة لتغيير «شكل» التعبير عن هذا الحس العام؛ فمع انهيار النظام عام ٢٠٠٨، انتهى التسليم المطلق بحتمية العولمة، وثباتها وديمومتها. ومن الأشكال الجديدة التي اتخذها هذا الحس العام كان تقديم فكرة «لحظة ما بعد أمريكا»، وهو تعبير عن الاستسلام إزاء مشاعر معاداة أمريكا السائدة في السنوات القليلة الماضية، على الرغم من أن هذا الشكل، كما سنرى، يهدف إلى الحفاظ على وضع الهيمنة الأمريكية، مثله في ذلك مثل العولمة. ولم يشهد «محتوى» هذا الحس العام سوى تغير ضئيل؛ فتَحْتَ ستار نقلة نوعية أخرى (في البداية كانت العولمة، ثم نهايتها) تتطلب تحليلًا متماسكًا، ظهر الحسُّ العام المحرك لخطاب العولمة، وربما جاء ملتحفًا بثوب جديد.

ومن ثم، يوحي كل ما كُتب تقريبًا حتى الآن عن العولمة وما بعدها بأنها كانت مجرد ستار أيديولوجي، أو وعد كاذب؛ في أحسن الأحوال، هي فكرة اجتماعية وعلمية اتضح (في نهاية الأمر) أن قيمتها التفسيرية كانت أقل من المأمول منها، وفي أسوأ الأحوال، هي شكل يُستخدم للحصول على الموافقة على الرأسمالية الديمقراطية الليبرالية بطريقة من الصعب مواجهتها أو مقاومتها. ومع ذلك، فإن هذا من شأنه أن يفضي إلى توصيف غير صحيح لطرق فهم العولمة واختبارها. لقد كانت العولمة كيانًا/مفهومًا فعالًا على نحو خاص في توسيع هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية في أعقاب الحرب الباردة، وهي اللحظة التي كانت ربما تشهد قلقًا ومقاومة من سائر الدول لأفكارِ ومُثلِ القوة العظمى الوحيدة في العالم. ومن المهم أن نتذكر أن العولمة كانت أيضًا لحظة تطرح احتمالات ووعودًا: نهاية الدول القومية ووعد الكونية، انفتاح الحدود وفرص السفر، أشكال جديدة من الاتصال والترابط البشري، ارتفاع مستويات المعيشة على مستوى الكوكب، ظهور تقنيات مبتكرة وما يصاحب استخدامها من خبرات جديدة؛ تلك كانت التطورات المرتبطة بالعولمة التي وسعت آفاق التجربة الاجتماعية والثقافية والسياسية. لا يعني هذا أن تلك الاحتمالات قد تحققت بالكامل، دون أن يكون لها جانب مظلم، أو أنها كانت جديدة كليًّا؛ فلم تختفِ عمليات إقصاء الدول القومية وعنفها، وظلت الحدود باقية وحرية التنقل محدودة وتقتصر على أقلية صغيرة، وساعدت الأشكال الجديدة من الاتصالات والتكنولوجيا على توسيع أشكال المراقبة، واستغلال العمالة، وما إلى ذلك؛ ولكل فرد جديد يضاف لسكان الصين والهند، يضاف ساكن جديد للأحياء الفقيرة المحرومة في العالم. ومع ذلك، لا يمكن للمرء أن يقلل من شأن مساهمة رؤية العولمة القائمة على «عالم واحد» في توليد

طاقات للاقتصاد والسياسة بخلاف الوضع الراهن للرأسمالية والديمقراطية الليبرالية الذي نشهده الآن. ومع نهاية العولمة لا يأتي فقط انهيار المشروع الأيديولوجي، وإنما أيضًا انهيار الآمال في تأسيس نوع مختلف من السياسة على نطاق عالمي.

مع حدوث الأزمة المالية في عام ٢٠٠٨، انتهت العولمة. قد نجد من يهتف: فلتذهب إلى غير رجعة! ففي تلك اللحظة ذاتها، رأى الكثيرون أن الوعود الكثيرة المؤجلة للعولمة قد تحررت. وجاء انتخاب باراك أوباما في أعقاب الانهيار المالي ليحل في لحظة معاداة أمريكا التي تأججت في جميع أنحاء العالم خلال ولاية جورج دبليو بوش الثانية. ويشير انتخاب أوباما إلى آفاق سياسية جديدة، كما يوحي بأن النضال السياسي الذي أعلن عنه كاجان سوف يتخذ شكلًا مختلفًا عما كان يتوقعه، أو هكذا يبدو الأمر.

(٤) أوباما: «أواجه العالم كما هو»

التفكير في معاداة أمريكا يعيدنا إلى العولمة، ولكنها تلك العولمة التي تعمل على نطاق مختلف عن ذي قبل؛ عولمة ضعيفة في حقائقها الذاتية ونقاط القوة في قصصها. ويبدو أن معاداة أمريكا قد محيت كذلك في لحظة مع فوز باراك أوباما في الانتخابات الرئاسية. وحتى بالنسبة إلى من يشككون في مزاعم حدوث تحولات جيوسياسية مفاجئة بسبب أحداث فردية، بدا فوز أوباما بشيرًا بأمر جديد على الصعيد السياسي والاجتماعي.

لم تكن حملة أوباما مجرد حدث سياسي قومي على الإطلاق، كما أن فوزه على جون ماكين لم يكن مجرد انتصار قومي. لم تكن ثمة لحظة في التاريخ الحديث كانت فيها الشعوب من غير المواطنين الأمريكيين مهتمة لهذه الدرجة بسباقٍ انتخابيٍّ قوميٍّ ومؤثرة فيه بشدة. كان الجميع حول العالم يعرفون جيدًا أن ما حدث في الانتخابات الأمريكية سيؤثر بنحو عميق في حياتهم اليومية، بل ربما يكون هذا الأثر أكثر عمقًا من انتخاباتهم المحلية والقومية الخاصة بهم. في الواقع، لم يجتمع أكبر حشد لدعم حملة أوباما للترشح للرئاسة الأمريكية في شيكاجو أو كاليفورنيا، ولكن في ألمانيا؛ حيث احتشد ما يربو على ٢٠٠ ألف شخص حول عمود النصر في برلين للاستماع إلى أوباما في ٢٤ يوليو عام ٢٠٠٨. بدأ أوباما خطابه، الذي كان بعنوان «عالَم واحد»، بتوضيح أنه لا يتحدث بوصفه مرشحًا رئاسيًّا، ولكن باعتباره مواطنًا أمريكيًّا، ومواطنًا عالميًّا.[26]

يعود جزء من جاذبية أوباما إلى خلفيته وصعوده غير المتوقع إلى أعلى البناء السياسي في الولايات المتحدة الأمريكية. ولكن ما أثار إعجاب الجميع، وخاصة من يعيشون خارج

الولايات المتحدة الأمريكية، هو ذكاؤه واحترامه للتناول العادل والنقدي للتاريخ والفروق الثقافية على وجه الخصوص. وبطبيعة الحال، كان الإعجاب بأوباما رد فعل للكراهية المتزايدة لجورج دبليو بوش، القائد الذي سَخِرَ من المفكرين بسرعة لا يضاهيها سوى سرعة رفضه للعمل التحليلي. كان من الممكن أن ينجح تفضيل بوش لاتِّباع الحدس الداخلي واعتماده الصريح على العقيدة الدينية لتوجيه عملية صنع القرار السياسي في أمريكا، إلا أنه نادرًا ما كان يروق لمن هم خارج أمريكا ممن يستقبلون ما يقدمه من تشبيهات كرتونية وعمليات تبسيط. وفي حين أن معاداة الفكر التي يحركها الحس العام تتسم بالفاعلية الشديدة تقريبًا في أي سياق قومي، فإنها لا تعمل جيدًا في الخارج؛ لأن الحس العام يرفض بالضرورة التحليل الذي يعمل على حشد الرموز القومية استراتيجيًّا. إن التعبير الأكثر أهمية عن ذكاء أوباما في الخارج (في مقابل استراتيجية معاداة الفكر التي اتبعها بوش)، لم يكن متعلقًا بسياسة معينة أو وعدٍ انتخابيٍّ ما، ولكنه جاء من خلال تحليله لعبارة واحدة: «الحرب على الإرهاب».

لقد تساءل أوباما، وكأنه أستاذ لغة إنجليزية كفء، كيف يمكن أن توجد حرب على اسم؟! يمكن أن تكون هناك حرب على دولةٍ ما تشجع الأعمال الإرهابية (مثل أفغانستان) أو حتى على إرهابي معين (مثل أسامة بن لادن؛ في الواقع، أطلق بيل كلينتون أكثر من ٧٠ صاروخ توماهوك لاستهداف بن لادن في عام ١٩٩٨)، إلا أن الإرهاب في حد ذاته ليس عدوًّا. وخلافًا لتحليل بيل كلينتون لعبارة أخرى («لم تكن لي أي علاقة جنسية مع هذه المرأة» التي كان المراد منها التهرب والتحايل باستخدام ذكائه لحجب الحقيقة والدفاع عن نفسه إزاء الفعلة التي كانت واضحة وضوح الشمس)، استخدم أوباما تحليله للألفاظ في محاولة للعودة إلى ما كان على المحك بعد أحداث ١١ / ٩. في الواقع، إذا كان كلينتون قد استغل قدراته القانونية والبلاغية والفلسفية للمجادلة بأن علاقته بمونيكا لوينسكي لم تكن أسوأ جريمة في العالم (وأن الهوس بهذه القضية عَرَضٌ من أعراض الثقافة الأمريكية المشبعة ليس فقط بوسائل الإعلام المعتمدة على الإثارة، وإنما أيضًا بحالات النفاق الأخلاقي)، فإن المرء يتساءل إن كانت معاداة الفكر (وربما حتى معاداة أمريكا) التي انتشرت في عهد بوش كان يمكن أن تكون قوية للغاية. على أي حال، كانت قراءة أوباما الجيدة لسياسة بوش وتشيني الخاصة بـ «الحرب على الإرهاب» هي ما نال إعجاب من يراقبون السباق الرئاسي من خارج البلاد، أكثر من أي رأي من آرائه الجيوسياسية أو الخاصة بالسياسة العسكرية.

إنَّ سعي أوباما هذا إلى إعادة العناية والتدبر لعملية صنع القرار أدى إلى زيادة شعبيته بنحو كبير، لدرجة أنِ انعقدت ألسنة الكثيرين عندما أتى أوباما في إدارته بشخصيات كانت مفضلة في عهد كلينتون، مثل لورانس سامرز الذي أصبح كبير المستشارين الاقتصاديين (فضلًا عن هيلاري كلينتون التي أتى بها كوزيرة الخارجية)، واحتفظ بإحدى الشخصيات الرئيسية التي عيَّنها بوش، وهو روبرت جيتس كوزير للدفاع. وحتى الأيام العصيبة التي شهدتها السنة الرئاسية الأولى له في أعقاب الأزمة المالية (ودعم عمليات الإنقاذ المالية) لم تقوِّض شعبيته في الداخل أو الخارج على نحو كبير. واقتضى الأمر مرور أكثر من سنة، مع عودة المؤسسات الكبرى في وول ستريت لتحقيق أرباح كبيرة — تسجيل جولدمان ساكس أرباحًا قياسية وإدارة مكافآت ضخمة على الرغم من تلقيها مساعدات مالية من برنامج إغاثة الأصول المتعثرة — وقرار أوباما بدعم العمليات العسكرية في أفغانستان، لقتل خيالات الأمل المتعلقة بأوباما.

يعمل الخيال عن طريق تحويل الخسارة إلى شيء مفقود، بغية إضفاء صبغة إيجابية على شيء مهم وملهم هيكليًّا ولكن لا وجود له بأي وسيلة ملموسة (مثل الوجود الغائب للخسارة). بهذا المعنى، تمثِّل الخسارة شيئًا يستحيل امتلاكه (مثل وجود أشخاص فاحِشِي الثراء دون وجود أغلبية فقيرة داخل المجتمع الرأسمالي)، في حين يمثل الشيء المفقود الشيء، أو الشخص، الذي يمكنه حل هذا التناقض غير القابل للحل بأعجوبة. في الواقع، لقد كانت أحلام الخيال المتوقعة من أوباما هي الحلم بأن يهتم زعيم قومي بأشياء تتجاوز مصالح بلاده الخاصة. وقد تناثر هذا الخيال أشلاءً في أوسلو في ١٠ ديسمبر عام ٢٠٠٩، عندما قبل أوباما الحصول على جائزة نوبل للسلام.[27]

قبل هذا التاريخ بتسعة أيام فحسب، ألقى أوباما خطابًا في الأكاديمية العسكرية الأمريكية في وست بوينت معلنًا عن سياسته الجديدة في أفغانستان.[28] كانت دعوته لنشر أكثر من ٣٠ ألف جندي إضافي في أفغانستان (بتكلفة إضافية تزيد عن ٣٠ مليار دولار في عام ٢٠١٠ وحده)، تشير لإعادة ترتيب أمريكا لأولوياتها العسكرية. سيضمد أوباما جرح الحرب على العراق (وهو بمنزلة لطمة لسياسة بوش الفاشلة وعدم ترتيبه للأولويات)، في حين يكثف التركيز على الحرب في أفغانستان. ويجب أن يكون هذا القرار — الذي جاء بعد شهور من التفكير والمناقشات، مع موافقة كبار قادة الجيش الأمريكي عليه [الجنرالين ماكيرنان وَبترِيوس]، ومعارضة سفير الولايات المتحدة الأمريكية في أفغانستان، الجنرال المتقاعد كارل إيكنبيري، إلى جانب كلٍّ من كولن باول وَبايدن، نائب الرئيس — على رأس

الموضوعات التي سيتناولها في الخطاب الذي سيلقيه أوباما في حفل نوبل. والآن أصبح على أوباما أن يتعامل مع معضلتين؛ أولًا: كيفية احترام روح جائزة نوبل للسلام، مع التزامه بشن هجوم عسكري كبير جديد (وهو قرار محل نزاع حتى داخل إدارته الخاصة). وثانيًا: كيفية قبول هذه الجائزة التي تمثل آمال وتطلعات الكثير من المواطنين حول العالم فيما يتعلق بالولايات المتحدة الأمريكية، مع عدم المساس بمسئوليته إزاء تحقيق مصالح بلده.

بعد إعلان أوباما عن تقديره لملك السويد ولجنة نوبل، وقبل أن يشير مباشرة إلى المواطنين الأمريكيين (مدركًا كيف سيكون صدى ما سيقوله كبيرًا في أمريكا)، ذَكَرَ أفغانستان مباشرة. كان أوباما يعلم جيدًا أن المهاتما غاندي ومارتن لوثر كينج (وهما اثنان من الحائزين على جائزة نوبل للسلام كان أوباما يذكرهما كثيرًا في الخطاب) سيخالِفَانِه في قراره بتصعيد الحرب في أفغانستان. لكنه جادل ضد آراء غاندي وكينج المعارِضة لآرائه قائلًا: «ولكن بوصفي رئيس دولة أَقْسمتُ على حماية أمتي والدفاع عنها، لا أستطيع أن أتخذ قدوتي منهما وحدهما. فأنا أواجه العالم كما هو، ولا يَسَعُني أن أقف بلا حراك في مواجهة الأخطار التي تهدد الشعب الأمريكي.» لقد كانت المقولة السابقة هي أكثر ما يلفت الانتباه. يشير أوباما إلى أنه لو لم يكن رئيسًا للبلاد، لكان من الممكن أن يسترشد بنماذج غاندي وكينج. بعبارة أخرى، كان غاندي وكينج قائدَين عالميَّين (و/أو قائدَين محليَّين)، في حين أن أوباما قائد قومي، وهذان النوعان المختلفان من القيادة لا يمكن التوفيق بينهما.

كان التعبير عن عدم إمكانية التوفيق بين القيادة القومية والعالمية أكثر عمقًا فيما يتعلق بالبيئة. في الخطاب الذي ألقاه أوباما في حفل نوبل واستغرق ٣٧ دقيقة، ذكر أوباما تغيُّر المناخ مرة واحدة فقط، وحتى في هذه المرة الوحيدة، ارتبطت مخاوفه البيئية ارتباطًا وثيقًا بالمصالح العسكرية. قال أوباما: «لهذا السبب، فإن العلماء والنشطاء في مجال البيئة ليسوا وحدهم مَن يدْعون إلى اتخاذ إجراءات سريعة وقوية، بل إن القادة العسكريين في بلادي وغيرها من البلاد يفهمون أن أمننا المشترك في وضع حرج.» إن الخلط بين الاهتمامات البيئية والعسكرية يكتسب أهمية خاصة بالنظر إلى أنه حين كان أوباما يتحدث في أوسلو، كانت أهم قمة معنية بتغير المناخ (مؤتمر الأمم المتحدة المعني بتغير المناخ، أو مؤتمر الأطراف الخامس عشر، بحضور ١٩٢ دولة، والمنظمات غير الحكومية والمجتمع المدني، ومحاضرون من كل أنحاء العالم اجتمعوا بهدف التوصل إلى معاهدة أو

اتفاق جديد، أو حتى توافق في الآراء بشأن كيفية إدارة ظاهرة الاحترار العالمي) قد بدأت في كوبنهاجن، وكان من المقرر أن يلقي أوباما كلمة مهمة خلالها.

كانت محادثات كوبنهاجن آخذة في التراجع بسرعة منذ البداية. كانت التعبيرات الرنانة — مثل الأهداف والإنفاذ والشفافية — تتردد، فيما كان مختلف اللاعبين غير قادرين على الاتفاق على أهداف محددة وكيفية إمكانية تحقيق عنصرَي الإنفاذ والشفافية على نطاق عالمي؛ على سبيل المثال، ترددت الولايات المتحدة بشأن الأهداف، فأعلنت واشنطن أنها ستخفض انبعاثات غازات الدفيئة ١٧ في المائة عن مستوياتها في عام ٢٠٠٥ بحلول عام ٢٠٢٠؛ لكن هذا كان يعد تخفيضًا بنسبة ٤ في المائة فقط وفقًا لمؤشر عام ١٩٩٠ الذي تستخدمه معظم الدول الأخرى. وأشارت الصين لبعض المخاوف المتعلقة بالسيادة؛ إذ ترددت بشأن الإنفاذ، في حين تساءلت الهند والبرازيل حول سبب التزامهما بنفس الأهداف التي تلتزم بها الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي، رغم التاريخ غير المتكافئ للتنمية الصناعية العالمية؛ وجادلت مجموعة الـ ٧٧ (وهي منظمة تتألف من ١٣٠ دولة نامية) بأن خفض انبعاثات ثاني أكسيد الكربون لا يجب أن يتم على حساب تنميتها؛ وطالب الاتحاد الأفريقي (وهي كتلة تتكون من ٥٠ عضوًا أغلبها من الدول الفقيرة) بتخفيضات أكثر وضوحًا في الانبعاثات، وكذا فَعَلَ تحالف الدول الجزرية الصغيرة (وهي مجموعة من ٣٩ عضوًا، يمثلها رئيس وزراء جزر المالديف صاحب الشخصية الجذابة محمد نشيد)، التي من دونها ستصبح تلك الدول غير صالحة للسكنى بسبب ارتفاع مستوى سطح البحر. ثم جاءت منظمة البلدان المصدرة للبترول (أوبك، التي طلبت بدفع تعويض مالي عن أي انخفاض في أسعار النفط ناتج عن مفاوضات المناخ)، وائتلافات دول الغابات المطيرة، وجمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق، والدول الهادئة على نحو مثير للشك التي توافق دائمًا على أي قرار، مثل كندا واليابان.

ومع وصول أوباما في اليوم قبل الأخير، كان كل اللاعبين الأضعف قد أصبحوا على الهامش. وكان الصراع قد أصبح بين الولايات المتحدة الأمريكية والصين، إلى جانب البرازيل والهند وجنوب أفريقيا. في الواقع، كان ما أصبح يعرف باسم «اتفاق كوبنهاجن» قد أُبرم بين هذه الدول الخمس (وكان التزامًا باتخاذ تغير المناخ على محمل الجد أكثر منه تحديدًا لإجراءات ملموسة يجب تفعيلها)، ودعمته بامتعاض سائر الدول الأعضاء الأخرى التي كانت تخشى عدم التمكن من الحصول على التمويل اللازم من الدول الغنية للمساعدة على التكيف مع تغير المناخ. وفي وسائل الإعلام الأمريكية المؤيدة للنظام الأمريكي، أُظهر أوباما

على أنه كان حازمًا مع الصين، وأنه الشخصية الرئيسية التي أنقذت المحادثات. ولكن بالنسبة إلى الغالبية العظمى من الدول المشاركة وقادة مختلف المنظمات غير الحكومية والنشطاء المراقبين للمحادثات، جاءت تحركات أوباما مخيبة للآمال، وكان الحدث بأسره يقترب من كونه خدعة.

أخذت الآمال والرغبات الدولية التي سبق أن ارتبطت بأوباما تذوي سريعًا، ولكن بدا أن ثمة شيئًا مختلفًا؛ فبدلًا من إلقاء اللوم على لعبة السلطة في إنتاج زعيم عديم الرحمة، وقصير النظر — كما كان الحال مع جورج دبليو بوش، على سبيل المثال — بدأ الكثيرون يُلقون باللائمة على النظام الأكبر لصنع القرار. ووُضعت العملية نفسها موضع المساءلة؛ عملية إشراك القادة القوميين في القضايا فوق القومية. وقال المدير التنفيذي لمنظمة السلام الأخضر: «إن مدينة كوبنهاجن الليلة هي ساحة جريمة ... لقد أصبح جليًّا الآن أن التغلب على ظاهرة الاحترار العالمي يتطلب نموذجًا سياسيًّا يختلف اختلافًا جذريًّا عن النموذج الذي ظهر هنا في كوبنهاجن.» وحتى المنتمون لتيار الوسط بدءوا بوصف القمة بأنها فشلت «فشلًا ذريعًا»، واصفين الشكل الدبلوماسي كله للمؤتمر بالمهزلة، ومعتبرين التنمرَ الذي مارسه أوباما العاملَ الذي يتحمل المسئولية الكبرى في إجبار باقي الدول الأعضاء على التوقيع على «قرار بالإعدام».

أما ما أصبح واضحًا في كوبنهاجن، وما كان جليًّا بالفعل في خطاب أوباما في حفل نوبل في أوسلو، هو أنه لا يمكن أن تكون ثمة جدية بالالتزام بإدارة تغير المناخ فيما تواصل الولايات المتحدة الأمريكية شن حربيها على العراق وأفغانستان. إن تكلفة حربَي الولايات المتحدة الأمريكية التي تزيد عن ٣ تريليونات دولار وفق الحسابات المتحفظة التي أجراها جوزيف ستيجليتز وليندا بيلمز لا يمكن التوفيق بينها وبين ما هو مطلوب على صعيد المناخ.[29] ومن بين جميع تلميحات أوباما المتعمقة التي تتناول النظرية السياسية بغية إضفاء الشرعية على شن «حرب عادلة»، كانت الحجة الاقتصادية هي أقلها نجاحًا. في شوارع كوبنهاجن وفي جميع أنحاء العالم، كان الحديث عن التناقض الأساسي قد بدأ أخيرًا؛ فمن أجل تمويل الحروب، على الولايات المتحدة الأمريكية أن تحافظ على إنتاج الثروة (مدفوعة في ذلك بالتوسع والاستهلاك السلعي اللامحدودَين، وخاصة فيما يتعلق بالأسلحة) بمعدلٍ مِن شأنه أن يدمر الأنواع الموجودة على كوكب الأرض، وربما الكوكب نفسه. وقد وجد أوباما أنه وُضع في موقف صعب؛ ولهذا لجأ إلى الوهم الأخير في خطابه في حفل نوبل قائلًا، وهو يبدو أقرب إلى بوش وبن لادن منه إلى كينج أو غاندي: «لا شك أن الشر موجود في العالم.» تتعدد أشكال الشر ويبقى الشر واحدًا.

(٥) العولمة وما بعدها: روايتان للعالمية

ما نسعى إليه في هذا الكتاب هو أن نوضح معنًى ما اصطلحنا على تسميته «الحس العام». والحس العام الذي سنتناوله وندرسه هنا ما تم تطويره والإعلان عنه بقوة من نهاية الحرب الباردة وحتى نهاية العولمة؛ من حماسة فوكوياما إلى إحباطات أوباما. ونحن نهتم بالحس العام للعولمة بقدرِ ما نهتم بالشكل الذي يتخذه فيما بعد العولمة. وبطبيعة الحال، لم تُنتَج البديهيات، والاستعارات، والأرقام التي تشكل الحس العام من العدم على مدى السنوات العشرين الماضية؛ إذ اعتَمَدَت على مجموعة كاملة من المعتقدات والممارسات والعلاقات التي تم تطويرها على مدى القرن الماضي، بل ولفترة أطول؛ على سبيل المثال، إن الاعتقاد السائد على نطاق واسع بأن التاريخ يتكون من خلال تقدم قابل للقياس له جذور تمتد إلى عصر التنوير؛ فالاعتقاد بأن هذا التقدم يظهر بأوضح صُوَره من خلال نوع معين من التطور التكنولوجي (على سبيل المثال، تصغير تقنيات الكمبيوتر) والآثار الاجتماعية التي يرتبط بها (على سبيل المثال، التقريب بين الناس من خلال تقليص المساحة) له أصل أكثر حداثة. ونود أن نشير إلى أن العالم اليوم يمتلك من الحس العام العالمي المشترك ما يشكِّل الإطار الذي نعمل فيه؛ وينتج هذا الإطار حدًّا مهمًّا يقيد قدرتنا على معالجة المشاكل جديدها وقديمها؛ بدايةً من تأثيرنا على البيئة، إلى آثار نظمنا الاقتصادية ونتائجها. وقد لا يبدو هذا الحد جديدًا في حد ذاته، إلا أن خطورة نتائجه تزداد يومًا بعد يوم.

لماذا لا نستخدم مصطلحًا مختلفًا؟ لماذا نقول الحس العام؟ لماذا لا نستخدم لفظة أيديولوجية، أو هيمنة؟ يرتبط الحس العام، بالمعني الذي نستخدمه، بالتأكيد بهذه المفردات. وعلى الرغم من أن مفهوم الهيمنة لم يَعُد يروق للنقاد كما كان في وقت سابق، حيث تحولوا إلى استخدام مفاهيم أخرى، تبدو عصرية أكثر في سوق الأفكار، يبقى هذا المفهوم مهمًّا لاستيعاب كيفية عمل المجتمعات المعاصرة؛ فالهيمنة اسم لطريقة الحصول على الموافقة وإدارتها وإعادة إنتاجها. والموافقة المذكورة هنا هي الموافقة على أن تصبح محكومًا، وأن تشارك في نظام ظالم، وأن تندمج في نظام حياة يبدو بالنسبة إلى الغالبية العظمى أقل بكثير مما يمكن أن يكون عليه، وهي نقطة تجريبية وليست محض تخيُّلٍ يوتوبيٍّ. تُحدِّد الهيمنة طريقة تشكيل كل جانب تقريبًا من جوانب الحياة الاجتماعية بغية إضفاء الشرعية على نظام اجتماعي يفضل بعض المصالح الاجتماعية على غيرها. وتشمل مكونات الهيمنة كل شيء، من «المعطيات» الاجتماعية والسياسية التي يتعلمها المرء خلال

التعليم إلى قواعد السلوك اليومية؛ من صفات وطبائع العلاقات الاجتماعية وحتى هيكل إضفاء الشرعية الخاص بالنظم السياسية؛ ومن العناصر المكونة للأسرة وحتى السرد المتوقع لمسار حياة الفرد. إن الهيمنة ليست كذبة النظام، ليست خدعة صنعها أولئك الذين يسمح لهم ثراؤهم بتجاوز الحدود المعرفية للأعراف الاجتماعية على نحو بارع؛ ومن ثم يتحكمون بسير الأمور من الخارج (وهي الطريقة الأساسية لفهم الأيديولوجية)، بل هي حقيقة النظام، ومن ناحية أكثر جوهرية، إنها تمثل «ماهية» النظام.

يرتبط الحس العام بالهيمنة؛ فهو يشير إلى نفس الافتراضات الاجتماعية العميقة التي تضع هيكل الامتيازات وتنتج المساوئ. وعندما نستحضر الهيمنة، نرى أنها تؤدي عملًا مختلفًا. إن سهولة فهم الحس العام؛ «المحتوى» الاجتماعي المشوش الذي يبدو وكأنه «شكل» أو «نظام»، يقع في صميم عمليات الهيمنة؛ إنه يتمثل حين تتفوق السلطة على براءة التقليد أو اليقين العلمي الواضح الذي يكمن في البيولوجيا الاجتماعية؛ «لقد كانت الأمور دائمًا على هذا المنوال.» وإذ ننتقل من أعماق الهيمنة إلى سطحها، يظهر الحس العام كشخصية عندما تكون عمليات الهيمنة في موضع شك، في أضعف صُوَرها، عندما تكون قلقة بشأن استخدام قدرتها الرائعة على إعادة إنتاج الحاضر في المستقبل، مع فارق ضئيل ضروري للتغلب على الجمود القاتل للركود الاجتماعي. إن الحس العام الذي ندرسه أمر معروف؛ فهو مجموعة من الافتراضات والحقائق والمنطق المفترض. وفي ظل هذه الظروف التي نعمل على استكشافها، يتخلى الحس العام عن أصوله بوصفه ابتكارًا اجتماعيًّا لأنه يحتاج إلى الإصرار عليه، وتكراره، والإعلان عنه (بدرجات متفاوتة من الثقة والالتزام) باعتباره حلًّا للأزمات الوشيكة. ولا يستطيع أن يفعل ما يحلو له: أن يستلقي في سُبات عميق، مثل دب في كهفه الشتوي، ويكون على قدر كبير من الخطورة إذا ما أقدم شخص على إزعاجه.

وكما أشرنا من قبل، في الفترة التي أعقبت نهاية الحرب الباردة (تلك الفترة الحاملة من الحس العام المتحجر!) وحتى نهاية العولمة، ثمة سياقان يضطر الحس العام فيهما إلى أن «يحاجج عن شرعيته عن طريق شرعية حججه». ينشأ السياق الأول من خلال توسع هيمنةٍ ما (هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية) من أمة إلى كوكب بأكمله، وهي عملية مليئة بالأخطار؛ نظرًا للسياقات والتواريخ والسلطات الزمنية المختلفة على نحو كبير التي سيتعين عليها مواجهتها بالضرورة. ويتطلب هذا التوسع أيضًا وصولها إلى سطح سياقها الأصلي، بوصفها أكثر من مجرد وضع وجود متميز (هذا الفرق الذي ما زلنا

نَصِفه بسذاجة بمصطلح «ثقافي»)، ولكن بوصفها شكلًا من أشكال الموافقة الاجتماعية والسياسية التي تحاول إعادة إنتاجها في كل مكان. والتحدي الذي يَمثل أمام الحس العام في هذا السياق الأول هو تكوين مفردات يمكن أن نضعها موضع التنفيذ في كل مكان من حيث المبدأ. وقدمت روح العالم الواحد التي أضفتها العولمة، وهو نظام كان يعتبر غير مرتبط بزمان (متى بدأ، لا يمكن أن ينتهي أبدًا) وحتميًّا (هنا، وهناك، وفي كل مكان) الحل الأمثل. بالطبع، هناك شعور ضروري بحتمية وجود أي شكل من أشكال الهيمنة. في حالة العولمة، لم تكن هذه الحتمية تغمر الحس العام عن طريق التقليد، ولكن من خلال فهم التاريخ بأقوى معنًى ممكن؛ هذا التاريخ الشامل الذي يرى أن البشرية جمعاء تتحرك نحو غاية مشتركة. كان حدس فوكوياما بأن العولمة ستكتب نهاية التاريخ صائبًا تمامًا، ولكن فقط بقدرِ ما كان من خلال ميل قوي لهذه الرؤية للتاريخ، يمكن للحس العام العالمي أن يُنتج مصحوبًا بنسبة ضئيلة نسبيًّا من الصراع معه أو مقاومته.

أما السياق الثاني الذي يكشف الحس العام، فهو الخوف من الحدود. يفشل الحس العام على الدوام في العمل. وعندما يصبح من الممكن أن نتحدث عن «فشل النظام» أو نؤكد على أن كل شيء يجب أن يتغير لأن «النظام لم يَعُد فعالًا»، فهذه طريقة أخرى لأنْ نقول إننا لا نؤمن بالحس العام. ولكن هذا لا يفضي إلى نهاية الحس العام؛ بل إلى انتعاشه: ذلك لأن الحس العام هو تحديدًا ما نلجأ إليه بعد ذلك ونحتفل به بغية إدانة نفس الحس العام الذي تَسبَّب في فشل النظام في المقام الأول. ومجددًا، يتم حشد الحس العام للدفاع عن مدى ملاءمته للجميع، فيما يتراجع إلى مقرِّ راحته في الفضاء القومي الذي يُعد أكثر مكان يَشعر فيه بالألفة. وفي كل الأحوال، سواء في العولمة أو فيما يعقبها، يُفترض بالحس العام أن يتحدث نيابة عن الناس، أن يوضح أن ما يمثله هو الأكثر معقولية بالنسبة إلى الناس. وفي هذه اللحظة، تتأكد شرعية الحس العام بأكبر قدر ممكن من الصخب بحيث يمكن التساؤل بشأن ادعاءاته وعملياته، والغوص عميقًا في العالم الذي نتج عنه، ويقترح الاستمرار فيه.

ويتمثل فحصنا للحس العام اليوم في جانبين؛ في البداية سنبحث بعمق في الحجج التي تتناول شكل الحاضر وطبيعته في عدد من الأعمال المكتوبة، سواء أثناء العولمة وفيما بعدها؛ أي عندما تأكَّد للجميع أن العولمة هي القوة المطلقة، ثم عندما تأكدت أفكارها الإرشادية بقوة أكبر لمعالجة أزمة نهايتها. إننا نبحث ما نعتبره جوانب ذات أهمية خاصة؛ حيث ينشأ الحس العام الذي نقصده ويعاد إنشاؤه، وينتج ويعاد إنتاجه؛ فتركيزنا

سيكون، أولًا، على ما أَطلق عليه ريتشارد فلوريدا «قيادة الفكر للمجتمع الحديث: كُتاب الأعمال الأدبية غير القصصية، والمحررون، والشخصيات الثقافية، والباحثون المفكرون، والمحللون، وغيرهم من صناع الرأي.»[30] وليس الهدف من النظر في طريقة ظهور الحس العام في أعمال بعض «قادة الفكر» العالمي اليوم المبالغة في إظهار تأثير هؤلاء المؤلفين بعينهم. إن اختيار كُتاب أصحاب وجهات نظر متميزة، ممن لهم تأثير في ميادين مختلفة من المعرفة (العلاقات الدولية، وعلم الاجتماع، وعلم الاقتصاد، والنشاط الاجتماعي، والترفيه)، يهدف إلى الوصول إلى مختلف صيغ الحس العام بغية إنشاء خريطة تحتوي على الرؤى العالمية المتعلقة به، وإلى فهم حدوده. ومن أجل فهم عمل الهيمنة، من المهم أن نتذكر أنه على الرغم من عملها لصالح النخب، فإنها ليست ناتجة عنهم بنحو مباشر ومتعمد، بل هي منتِجة لهم أيضًا. وتلك الأعمال التي سنعرض لها مهمة ليس لأنها تحتوي على معتقدات بعض المفكرين الأكثر شعبية اليوم ومن يتحدثون نيابةً عنهم، ولكن لأن مؤلفي هذه الأعمال يفترضون أنهم يتكلمون فيها نيابةً عن الناس (أحيانًا أمة ما، وفي أحيان أخرى العالم). ويحدث هذا أولًا من خلال شرح العناصر المكونة للنظم الاجتماعية والسياسية القائمة والدوافع التي تحركها، وثانيًا من خلال تقديم التوجيهات والنصائح حول ما سيلي ذلك. ويسعى كل مؤلِّف ممن سنراهم إلى تفسير النقلة النوعية الاجتماعية والتاريخية التي تتطلب منا وضعًا وجوديًّا مختلفًا، وتظهر الحدود التي يفرضها الحس العام في طريقة تميز تلك النقلة، وشكل تقييماتها وحججها، وطبيعة الفارق الذي تتحدث عنه.

في الفصل الثاني، سندرس هيكل الحس العام للعولمة من خلال دراسة الأعمال التي كتبها ريتشارد فلوريدا، وَتوماس فريدمان، وَبول كروجمان، وَناعومي كلاين، بالإضافة إلى النظر في تقديم العولمة في فيلم، من خلال تقييم فيلم واحد، وهو «مايكل كلايتون»، من بطولة الممثل جورج كلوني. وتشمل الأعمال التي سنقيمها بعض الحجج الأساسية المتعلقة بكيف يجب علينا أن نفهم النظام الجيوسياسي الجديد؛ العولمة (فريدمان)، وما بعدها؛ وأوصاف الطابع الجديد للعمل والمدن (فلوريدا)؛ وكذلك اقتصاديات الحقبة العالمية (فلوريدا، وَكروجمان، وَكلاين)؛ والتقييمات النقدية للسياسة والثقافة في ظل العولمة (كلوني، وَكلاين)؛ وإعادة سرد حادة لقصة العولمة حتى نراها بعيون جديدة (كلاين). ولا نهدف من خلال تناول هذه الأعمال إلى استغلالها لإلقاء اللوم على مؤلفيها لسير الأمور على نحو سيئ، ولا لتحديد المخطئ والمصيب من بينهم، بحيث ندعو لتبنِّي

وجهات نظر ورؤى المصيبين منهم أو نبذ تلك الخاصة بالمخطئين منهم. أكرر: إن الهدف هو وضع خريطةٍ لما اصطلح على تسميته بالحس العام وعملياته، وخاصة فيما يتعلق بكيفية فهمه للمستقبل. ثمة شيء مفقود في عمل كل مؤلف من هؤلاء المؤلفين؛ أيضًا ثمة شيء مفقود، حتى إذا ما جمعنا هذه الأعمال معًا على أمل أن يتم سد الفجوات ومعالجة الأخطاء الموجودة لدى كلٍّ منهم من خلال ذكاء ورؤى الآخرين.

فلوريدا، وَفريدمان، وَكروجمان، وَكلاين: قد نبدو كما لو أننا نولي اهتمامًا خاصًّا للصحافة باعتبارها شكلًا لتقديم المعرفة الخاصة بالعالم (وإذا أضفنا كلوني إلى هذا المزيج، فيمكن القول بأن وسائل الإعلام بوجه عام هي ما يهمنا). هناك أسباب تدفعنا لذلك. ليس المقصود من هذا الكتاب في المقام الأول أن يبحث في حدود الصحافة مقارنةً بالطرق الأخرى التي نروي العالم من خلالها لأنفسنا. ومع ذلك، تلعب الصحافة دورًا لا يمكن إنكاره في تشكيل إحساسنا بالأحداث المهمة للناس، بالإضافة إلى كيف يفترض بنا أن نفهم المغزى الأكبر من هذه الأحداث. في الواقع، نجد الوظيفة الأخيرة للصحافة متضمنة بالفعل عند إجراء التحقيقات الصحفية. إن الأحداث التي تسترعي انتباه الصحفيين لا تشكل — كما هو ما زال مفترضًا في العادة — وقائعَ موجودةً بالفعل ويتم إعداد تقارير عنها، بل بالأحرى ينتقي الصحفيون هذه الأحداث من عمليات المد والجزر في الحياة الاجتماعية عن طريق منطق متضمن في الصحافة بشأن أهمية هذا الحدث أو ذاك؛ ومن ثم، نرى أن للصحافة تأثيرًا على المستوى الوجودي؛ حيث تقدم بعض العناصر المكونة للواقع، وتؤكد أن بعض عناصر أو جوانب الواقع الأخرى غير موجودة من خلال عدم تناولها. وفي نهاية المطاف، عادة يكون ما نراه معروضًا في الصحف أو في نشرات الأخبار التليفزيونية هو العالم في شكل «عرض منوع … سلسلة من الأحداث التي بلا بداية أو نهاية حقيقية، جُمِعت معًا فقط لأنها وقعت في نفس اليوم.»[31] ولكن هذا لا يعني أنه لا يوجد منطق أكبر يعمل على وضع جميع هذه الأحداث في مكانها المناسب. وحتى في صفحات الوفيات، يمكننا أن نجد دليلًا على الحس العام السائد. اكتشف فرانكو موريتي في تحليله لصفحة الوفيات في صحيفة «ذا نيويورك تايمز» ما يشكل قصة حياة الفرد في عالمنا اليوم. إنه نوع من السرد يتخذ شكلًا محددًا: مسيرة بطيئة، متقدمة بخطًى ثابتة نحو الأمام، مع تقديم حياة الأفراد لمساهمات بسيطة في اتجاه تاريخي محدد بالفعل؛ من الفقر إلى الثروة، احتفال بالنجاح في الحياة (لكونه في الصحيفة الشهيرة). ويُعد هذا مثالًا على المنطق الأكبر الذي يحكم مسيرة العالم: «لا يوجد تغير في الاتجاه، بل هي

خطوات منتظمة ضخمة على طول طريق مطروق بكثرة … مسيرة كمية ومنظمة: من دون التباس، وبالتأكيد من دون كوارث.»[32]

إن الأعمال التي سندرسها هنا لم يكتبها مراسلون، بل كتبها معلقون كثيرًا ما يقدمون رؤاهم على صفحات الرأي. وعلى الرغم من أن صفحات الرأي بدأت في شكل مساحة للرأي في وسط لا يحتوي على شيء سوى الحقائق دون غيرها (كان مجرد الاعتراف بوجود وجهة نظر أو تحيز في جزء من الصحيفة يعمل على جعل سائر الموضوعات محايدة من خلال منطق الاختلاف)، فقد خدمت غرضًا مختلفًا. وبما أن الأخبار تركز على الأحداث «العاجلة» وتحاول أن تجذب اهتمام الجمهور من خلال التركيز على الأخبار والمواقف الجديدة، فيمكن للصحافة أن تستفيد من شكل من أشكال فقدان الذاكرة الثقافية. تقع الأحداث وتبدو بلا سوابق أو تبعات أو علاقة مع التواريخ والهياكل الأكبر والأكثر استمرارًا. تجري الأحداث، ويبدو أنها تحدث من العدم؛ فتعمل الصحافة في وضع الأزمة الدائمة، مع تحويل اهتمامها من قضية إلى أخرى. ولا يوجد ما هو مثير أكثر من مشاهدة لقطات قديمة من نشرات أخبار تليفزيونية، لقطات تعج بتنبؤات «الخبراء» وتوقعاتهم التي يطرحونها دون خوف فيما يتعلق بالعواقب الوخيمة التي قد تتكشف عنها الأخبار العاجلة التي لا نستطيع أن نتذكرها الآن، أو لا يمكن أن نتخيل أنها كانت على قدر كبير من الأهمية في وقت سابق.

تحاول صفحات الرأي — وإن كان هذا يتم على نحو منقوص — أن تقدم وجهات نظر تربط الأحداث بغيرها من الأحداث، وكذلك فيما يتعلق بالروايات الثقافية الأوسع التي يمكن استدعاؤها باختصار لتقدم المبادئ والقوى التنظيمية التي تقف خلف هذه الأحداث، وكذلك التي تشير إلى أهميتها الكبرى. إلا أن هذا العرض لتأثيرات النظام لا يزال مفقودًا في المساحات القصيرة والطبيعة العابرة التي تتصف بها الأخبار اليومية، وهذا ما جعلنا نتحول للأعمال الكبيرة التي سنفحصها ها هنا، وهي أعمال تعرب صراحة عن رغبتها في رسم الصورة الكاملة لكيفية سير الأمور في العالم، وكيف «ينبغي» أن تسير. وهذا ما يجعل هذه الأعمال مثالية للتعرف على الروح السائدة والجانب المعرفي للعولمة. ولأن هذه الأعمال تعليمية كذلك — أي تهدف إلى ملء الثغرات في الفهم، وتقديم الدروس حول ما على الأفراد والأمم أن يؤمنوا به، وكيف يجب أن يتصرفوا — فسيتكشف لنا الحس العام فيما يتعلق بأعمق عناصر واقعنا: جوانبه المعرفية، والوجودية، والأخلاقية، والسياسية، ورؤيته للحاضر والمستقبل. سيكون تحليلنا مفتقرًا إلى شيء مهم إذا لم يشمل

أيضًا فحصًا لطريقة لعب السينما الشعبية دورًا في هذا النوع من التحليل والتعليم، ولهذا السبب سنتطرق في نهاية الفصل الثاني إلى فيلم عن الحاضر يجسد حدود وأوهام الحس العام الذي نعيش في إطاره.

نحن نزعم أن إنتاج الحس العام الذي نجده في الأعمال التي سندرسها في الفصل الثاني يشكل عنصرًا أساسيًّا في المشروع السياسي للعولمة، وهو، في الواقع، أساس الروايات الناشئة لما سيأتي بعده. لقد كانت العولمة هي العملية التي أعادت إنتاج نفس الحس العام «في كل مكان»؛ نفس المعايير، ونفس الافتراضات العامة، ونفس المعتقدات فيما يتعلق بطابع الجيوسياسة. ويمكننا أن نرى هذا بكل وضوح في الاعتقاد العالمي بضرورة وجود نظم اقتصادية رأسمالية؛ فبغض النظر عن بعض الاستثناءات القليلة، أصبحنا جميعًا الآن رأسماليين. إلا أن هذا يتجاوز حدود الاقتصاد ليصل إلى جميع الأشكال التي تعبر عن الهيمنة.

لقد انتهت العولمة، ولكنها لا تزال حاضرة، حتى لو كان من الممكن الآن (على سبيل المثال) أن نركز على دور القوة الأمريكية في العالم، أو نَذْكر دون خوفٍ الرأسماليةَ بوصفها نظامًا (أي إن هذا الخيار متاح) بدلًا من كونها قدرًا. وهذا على الأقل هو زعمنا. لاستعراض هذا الادعاء وتوضيح مدى عمق مغزاه، شعرنا أنه من المهم أن نذهب لأبعد من تحليل تعبيرات أعراض الحس العام مثل تلك الموجودة في هذه الأعمال. من خلال اختيارنا للكُتاب الذين يمكن أن نرى أنهم ينتمون إلى الوسط أو يسار الوسط في الطيف السياسي، كان هدفنا هو تقديم تناول أقل حزبية وأكثر تعقيدًا للحس العام، مقارنة بما كان سيكون عليه الحال إذا قصرنا اهتمامنا على كُتاب محافظين يكتبون لصالح سياسات القوة العظمى ويقفون ضد أي تغيير جوهري في العالم. إن الكُتاب الذين اخترناهم لنركز عليهم يرون أن المستقبل مليء بالمشاكل وفي أمسِّ الحاجة إلى التغيير؛ إنهم لا يتمسكون بالأمور على ما هي عليه، ولكن يرون أنفسهم تقدميين يقدمون الأفكار التي سوف تمكننا من مواجهة التحديات التي نواجهها بنحو جماعي بطريقة من شأنها أن تنتج مستقبلًا أفضل. وعلى الرغم من أن هذا يقدم عرضًا أكثر إثارة وإقناعًا يمكن من خلاله فحص الحس العام الخاص بالحاضر العالمي وما بعده، فإنه لا يكفي لإكمال الصورة الكبيرة التي نريد أن نرسمها.

ينظر الفصل الثالث من هذا الكتاب فيما وراء المواقف النظرية التي سنعرضها في الفصل الأول والرؤى النصية التي سندرسها في الفصل الثاني. ويتساءل: هل ثمة حس

عام مشترك على الصعيد العالمي للحاضر والمستقبل؟ إذا كان الأمر كذلك، فما هي مزاعمه وافتراضاته؟ ما هي آثاره السياسية والثقافية؟ للإجابة عن هذين السؤالين، أجرينا سلسلة من المقابلات مع طلاب الجامعات على مدى ثلاث سنوات (٢٠٠٦–٢٠٠٩). وأجرينا هذه المقابلات في مواقع مختلفة حول العالم في محاولة لفهم أوجه التشابه والاختلاف في السياقات المحلية والقومية المتنوعة. وباستخدام نفس مجموعة الأسئلة في كل حالة، طلبنا من الطلاب (الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ و٣٠ عامًا) المسجلين في مجموعة من البرامج الجامعية والخاصة بالدراسات العليا أن يخبرونا عن المشاكل الاجتماعية والسياسية التي تواجهها بلادهم والعالم، ودور التعليم في العالم، وإحساسهم بمعنى السياسة والرأسمالية والديمقراطية، ورؤيتهم للولايات المتحدة باعتبارها اللاعب الأساسي على الساحة العالمية، والدور الذي تلعبه الثقافة الشعبية العالمية وثقافتهم الشخصية، وإحساسهم بما يخفيه المستقبل من وعود أو تهديدات. بالنسبة إلى الطلاب الذين تحدثنا إليهم، كانت الحرب الباردة، في أحسن الأحوال، ذكرى باهتة. وكان هؤلاء الطلاب بالفعل نتاج حقبة العولمة وحسها العام؛ الجيل العالمي الأول، الذين شاهدوا العالم ليس فقط من وجهة نظر دولهم، ولكن أيضًا من خلال شعورهم بأن الثقافة والسياسة تعملان على مستوًى عالمي، مع وجود آثار مهمة لهذا على طريقة حياتهم وسلوكهم محليًّا وعالميًّا.

وقد أُجريت المقابلات في العديد من الدول التي لا تُضَمَّن عادةً في الدراسات الواسعة النطاق التي تتناول معاداة أمريكا والعولمة، وبالتأكيد لم تكن في الغالب تُجمع معًا في دراسة واحدة، وذلك في محاولة لمعرفة أنواع التأطير الاجتماعي التي نهتم بفهمها على نحوٍ أفضل قدر الإمكان. أجرينا حوارات مع طلاب في الديمقراطيات الرأسمالية الجديدة في أوروبا الوسطى (كرواتيا والمجر)، وفي القوى الأوروبية القديمة (ألمانيا وروسيا)، وفي الدول التي لها علاقات ودية أو مفعمة بالتوتر مع الولايات المتحدة الأمريكية، كل دولة بطريقتها الخاصة المعقدة (تايوان وكولومبيا). في نهاية المطاف، عقدنا لقاءات مع إجمالي ٦٠ طالبًا، في مقابلات استغرقت تقريبًا ساعة واحدة لكلٍّ منها. لم يكن هدفنا هو مجرد التأكد من عمليات الحس العام العالمي من خلال البحث عن أي أثر له في وجهات نظر هؤلاء الطلاب ومعتقداتهم. كما أننا لم نكن نبحث عن بعض التناقضات البسيطة في المواقف والأيديولوجيات الواردة في الأعمال التي جرى فحصها في الفصل الثاني. عوضًا عن ذلك، أردنا أن نفهم النقاط التي تتلاقى وتتباعد فيها أفكار هذا الجيل العالمي والمفكرين الواردين في الفصل الثاني، لمعرفة الاهتمامات والتطلعات الحاضرة والغائبة في

رؤية كلٍّ من الفئتين. ولم نأخذ آراء الطلاب كتلة واحدة ونقارنها بأفكارِ مَن كتبوا عن العولمة وأخرجوها إلى حيز الوجود. وكما يوضح الفصل الثالث، كنا نحرص على الاهتمام بالاختلافات الوطنية والتاريخية.

ومع ذلك، اصطدمنا بقوةٍ بمدى تشابُه وجهات نظر الطلاب تقريبًا في كل موضوع تناولناه معهم. دون أن نتوقع الكثير، فوجئنا بفهم جميع الطلاب تقريبًا لطبيعة السلطة العالمية، بعمق وإدراك للفروق الدقيقة. ولكن هذا العمق لم يقدم أي قدر من القدرة على التحرك لتغيير طبيعة النظام الذي اعتبروه مضطربًا وظالمًا وغير متوازن. ولعل أكبر فجوة بين الحس العام الذي يتقاسمه الطلاب وذلك الذي عبَّر عنه الكتَّاب في الفصل الثاني هي الشعور بالقدرة على التحرك في العالم. كان المقصود من كتابات «قادة الفكر» إحداث التغيير، حتى لو كانوا يرون أن الحاضر جيد على وضعه الحالي بنحو أو بآخر؛ أما الطلاب، على الجانب الآخر، فيرون عالمًا مضطربًا في حاجة إلى تغيير جذري، ولكن حجم ونطاق ما يمكن أن يحتاج إليه الأمر لوضع الأمور في نصابها يعني أن كل ما يتوقعونه هو استمرار الوضع الراهن؛ ففي نهاية المطاف، حتى لو كانت العولمة (باعتبارها أيديولوجية) تبدو مترنحة، فالعولمة (باعتبارها اسمًا لفترة زمنية) لا نهاية لها. وإذا كانت إلى ما لا نهاية، فلماذا نتخيل أن المستقبل سيكون مختلفًا بأي نحو عن الحاضر؟

سنترك أهمية هذه الفجوة التفسيرية بين المفكرين والطلاب إلى موضع لاحق من الكتاب. هذا الكتاب يلفت الانتباه إلى ما تقدِّمه لنا الروايات الحالية للعولمة وما بعدها، وما فشلت في تقديمه. وتم تنظيم تحليلنا حول الحدود والثغرات ونقاط الضعف الموجودة في تلك الروايات، وكذا يشير الكتَّاب الذين درسنا أعمالهم والطلاب الذين أجرينا مقابلات معهم إلى هذه الحدود والثغرات، وحاجتنا إلى تخيلِ مستقبلٍ جديدٍ والتخلي عن العادات القديمة في التفكير والتحرك. ومن المهم بالنسبة إلى التحليل التالي أن نقر بوضوح أن كيفية فهمنا لما يعنيه أن نتحدث عن الحدود — أن نقول مع جيمي في أوبرا برتولت بريخت وَكورت فايل «صعود وسقوط مدينة ماهوجني»: «ثمة شيء مفقود» — يختلف تمامًا عن فهم هاتين المجموعتين، وهو أمر مهم حقًّا. إن ما نودُّ أن نحققه من تدخل في فهم العولمة وما بعدها يظهر في الأطروحات السبع التالية. تشير هذه الأطروحات، في مجملها، إلى طريقة مختلفة تمامًا لتخيل وجود فجوة أو حدود للنظام، وهذه نقطة نظرية نسعى للتعبير عنها في القسم الأخير من هذا الفصل.

(٦) الأطروحات السبع لما بعد العولمة

سواء كنا نريد تغيير الواقع أو الإبقاء عليه كما هو، فإن الكتابة عن الحاضر ومشكلاته تبدو دائمًا مقدمة للحلول. يتضمن هيكل أي كتاب نموذجي عن «الأحداث الجارية» الأقسام الثلاثة التالية؛ أولًا: تناول تغيير/تطور/اكتشاف مهم يتطلب تأليف الكتاب (والذي، إن أمكن، يمكن وصفه من خلال مصطلح أو تعبير جديد، والذي قد يجد طريقه إلى صفحات كُتاب مجلة «فورين بوليسي» أو أبحاث الطلاب الجالسين في القاعات الدراسية في كلية جون إف كنيدي للإدارة الحكومية). ثانيًا: وصف موضوع الكتاب بشيء من التفصيل، مع اللجوء إلى افتراضات ونظريات الحس العام لدفع العرض قدمًا. ثالثًا: اختتام الكتاب بمناقشةِ ما يجب القيام به للتعامل مع التغيير/التطور/الاكتشاف بطريقة مناسبة؛ أي بما يعود عادةً بالفائدة على الجماعة القومية التي ينتمي إليها المؤلف (على سبيل المثال، إذا كانت أمة ما لا تفعل شيئًا معينًا، فسوف تتخلف عن ركب سائر دول العالم، وخاصة الأمم المنافسة لها). إن الاكتشاف المعروض في القسم الأول من المفترض أنه سيؤثر ضمنًا على العالم بأسره؛ أما الحل المعروض في القسم الثالث، فهو موجه لدول محددة فقط، أو ربما لمجموعة صغيرة من الدول الصديقة. على كل حال، ثمة شيءٌ ما يمكن القيام به إما للاستفادة من الاكتشاف وإما للتخفيف من آثاره؛ أي لإنقاذنا.

ما هي الطريقة الأفضل للتفكير في العالم؟ فكِّر كالتالي: ليس ثمة ما يمكنه أن ينقذنا.

(٦-١) الأطروحة الأولى: لن ينقذنا التعليم

هناك تصور عام بأن التعلم والمعرفة هما الحل لجميع مشاكلنا، وأن متاعب العالم جاءت نتيجة للجهل أو عدم الفهم الكافي؛ لذا، فالحل وفقًا لهذا التصور يكمن في التعليم. يُنظر للتعليم بوصفه عملية ملء بالمعرفة لفراغات، يليه ملء مجددًا لفراغات جديدة، وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية. ولكن الجهل ليس هو ما يتجاوز نطاق رؤية التعليم، بل هو بالأحرى ما يظل مفقودًا عندما يتم التغلب على الجهل.

وحتى عندما يتدبر التعليم حدوده الخاصة، فإنه يفشل في تأمل كيفية مشاركته في إعادة إنتاج المنطق ذاته الذي وضع هذه الحدود؛ ومن ثم، ترى أشكال التعليم السائدة أنها دائمًا محايدة وتعمل دون غرض. في هذا الدور كمفسر محايد، لا يُستخدم التعليم

لمعالجة الحاجة إلى المعرفة، وإنما لمعالجة الحاجة إلى ترشيد أكثر التجاوزات سوءًا؛ من الاستعمار إلى تدمير البيئة إلى كل «الحروب العادلة» التي دعمها الخبراء الأكاديميون. مع توفر أفضل النوايا، يجد التعليم طرقًا بارعة لتبرير هذه التجاوزات، لتبرير الظلم (دائمًا باسم المعرفة، باسم الحياد). في كل مرة يهاجم التعليم الجريمة والفساد، فإنه يقدم بالتأكيد أهم مبرراتهما. إن الإبادة الجماعية والحرب وتجاهل إخواننا في الإنسانية من نتاج التعليم بقدرِ ما هي من نتاج الجهل. ويشكل إنتاج مبررات العنف باسم التعليم مواطنين منقسمين داخليًّا وغير متصالحين مع أنفسهم إلى درجة خطيرة. إن الحقيقة الخفية للعلم هي السلطة؛ والسلطة المخفية أكثر تعصبًا وخطورة من السلطة المعلنة.

لا يستوي العلم و«الفعل». إن معرفة المشكلة، وفهم سبب وكيفية حدوثها، لا يعنيان بالضرورة امتلاك القدرة على الاستجابة بفاعلية. ولا تستوي المعرفة و«التغيير». إن معرفة المشكلة، وفهم سبب وكيفية حدوثها، لا يعنيان بالضرورة امتلاك القدرة على تغيير الظروف الحالية؛ وفي حالات عديدة، ساعدت هذه الرغبة وتراكم المعرفة على زيادة صعوبة المشكلة قيد الدراسة. لا يمكن التغلب على حدود المعرفة إلا من خلال الفعل. وبالمثل، لا يمكن التغلب على حدود الفعل إلا من خلال المعرفة. ولكن حتى هذه القاعدة البديهية لا يمكنها أن تعمل بالقدر الكافي؛ حيث إن إدراك هذه المشكلة الخاصة بالفعل لا يزال مرتبطًا بالأشكال السائدة من التعليم.

لا ينتج عن التعليم الجامعي التقليدي سوى الصرامة داخل حدود التخصصات الأكاديمية. عادةً ما تُنتج الجامعة إما التخصص الأكاديمي الصارم (الدراسة المباشرة والمتخصصة داخل التخصصات)، وإما التخصص الأكاديمي غير الصارم (الدراسة الضعيفة التي تقوم على تقليد تخصصي موجود بالفعل)؛ وإما عدم وجود تخصص أكاديمي أو نظام صارم (وهو أسوأ أنواع الدراسة الأكاديمية التي غالبًا ما تتخفى خلف شعار «تعدد التخصصات»). ويقف وراء هذه الأنواع الثلاثة من إنتاج المعرفة نمو الشكل التجاري للجامعات (حيث يتم تقييم كل شيء وفق النتائج الكمية؛ «التميز» يعني عدد المقالات المنشورة، وعدد الطلاب، والعائد المادي)، هذا فضلًا عن أيديولوجية الحياد. وعلى الرغم من ذلك، فإن الفجوة التي تفصل بين العلم والفعل، والفعل والتغيير، والنظرية والممارسة، والنقد والتميز، والحياد والتحيز؛ لا يمكن سدها إلا من خلال نظام صارم يقاوم النظام التعليمي الذي تهيمن عليه التخصصات الأكاديمية. ونطلق على ذلك اسم

«النظام الصارم دون تخصص أكاديمي»، وهي طريقة للتفكير تتحدى على نحو أساسي التعليم؛ فالتعليم لن ينقذنا.

(٦-٢) الأطروحة الثانية: لن تنقذنا الأخلاق

إن أكثر الطرق الشائعة لتحديد أسباب الأخطاء والمشاكل في العالم هي من خلال التصنيفات الأخلاقية: الصواب والخطأ، الخير والشر؛ فإذا أخفق شيءٌ ما أو جرى على نحو سيئ، أو على العكس، إذا سارت الأمور على ما يرام أو نجح أمرٌ ما على نحو غير معتاد؛ نهرول نحو هذه المفاهيم (كما قال أوباما: «الشر موجود في العالم»). يعتمد استخدامنا لِلَفظة «الخطأ» أو «الشر» في موقف معين على درجة الخطأ أو ربما على القوة البلاغية التي نريد من خلالها أن نؤكد على الجانب الأخلاقي. عندما تدَّعي شركة جوجل أنها «لن تفعل الشر»، نعلم أنها لا تعني أنها لا ترغب في أن تخضع لأي مساءلة قانونية أو ملاحقة قضائية أو تتورط في صفقات مشبوهة، ولكن تعني أنها على الرغم من سلطتها المالية، فإنها ستسعى للعمل مثل أي مواطن صالح.

في حين أن تصنيف الفضيلة أو الرذيلة قد يكون تقييميًّا معتادًا، فلا ينبغي أن يكون الموضعَ الذي نبدأ منه أو ننتهي عنده. تُعد التصنيفات الأخلاقية مفهومة فقط فيما يتعلق بقواعد سلوك محددة، إن الحديث عن «الخير» أو «الشر» ما هو إلا تأكيد على وجود هذه القواعد وشرعيتها. وما لا يمكن أن يفعله هذا هو أن يحكم على النظام نفسه، أو أن يجري تحليلًا للبديهيات والصيغ خاصته. تستطيع شركة جوجل أن تتجنب الشر بوصفها مواطنًا صالحًا. إن مدى سماح النظام لكيان مجرد، مثل شركةٍ ما، بأن يكون مواطنًا منتجًا أو مدمرًا في مقابل الكيان الاجتماعي، لَهُوَ أمر خارج الحسابات تمامًا؛ فيمكن للمرء ألا يفعل إلا الخير، ومع ذلك يظل سيئًا.

ولكن أليس من المفيد أن نشير إلى السلوك الفاضح وغير الأخلاقي الذي ينتهجه أفراد بعينهم؛ أي أن نقول: كل شيء كان سيصبح على ما يرام، لولا وجود الفاسدين في الشركات، والأشخاص السيئين، والمتهربين من الضرائب؟ تشير مثل هذه الأوصاف إلى التوق إلى العدالة، حتى وإن كانت ترجئ إمكانية تحقيق العدالة إلى إشعار آخر. وتساهم هذه الإخفاقات الأخلاقية المنعزلة للنظام على تأكيد قوته حتى أكثر من ذي قبل؛ فعندما ندعو بعض الأفراد بـ «الأشرار»، يجب أن يعني هذا أن النظام نفسه «خيِّر». هناك حل أفضل يتمثل في عدم تصور أن النظام نفسه شرير على الدوام، وضرورة تجاهل

هذا التقييم الأخلاقي والاتجاه نحو تحليل عمليات النظام؛ فالأخلاق لن تنقذنا، ولم يكن النفاق هو ما حوَّل الخير الديني إلى شرور الحروب الصليبية، ولكنه الرضا عن نظام تصنيف يؤكد الأمور بدلًا من تحليلها.

دعونا نتأمل التجربة الفكرية التالية. ماذا لو أن كل شخص في العالم، كل يوم وبكل وسيلة، تصرف وفقًا لما تمليه عليه الأخلاق؟ سنحظى بالمعلم الجيد، والطبيب الجيد، والمحامي الجيد، والشرطي الجيد، والسياسي الجيد. هل ستكون نتيجة كل هذا الخير أن يكون النظام «جيدًا»، خاليًا من الفقر، والظلم، والتلوث؟ تذكر أن «الخير» يختلف عن «المساواة». إذا ما افترضنا أن السياسي الجيد سيحاول الإبقاء على القوانين الحالية قدر استطاعته، فسيكون الجواب هو «لا». وإذا كنا نتصور أن السياسي الجيد سيغير القوانين القائمة بغية الوصول إلى المساواة، إذن فالقضية الحقيقية ليست قضية أخلاق على الإطلاق.

(٦-٣) الأطروحة الثالثة: لن ينقذنا مفهوم الأمة

على عكس ما قد يتوقع المرء مع اختفاء الحدود الاقتصادية والمالية، اتجهت الشعوب إلى إخراج عباءة الأمم والقوميات من الخزانة، وإزاحة الغبار عنها، وارتدائها من جديد بفخر ودون حرج، على الرغم من كونها مهلهلة إلى حدٍّ ما ولم تعد رائجة على الإطلاق. كان من المفترض أن يكون القرن الحادي والعشرون عصر تقليل الحدود ومحو خطوط ترسيم حدود الدول، سواء على خرائطنا أو في خيالنا. وها هي الأمم، تقف فخورة كما يجب لها أن تكون، على استعداد للدفاع عن قيم حضارة التنوير ضد الجحافل الإسلامية، أو للإصرار على أنه على المهاجرين استيعاب أفكارها ومثلها العليا. وقد كتب يوهان جوتفريد فون هيردر قائلًا: «كل أمة هي شعب واحد، لها شكلها القومي الخاص، بالإضافة إلى لغتها الخاصة.»[33] من الواضح أن بعض الهراء يستطيع أن يصمد في مواجهة اختبار الزمن، بل ويصبح أكثر شعبية بمرور الوقت.

في البداية، نولد بشرًا، قبل أن نصبح من رعايا أمم، حتى لو كنا نميل إلى تعلم هذا بطريقة عكسية. ونظرًا لأننا بشر، فإننا نكون متماثلين؛ أما بوصفنا رعايا لأمم، فنحن نختلف بالضرورة؛ نقسَّم، ويقاتِل بعضنا بعضًا؛ ومن ثم لا نتفاجأ إذ نرى أن الدول لا تستطيع أن تتعامل مع المشاكل المهمة للبشر وليس لمواطنيها فحسب، سواء منفصلة أو مجتمعة. وعلى الرغم من كل المعرفة التي تشير إلى «ما ينبغي القيام به» فيما يتعلق

بالبيئة، وهي الحقائق العلمية التي يعلمها حتى القادة القوميون تمام العلم، ثمة القليل من الخطوات الفعلية التي يتم اتخاذها لمواجهة هذا التهديد لمستقبلنا جميعًا. يعوق الشكل السياسي للأمة تقدمنا للأمام في المسار الذي نعلم جميعًا أن علينا أن نسلكه.

قد يختلف بعض الراديكاليين مع هذا الرأي؛ فيوجد العديد ممن يرون أن ثمة عدة فرص سياسية في سياسات وخطط دولهم منفردة. ألا يستحق الأمر أن نستخدم إطار الأمة لنؤسس وندافع عن خطط ما — على سبيل المثال، الرعاية الصحية الشاملة — نظرًا لأن هذه الخطط تتعرض للخطر في أجزاء كثيرة من العالم؟ قد يكون هذا صحيحًا، ولكن لا يمكن أن يكون هو الخطوة النهائية؛ فكلمة «شاملة» هنا لا تعني أمة واحدة، بل تعني الجميع. إن الرعاية الصحية في أمة واحدة محدودةٌ وتمثل مشكلة تمامًا مثل «تطبيق الاشتراكية في بلد واحد»؛ فمثل هذه الخطط لا يمكن أن تنقذنا.

فلنكن واضحين ومحددين. «نحن» لسنا بحاجة للأمة؛ بل رأس المال هو ما يحتاجها؛ فمن دون هذه التقسيمات السياسية، وخاصة عندما تكون المعاملات الاقتصادية بلا حدود، لن توجد مناطق تفضيلية للعمل، أو مجال لتحقيق الربح من خلال التخلص من فائض الإنتاج، أو وسيلة لمراقبة السكان المشاكسين الذين قد يرغبون في مقاومة الرأسمالية، أو صمام تفريغ للمضاربات المبالغ فيها. إن الوظائف الأساسية للأمم تجعلها كيانات مثالية يمكن تنظيم العالم سياسيًّا حولها. ماذا يمكن أن يكون أفضل مما يلي بالنسبة إلى رأس المال؟ وماذا يمكن أن يكون كارثيًّا أكثر منها بالنسبة إلى البشرية بأسرها؟ إنشاء مناطق للدمج والإقصاء، والسيطرة على الوضع القانوني للرعايا–المواطنين، والممارسات المحاسبية والإدارية الديموغرافية، وحشد الهيئات لاستخدامها في التوسع الإقليمي والحرب.

كتب ثيودور أدورنو يقول: «إن تشكيل الجموع القومية ... وهو مصطلح شائع في مصطلحات الحرب البغيضة التي تتحدث عن الروس والأمريكيين وبالتأكيد عن الألمان؛ يتبع وعيًا يحاول العودة للوجود، لكنه لم يَعُد يمكنه حقًّا العودة. إنه يحصر نفسه ضمن تلك القوالب النمطية التي يجب أن يعمل الفكر على تفكيكها.»[34] ونحن تمامًا مع ذلك. في سلسلة حلقات مسلسل «ستار تريك»، كلما وجدت سفينة الفضاء «إنتربرايز» عالمًا جديدًا، تجد عليه مجتمعًا واحدًا من الكائنات على امتداده. لا بد أن هذه الكائنات الفضائية قد أصيبت بخيبة أمل عندما التقت البشر، الذين حملوا معهم اختلافاتهم القومية حتى في المستقبل، وحتى آخر الحدود.

(٦-٤) الأطروحة الرابعة: لن ينقذنا المستقبل

الحاضر استعمر المستقبل؛ فحتى اسم وخيالات المستقبل تظل محصورة في إطار الحدود الخيالية للحاضر. ونحن نتظاهر بأننا لا نعرف ما سيجلبه المستقبل؛ ما يشعرنا بالارتياح إلى حدٍّ ما، ولكن هذا أيضًا سبيل لاحتواء المستقبل. إن الموقف الأكثر تطرفًا في التعامل مع المستقبل هو ألا نتوقع أنه سيأتي. ومع ذلك، نظل متمسكين بالاعتقاد بأن المستقبل يأتي دائمًا، وأن كل ماضٍ يحل محله مستقبَلٌ؛ ولكننا نعتقد ذلك فقط باعتباره وسيلة لتبرير حاضرنا، كي يبدو أكثر عقلانية.

لن ينقذنا الحاضر أيضًا؛ فمن دون المستقبل، سيكون الحاضر مجرد شيء نعمل على إدارته والإبقاء عليه وتغيير بعض تفاصيله. إلى أي شيء آخر غير هذا يمكن أن يشير المصطلح الانهزامي «التنمية المستدامة»؟ فأنْ تعيش في حاضر لا يزعجه أو يربكه مستقبل مختلف (حتى المستقبل المختلف جذريًّا من حيث إنه لا يوجد مستقبل)، يعني أن تستسلم لحدود هذا الحاضر؛ إذن، فنحن لا نحتاج إلى حاضر أو مستقبل مختلف، بل إلى طريقة مختلفة لفهم هذه التصنيفات الزمنية التي نسميها الحاضر والمستقبل والعيش فيها.

إن الحالة النموذجية التي توضح هذا الوضع المختلف من الحياة هي حالة المريض الذي حصل على تشخيص نهائي بإصابته بمرض عضال، ولكنه عاش حتى شهد التقدم الطبي الذي حوَّل هذا المرض العضال إلى مرض مزمن. والآن، لا يزال هذا المرض قاتلًا، لا يزال مستعصيًا، مهما استطاعوا التعامل مع المرض في المستقبل والسيطرة عليه، وربما إلى أجل غير مسمًّى؛ وهذا نوع من التنمية المستدامة للمريض المحتضر. إن المريض في طريقه إلى الموت بالفعل، ولكنه لم يَمُتْ بعدُ، وحصل على فترة زمنية تعمل بمنزلة ثقب في الزمن، وطريق للهروب إلى مكان آخر وباب مسحور لمكان البداية.

إن هذه الطريقة التي يعيش فيها المريض بمرض عضال في السابق باعتباره «ميتًا بالفعل» تقدِّم نموذجًا للتحديات الاجتماعية والبيئية. فلْنُنْعِم التفكير في بعض التنبؤات البيئية التي تشير إلى سيناريو للمستقبل البيئي قد فات أوانه بالفعل، أو أي موقف آخر يقول بأنها مسألة وقت فحسب قبل أن تقع النهاية المتنبأ بها، مهما استغرق الأمر للوصول إلى هذه النهاية. ربما يكون الموت نفسه هو ما مثَّل دائمًا هذا الحد الذي يقلب الطاولة علينا ويُعيد للزمن حريته المطلقة.

إن أكثر المجالات الطبية ثوريةً هي الرعاية التلطيفية؛ تحديدًا لأنها أعادت تقييم قيمة الحقل الزمني. كان المرضى الذين يشرفون على الوفاة عمومًا يعطَون أقل أولوية؛

حيث كان مفهوم الموت يُنظر إليه على أنه هزيمة للطب أو يمثل حرجًا إحصائيًّا؛ فلماذا ننفق مواردنا على شخص لن تستمر حياته أكثر من أسابيع قليلة فحسب؟ لماذا نعطي اهتمامنا لشيء لن يعطينا ما يكفي من عائد على استثمارنا فيه؟ لأن لحظةَ توقُّفنا عن تأجيل المستقبل أو أملنا في الحصول على مستقبل جديد هي لحظة تحول شيءٍ ما في الحاضر. ولكننا من جديد نؤكد على أن هذا التحول لا يشير إلى حاضر أو مستقبل بمحتوًى مختلف، ولكن إلى واقع مختلف للحاضر والمستقبل الحاليين.

ولا يتعلق نموذج الرعاية التلطيفية هذا بالمريض المحتضَر فحسب؛ فالتاريخ أيضًا يُحتضَر، وكذا الجنس البشري، والكوكب كذلك. كيف يمكن أن يبدو جناح الرعاية التلطيفية لهذه الوفيات المنتظرة؟ كما هو الحال بالنسبة إلى المريض المحتضر، ماذا لو كان فهمنا أن كوكبنا، وجنسنا البشري، وتاريخنا يحتاج إلى نوع مختلف من الرعاية؛ طريقة مختلفة للنظر للحاضر والمستقبل لم تتشكل من خلال سبب أو معجزة؟ كيف يمكن رعاية شيءٍ ما، أو شخصٍ ما، مع العلم بأنه سوف ينتهي قريبًا؟ ماذا يعني أن تتصرف في مواجهة هذه النهاية؟

صحيح أن هذه العلاقة بالنهاية قد تفتح طرقًا جديدة لتأجيلها أو تجنبها، إلا أننا لا يمكن أن نعرف ذلك مسبَّقًا؛ فمن شأن هذه الاستراتيجية أن تقدم الموقف البديل تجاه النهاية المطلوب تغييرها. وما لم نفكر بأسلوب مختلف، فإن المستقبل لن ينقذنا.

(٦-٥) الأطروحة الخامسة: لن ينقذنا التاريخ

لا وجود للطبيعة البشرية. إن عبارة «منذ زمن سحيق» هي أخبث عذر للعنف البشري، كما أن كلمة «دائمًا» تفضح دائمًا الرغبة في التبسيط. وعندما نعود إلى ماضٍ سحيق لتبرير الحاضر، فنحن بلا شك نخلط بين وضعين مختلفين؛ على سبيل المثال، «لطالما كانت الحرب موجودة، وستظل موجودة»؛ «لطالما كان هناك فقر، وسيستمر الفقر على الدوام»؛ «دائمًا ما يَتْبع السلامُ الحربَ، وسوف يتبعها دائمًا». إن هذه الحقائق الثلاث البادية الصحة تحمل زيفًا عميقًا! بالطبع، يمكننا أن نتتبع الحروب منذ بداية البشرية، ولكن سياق الحرب، منطق الحرب (تصنيف الحرب في حد ذاته)؛ شيء يختلف نوعيًّا في لحظات مختلفة من التاريخ. لا ريب أن ثمة شيئًا يسمى الفقر يملأ سجلات التاريخ، ولكن كيفية نشأة الفقر وهيكلته، وكذلك ما يعنيه، وما يعنيه أن نكون فقراء في الحقب الإقطاعية؛ لا يقارَن بوضع وتجربة الفقر في الوقت المعاصر. إن تثبيت هذه التصنيفات والتظاهر

بأنها تستمر من لحظة تاريخية إلى أخرى يعمل دائمًا على قمع أو التماس الأعذار لأعمق مخاوفنا، هذا إلى جانب إمكانيات توفير وسائل بديلة للحياة وتنظيم أنفسنا.

لا يحتوي التاريخ على السر الخفي الذي فاتنا أن نلاحظه في المرة الأولى. توجد بالفعل أسرار خفية في التاريخ، ولكن بمجرد الكشف عنها تفقد استقلاليتها؛ ومن ثَمَّ أهميتها، فسرعان ما تسترد قوتها وتسير على خط مستقيم وصولًا إلى الوقت الحاضر. إن التاريخ مهم حتى يذكِّرَنا بأن فئة التاريخ ذاتها تعني شيئًا مختلفًا اليوم عما كانت عليه في الماضي.

إن استحضار شرور الماضي (مجسدةً في شخص هتلر) دائمًا ما كان خطأً. إذا كان ثمة شر، فهو دائمًا في صورة مفردة؛ فلا يمكن أبدًا أن يُعرف من خلال مجموعة من المعايير أو أن يتكرر، بل ينتج فقط ودائمًا من جديد؛ مما يجعله غير متناسب مع ما كان عليه الشر من قبل، ومما كان قبل ذلك؛ ومن ثم، دائمًا ما يُستخدم استدعاء الشر لتسطيح التاريخ وإطالته على نحو خاطئ. يدير التاريخُ الخطيُّ الشرَّ بتمثيله باعتباره زَلَّة مؤسفة، وإن كانت مؤقتة، في مسيرة التاريخ نحو المستقبل. غير أن استدعاء التاريخ الخطي لا يكتفي بذلك، فهو يصل إلى أقصى حدٍّ له؛ إلى تبرير الشر. ومن خلال استدعاء الوجود «الأبدي» و«المستمر» للشر، يؤكد التاريخ الخطي على وجود الشر في الحاضر، وأثناء هذه العملية، يؤكد عدم الوعي بإنتاج القيمة المرجح تاريخيًّا.

تُشكل قيمة الشر المفترضة عبر التاريخ القيمةَ المفترضةَ للثروة عبر التاريخ، كما تتشكل من خلالها. ينبغي ألا يكون مفاجئًا أنه يتعين على الأثرياء أن يَحجبوا الأصول التاريخية لثرواتهم. إلا أن ثمة مشكلة في ذلك؛ فإذا لم تُبرر الثروة الهائلة تاريخيًّا، فسيبدو أن مصدرها الاحتيال، ولكن عندما تُبرر تاريخيًّا، فهي تقترب على نحو خطير من الكشف عن أن مصدرها السرقة. تَفْحص مجموعةُ ريبوهيستوري الفنية التمثيلَ التاريخيَّ وتعيد وضعه في سياقه من خلال الأعمال الفنية العامة، الخاصة بمواقع محددة في مدينة نيويورك. قد تضع المجموعة لافتة على مبنًى شركةٍ ما (على نحو يتناسب مع ديكور المدينة)، تشرح كيفية حيازة المبنى وأي ممارسات مشبوهة أو عدوانية أدت إلى بنائه. تريد تدخلات ريبوهيستوري غير النظامية أن تلفت الانتباه إلى الروايات المنسية أو المقمعة الخاصة بالثروة، وفي الوقت ذاته «أن تكشف عن العلاقات المكانية الكامنة في السلطة والاستخدام والذاكرة.» إن استدعاء المكان مهم؛ فمن خلال إعادة رسم التاريخ وفي نفس الوقت إعادة سرد هذا التاريخ، تحل مجموعة ريبوهيستوري على نحو مؤقت

المشكلةَ الحتميةَ الخاصةَ بالتعامل مع التاريخ، والمتمثلة في كيفية سرد كلٍّ من حالات استمراره وتوقفه.[35]

إن التاريخ موجود، ويمكننا استخدام السجل التاريخي لإثبات ذلك، إلا أن التأريخ المستمر للتاريخ ليس له وجود من دون عدد كبير للغاية من الفواصل والتمزقات التي تفصلنا بدورها عن الماضي تمامًا بحيث يمكننا مواجهته (وتذكُّره) فقط كما نتذكر حلمًا. ويمكننا استخدام السجل التاريخي لإثبات ذلك أيضًا.

(٦-٦) الأطروحة السادسة: لن تنقذنا الرأسمالية

الرأسمالية هي نظام من تصميم الإنسان وابتكاره، ولم تتنزل علينا من السماء مثل المَنِّ، ولم تقدمها لنا الآلهة لمساعدتنا على اجتياز الصحراء الاجتماعية، إنها ليست قريبة من النظم التي تشكل جزءًا من النظام الطبيعي للأشياء، مثل دورة كريبس (العملية التي تَستخدم من خلالها الخلايا الأكسجينَ في التنفس) أو الجهاز القلبي الرئوي (الجهاز الدوري). والرأسمالية، شأنها شأن أي نظام اجتماعي بشري، بالضرورة غير منزهة عن الأخطاء؛ فهي مليئة بالثغرات والمشاكل التي لا تسمح لها بالعمل وفقًا للمخططات التي وضعها الاقتصاديون. ويُفترض بـ «الكائن الاقتصادي»، المنوط به أن يعيش في النظام الاقتصادي للرأسمالية، أن يتخذ قرارات عقلانية طوال الوقت. حتى الاقتصاديون يعترفون أن هذه الكائنات النادرة تسترشد أكثر بما أسماه جون مينارد كينز «الغرائز الحيوانية»، أكثر من الملكة التي تدعى «العقل»[36] (التي هي بدورها غير مكتسبة). ويمكن للمرء أن يتوقع بعد ذلك نتائج متواضعة من نظام يتوقع منه مناصروه أن يتقدم بنا نحو المستقبل.

دعونا نتوقف لِلَحظة لنسأل إن كان هذا الشيء الذي نسميه الرأسمالية يشكل نظامًا بالمعنى الصحيح للكلمة، حتى لو كان هذا هو ما نميل إليه عندما نتحدث عنه. إذا كانت الرأسمالية غير مكتملة بالضرورة، وإذا لم تكن تشكل أفضل العوالم الممكنة، فلِمَ نصمم على أن نُلحِق بها صفات ليست لها؟ لقد لعبت الرأسمالية دورًا مهمًّا في التطور التكنولوجي؛ فقد نمَّت الاقتصادات على مستوى العالم على مدى القرن الماضي، وحتى أكثر على مدى العقدين الماضيين؛ مما أدى إلى تحسن مستويات المعيشة في كل مكان تقريبًا. كما تُنتج الرأسمالية مجموعة وافرة من المنتجات الجديدة، كلها مفيدة وجيدة.

غير أنها لم تكن مفاجأة لأحد أن كل شيء في نظامنا الاقتصادي ليس على هذه الدرجة من الروعة. إن الحرية التي كثيرًا ما تُربط بالرأسمالية تُعد عبودية بالنسبة إلى الغالبية العظمى من سكان العالم: الملل المتكرر لعالم مبتذل لا يرى المرءُ بصيصَ أملٍ للهروب منه. من المستويات غير المتكافئة على نحو مزعج لتوزيع الثروة (حصل أغنى ١٠ في المائة في الولايات المتحدة على ٥٠ في المائة من الدخل في عام ٢٠٠٦)،[37] إلى انعدام الأمن المالي العميق بالنسبة إلى معظمنا، ثمة مشاكل عديدة في العمليات المنهجية المعتادة للرأسمالية. تعود العمليات الرأسمالية بالنفع المادي فقط على فاحشي الثراء؛ فمن الصعب أن تدافع عن الفائدة الاجتماعية للإنتاج المجرد للمال من خلال المال. مما لا شك فيه أن الرأسمالية تُنتج ثروة، ولكن من أين تأتي هذه الثروة؟ هل هي مثل الأرنب الذي يخرجه الساحر من القبعة بسرعة فائقة! هذه تمامًا هي الحقيقة: ولكن كما هو الحال مع السحر، فالأمر لا يتعلق بالسحر الحقيقي، فهو لا يتعدى خفة اليد التي تصرفنا عن رؤية الحقيقة بأن عمل الكثيرين هو لصالح قلة قليلة.

وللرأسمالية عيوب، بعضها عميق للغاية، ومن الغباء أن نتصور أن هذا النظام، وهو صنيعة لحظة تاريخية محددة، يمكنه أن يتغلب على كل الحدود بطريقة تعود بالفائدة على الناس جميعًا؛ فهو ليس بمنزلة الدواء الناجع لكل العلل. لماذا إذن نجد هذا الدفاع المستميت عنه، كما لو كان جزءًا من كتاب مقدس لا يمكن لأحد أن يعارض ما فيه خوفًا من الوقوع في دائرة الكفر؟

يردد أولئك الذين يصرون على الضرورة غير القابلة للنقاش للرأسمالية (دون أن يعرفوا ذلك) حجة جوتفريد لايبنتس حول طبيعة العالم. لقد خلق الرب العالم؛ إذا كان عالمنا هذا هو العالم الذي اختاره الرب لترتبط ذاته به (بعد تجربة توليفات عديدة أخرى للعالم، كما يجب أن نفترض)، فلا بد أنه أفضل العوالم الممكنة. بالتأكيد، بالتأكيد، ثمة شر ومعاناة، ولكن هذا جزء من المزيج الأمثل الذي يجعل الكل على ما هو عليه، أو الذي يسمح له بأن يكون ممكنًا من الأساس. إن الشر أمر ضروري، ولا يمكن الاستغناء عنه؛ فالمعاناة مفيدة لأنها تدفع البشر إلى العمل. ويبدو هذا الكلام مشابهًا لنوعية الحجج التي يسوقها الأغنياء فيما يتعلق بضرورة وجود مشاعر الخوف والرهبة التي تَنتج عن الرأسمالية؛ فهي ما يدفع الفقراء الكسالى إلى العمل. لقد سَخِرَ فولتير، في مسرحيته «كانديد»، من هذه الرؤية الخاصة بالعالم. ويبدو أن تفاؤل دكتور بانجلوس الخاطئ وغير العقلاني بأن الخير أساسي في طريقة سير الأمور، يكرره الكثيرون الذين يصرون أنه لا يوجد إلا

الرأسمالية. إن الرأسمالية موجودة؛ ومن ثَمَّ يجب أن تكون جزءًا من تدبير الرب! ومثل كانديد، يعلم سائر البشر الحقيقة.

(٦-٧) الأطروحة السابعة: لن ينقذنا الحس العام

هذه النقطة هي الأسهل في فهمها، ومع ذلك فهي عصية على التفسير بحيث تُفهم فهمًا سليمًا. لن ينقذنا الحس العام؛ فنحن نواجه العديد من التحديات والتهديدات والمشاكل بحيث لا يمكننا أن نعتمد على الطرق القديمة في القيام بالأمور. مَن يمكن أن يختلف مع ذلك؟ يحضنا الكتَّاب من مختلف المشارب السياسية ممن يرغبون في توجيه طاقاتهم نحو هذه المشاكل على «التفكير خارج الصندوق»، أو يطالبوننا بأن نأتي بطرق بديلة لرؤية الأمور. بعبارة أخرى، مثلما يقول الإعلان الشهير، يطالب كل الناس تقريبًا بعضهم بعضًا بـ «التفكير بطريقة مختلفة».

يتعلق الحس العام بالشكل أكثر من المضمون. إن الحس العام مسألة عمومية؛ بمعنى أنه سمة من سمات كل مجتمع بشري. وفي سياق معين، يتعلق الحس العام بمحتوًى معين. يتضمن محتوى الحس العام لدينا — وهو الحس العام الذي يحمل الآن صبغة العالمية — الأطروحاتِ الستَّ المذكورة أعلاه. بالكاد تستنزف هذه الأطروحات حِسَّنَا العام! ما تشير إليه بالفعل هذه الأطروحات هو البديهيات الاجتماعية التي نتصور أنها سوف تنقذنا من أنفسنا. بعبارة أخرى، هذه هي عناصر الحس العام التي عادةً ما نلجأ إليها لتنقذنا من المشاكل التي تَنتج عن حِسِّنا العام.

يا له من بناء فلسفي مبهم! نظام الأفكار الضروري هذا الذي يُطبق على نفسه بطريقة تمنعه من الفكاك! ومن الإنصاف تمامًا أن نسأل: ما الذي يسمح لنا بأن نرى الحس العام بصورة مخالفة لما هو عليه؟ أليس منظورنا النقدي هو نفسه حسًّا عامًّا فحسب؟

إن الحس العام هو ما يعلمه الجميع، وهو مجرد معرفة افتراضية، من الأمور البسيطة وحتى القضايا المعقدة. ويفترض به أن يقدم بالفعل إجابات لجميع الأسئلة، حتى لو كانت ثمة حاجة إلى بعض الجهد الذي يتعين القيام به لإعادة الجمع بين بعض معتقداته أو لتوسيع بعض رؤاه لنطاق أبعد قليلًا. إن مثل هذه الرؤى الجديدة هي شكل من أشكال «التفكير خارج الصندوق» الذي يفتخر بكونه مبتكرًا وثوريًّا، ولكنه في الواقع يظل ضمن نطاقِ ما يُعد معقولًا. على سبيل المثال، قد تؤدي الحاجة إلى المزيد من الطاقة

ومشاكل الاحترار العالمي إلى اختراع أشكال مختلفة من الطاقة النظيفة. ومع ذلك، فإن النظرة المتفحصة لقضية «الحاجة» في هذه الحالة — هي حاجة يغذيها نظامٌ لا يملك ببساطةٍ خيارَ تقليل مستوى النمو الاقتصادي — لا تزال حدًّا غير قابل للتفكير فيه. إن الحس العام دائمًا ما يُعيق عملية تخيل الحدود؛ فالسعي من أجل «التفكير خارج الصندوق» يؤدي بنحو رئيسي إلى تأكيد شرعية وقيمة الصندوق.

عندما نقول إن الحس العام هو ما يعلمه الجميع، فنحن لا نستدعي الأيديولوجية بالمعنى الشائع لهذا المصطلح. ولا يعني هذا أننا ببساطة نُمنع من رؤية الجوانب «السيئة» للأنظمة، أو يحظر علينا (لسببٍ ما، مِن قِبل شخصٍ ما) فَهْم كيفية عمل الأشياء؛ فكما تقول الأغنية:

يعلم الجميع أن النرد مغشوش
يلعب الجميع ويتمنون أن يكون الحظ السعيد حليفهم
يعلم الجميع أن الحرب قد انتهت
يعلم الجميع أن الأخيار قد خسروا
يعلم الجميع أن المعركة لا تتغير
يظل الفقراء فقراءَ ويزداد الأغنياء ثراءً
هذه هي طريقة سير الأمور
والجميع يعلم.[38]

فنحن لا نفتقر إلى المعرفة، بل إلى التعرف على نمط منهجيتها.

دعونا نكُن واضحين ومحددين أكثر؛ نحن لم نفهم الحس العام بطريقة سليمة بوصفه خطأً في طريقتنا في رؤية الأشياء، إذا كنا نعني ب «الخطأ» أن ثمة حلًّا للحس العام يمكن أن يأخذ شكل موقفٍ ما خارج إطاره ويتجاوزه تمامًا (الخيال المعرفي بامتياز)، أو أن للحسِّ العام «أخطاءً» يمكن بطريقةٍ ما تصحيحها؛ على سبيل المثال، من خلال تحويل غنائية الشعر إلى يقين الرياضيات، كما هو الحال في رواية يفجيني زامياتين «نحن».[39] فنحن لا نسعى لما يتجاوز الحس العام، ولكن هذا يختلف عن القول بأن ما هو قائم بالفعل هو المقدر. تم تقديم الأطروحات الستِّ السابقة باستخدام أسلوب النفي؛ والهدف من هذا النفي ليس الحكم على المقترحات التي تكشف عنها ولا استبعادها بطريقة مباشرة وبسيطة، ولكن — عوضًا عن ذلك — الهدف هو أن تجعل حدود الفكر

أكثر شفافية بالنسبة إليه نفسه مما كان سيكون عليه في وضع آخر. فقط في هذه المرحلة يمكن للنقد أن يبدأ. مرة أخرى، لنكُن واضحين ونقول، يبدأ، ليس من خارج الحس العام، ولكن من موقف «داخله» يدرك أن مضمونه الإيجابي وقواعده أو بديهياته الأساسية لا يمكن أن تغطي مجال الفكر بالكامل. إن الحدود التي نشير إليها هي الحدود التي ينتجها الحس العام، والتي يصر على أنه لا يمكن معالجتها إلا من خلال تلك العمليات التي صنعت الحدود. ولا يحتاج المرء إلى أن يمارس ألعابًا عقلية وجودية أو معرفية للتعرف على المساحة التي يمكن أن ينشأ فيها النقد.

عندما نقول إن الحس العام لا يمكن أن ينقذنا، فنحن في الواقع نقدم زعمًا إيجابيًّا؛ فما نحتاج إليه هو نقد يسعى لتحليل وتغيير المجتمع ككل. تهدف الرؤى النظرية للحس العام إلى التفسير والفهم، ولكنها لا ترغب على الإطلاق في إحداث تغيير على المستوى الكلي. لكن هذا هو التحدي الذي يلزم على الفكر أن يواجهه اليوم.

(٧) هناك شيءٌ ما مفقود

إذن، كل هذه الأشياء (التعليم، والأخلاق، والأمة، والمستقبل، والتاريخ، والرأسمالية، والحس العام) لن تنقذنا. لا شيء يمكن أن ينقذنا. ما هو هذا «اللاشيء» الذي سينقذنا؟ في الواقع، يمكن أن يُفهم هذا «اللاشيء» بوصفه «شيئًا ما» (وليس مجرد نتيجة للخدعة اللغوية التي تجعل من كلمة «لا شيء» اسمًا). ولكن الأهم فالمهم: إن هذا اللاشيء هو تحديدًا ما يساعد على وجود هيكل لهذه الأشياء. هناك دائمًا شيء مفقود في هذه الأشياء؛ وهو اللاشيء. هذا اللاشيء هو الشيء الذي من دونه لن يكون ثمة وجودٌ لشيءٍ ما. أبراج النجوم هي اللاشيء الذي يجمع النجوم معًا، والمساحة بين الأغصان هي اللاشيء الذي يحفظ ترابط الشجرة. الرأسمالية هي اللاشيء الذي يجمع رءوس الأموال معًا.

إن الرأسمالية هي لا شيء؛ إذ لا يمكن العثور على أي أثر لها في أي مكان، فلا يمكن الإمساك بها أو قياسها أو إثباتها، لكن كل ما يحيط بالرأسمالية موجود في كل مكان ويمكن الوصول إليه بسهولة للدراسة؛ فالسلع، والأوراق النقدية، ونقل الحمولات الثقيلة، والرغبة الاستهلاكية المفرطة، والأعمال الخيرية المثمنة، والاضطرابات العصبية (بدءًا من فرط الحساسية وحتى التفارق)، والانبعاثات الكربونية، والفيضانات والحرائق وغيرها من «الكوارث الطبيعية» الاجتماعية، والآحاد والأصفار الرقمية التي تنقل اتصالاتنا بنحو

فوري، ووسائل الترفيه، والأموال حول العالم؛ ليست هي الرأسمالية، بل هي آثارها؛ فالرأسمالية هي لا شيء.

ومن ثم، فإن المعنى الأول لتعبير «هناك شيءٌ ما مفقود»، هو أن هذا «اللاشيء، الذي هو الرأسمالية، والذي هو شيءٌ ما، مفقود». وحيث إن اللاشيء يكون مفقودًا، حتى وإن كان موجودًا، فإن اللاشيء يصبح مسألة إيمان؛ فيجب علينا أن نؤمن بأن اللاشيء موجود، حتى وإن لم نكن نمتلك أي دليل إيجابي لإثبات ذلك؛ ولهذا السبب فإن الرأسمالية مسألة إيمان. واليوم، بدأ المزيد والمزيد من الناس يستعيدون إيمانهم، يولدون من جديد؛ ليس بالضرورة كيساريين أو يمينيين، ولكن كمؤمنين بنظام يسمى الرأسمالية، أو لنكونَ أكثر تحديدًا، بوجود فكرة «النظام» من الأساس.

لم يَعُد هذا الإيمان بالنظام إلا بعد أن أصبح خطاب العولمة لا يُخفي وراءه الرأسمالية؛ فخلال ذروة العولمة، لم يكن ثمة من يؤمن بالنظام الرأسمالي؛ ليس فقط أنه لم يكن موجودًا في أي مكان، وإنما كان يتعرض للإخفاء باستمرار. لقد كان مخفيًّا عن الأنظار، بعيدًا عن إحساسنا، عن قدرتنا على الإيمان به. كان موجودًا ولكن ليس بوصفه نظامًا، وإنما كأي شيء؛ ولن يكون كل شيء، دون اللاشيء، موجودًا إلا في الخيال. والآن، أصبحت العلاقات بين الأشياء، بين الأمم، بين الماضي والحاضر، بين الأغنياء والفقراء، بين الحليف والعدو (والعلاقة هي التمثيل المثالي للا شيء!) في طور الإظهار. ما الذي سَيَلِي العولمة؟ إظهار العلاقات الغائبة التي تُشكِّل حياتنا، وتتشكل من خلالها؛ إظهار اللاشيء.

كانت مساحات اللاشيء هذه الموجودة بين كل الأشياء هي أكثر الأسواق حيوية بالنسبة إلى رأس المال. إن المناطق الحضرية لدينا مزدحمة بالإعلانات، ليس فقط على لوحات الإعلانات ولكن على أجسادنا وأحلامنا؛ فكلُّ شقٍّ مليء بالشعارات، وكل قطعة من الأماكن المتوافرة محتلة مثل أراضي العدو. وبالمثل، الوقت مزدحم كذلك؛ كل ثانية مليئة بالإعلانات والأجساد العارية، والمزيد من الشعارات؛ حتى الشعارات التي تُهيب بنا أن نتوقف عن النظر إلى الشعارات، على سبيل المثال، إذا ذهبتَ إلى إحدى الفعاليات الرياضية وحاولتَ التركيز على الحدث، فلن تجد لحظة واحدة فارغة؛ لا توجد فواصل زمنية، أو استراحات، ولا لحظة واحدة غير محددة معالمها مسبقًا. وتتعرض أي محاولة للتمرد على ذلك للإيقاف على الفور، وأي محاولة لإحداث تأثير مضاد تولد ميتة ولا تحصل على أي فرصة للنمو والاستمرار. حتى المستقبل مزدحم؛ فالدين الشخصي والقومي ما هو إلا احتلال لوقت مستقبلي.

يعني هذا أيضًا أن اللاشيء قد يظل بلا تغيير، ولكن علاقتنا به يمكنها أن تتغير. إن طريقة فهمنا وتمثيلنا وإيماننا وتجربتنا له تتغير من لحظة تاريخية إلى أخرى. في الواقع، قد نروي حتى تاريخًا حديثًا لعلاقتنا باللاشيء. مع وصول الرأسمالية الصناعية للذروة في القرن التاسع عشر، زاد إدراكنا «للاشيء». ساهم التحرك من الريف إلى المدينة وتحويل الاعتماد على الزراعة إلى الاعتماد على العمل في المصانع في تيسير التمثيل والإيمان بالعلاقات التي شكَّلَت هيكل الحياة اليومية. كان من المستحيل إغفال العلاقات الإمبريالية، وتنظيمها الواضح والمتماسك للمدن والمستعمرات، للمستعمِر والمستعمَر. وفي أعقاب عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته، أبرزت الحقائق الصارخة لِمَا كان عليه الجانب الآخر من الرأسمالية (من طوابير الحصول على الطعام إلى المسيرات الفاشية، وصولًا إلى معسكرات الاعتقال) علاقات النظام (اللاشيء) من جديد. وينطبق الأمر نفسه على الحرب الباردة؛ فكان كل شيء منظمًا ومفهومًا من وجهة نظر القطبية الثنائية؛ نظامان مختلفان تنظمهما المساحة (مساحة الأيديولوجية، ومساحة الإنتاج، ومساحة القيمة الثقافية) التي تفصل بينهما.

ولكن مع أزمات النفط التي ظهرت في سبعينيات القرن العشرين، بدأ تكامُلُ نظامَي طرفَي الحرب الباردة في التداعي، وسيطرت عولمة أحد النظامين (الرأسمالية) على النظام الآخر. وعندما سقط جدار برلين، كانت السيطرة كاملة، واختفت المساحة التي كانت قائمة بين النظامين. ولكن عندما يكون هناك نظام واحد فقط سائد، يتغير كل شيء، خاصةً خبرة وفهم وتمثيل النظام نفسه. هذه هي لحظة العولمة المكتملة. وفُقد النظام الرأسمالي مع ارتفاع أصوات المتفاخرين بكل شيء في العولمة (من جميع أطراف الطيف السياسي). لقد فُقد شيءٌ ما، وهو نظام اللاشيء، أو اللاشيء بوصفه نظامًا. ومع أزمة الرهن العقاري والانهيار المالي العالمي في عام ٢٠٠٨، بدأنا نبحث عن شيءٍ ما مفقودٍ مرة أخرى. «لقد عاد النظام؛ ومن ثم، فثمة شيء مفقود.»

إن إحدى طرق تصور هذه العودة لشيءٍ ما مفقودٍ هي عودة تخيُّلِ شيءٍ ما مفقود. ويعني الإيمان بنظام من جديد أن نؤمن بالأنظمة الأخرى، ليس أنظمة الماضي الفاشلة أو المهزومة فحسب، ولكنْ أنظمة المستقبل كذلك. نحن لا نرغب في تقديم مخطط محدد لنظام مستقبلي، ولكن، عوضًا عن ذلك، نريد أن نشير إلى ضرورة تخيل أنظمة بديلة؛ جميع أنواع الأنظمة: السخيف منها والخطير، المستحيل منها وما لا يمكن تخيله. إن اقتراح نظم أخرى وأخذها على محمل الجد لا يتعلق فقط بعمل تحليلات لهذه البدائل، ولكن

يتعلق أيضًا باستخدام قدراتنا من أجل تخيل مثل هذا النظام أيضًا. تمثل ديستوبيات الخيال العلمي، على سبيل المثال، مجتمعات بائسة ونظمًا كارثية، ولكن مجرد تخيل إحدى هذه الديستوبيات يبدو عملًا يوتوبيًّا، عملًا يؤمن بتكامل نظامٍ ما وكيف يمكن لهذه الأنظمة أن تظهر إلى حيز الوجود ثم تختفي. تصل «نهاية التاريخ» إلى نهايتها عندما نستطيع أن نبدأ في تخيل بداية الأنظمة ونهايتها.

ومن ثم، يعرض كتابنا هذا ثلاثة مزاعم رئيسية، وهي؛ أولًا: في أعقاب الأزمة الاقتصادية العالمية لعام ٢٠٠٨، عاد الإيمان بما يشكِّل هيكل العالم في الوقت الحاضر (اللاشيء المدعو الرأسمالية) والوعي به. ثانيًا: هذه العودة للإيمان تتيح وتلهم الرغبة في وجود لا شيء آخر؛ نظام آخر يمكن للرأسمالية أن تتحور فيه. وثالثًا: هذه الرغبة في لا شيء آخر، لشيء آخر، تهز دعائم ما هو ممكن. يشمل «الشيء المفقود» كلًّا من «اللاشيء» الذي نعيشه من جديد والمستقبل المختلف الذي «نفتقده» على الرغم من عدم قدرتنا على وصفه، أو تخيله، أو الرغبة فيه صراحةً. إن «الشيء المفقود» منفتح على ما يأتي فيما بعد العولمة؛ وهذا الانفتاح الذي يَعِدُ بسلام أكبر ومساواة أكبر من مجرد مجموعة السلع التي تباع لنا مرة أخرى.

الفصل الثاني

حدود الليبرالية

(١) ما بعد العولمة، أو الليبرالية فيما بعد الليبرالية الجديدة

«ما بعد» العولمة؛ ألا يبدو هذا التعبير غريبًا؟ ألسنا ما زلنا في طور البداية؟ أليست العولمة عملية غير مكتملة بالضرورة، وهو أمر لن ينتهي إلا مع إنتاج نظامِ حكمٍ جديدٍ ما بعد قوميٍّ تتوزع خلاله القوة توزيعًا متساويًا أكثر من اليوم؟ ولكن هذا الاستغراب يقل كثيرًا إذا لم ننظر إلى العولمة بوصفها مصطلحًا تقنيًّا واجتماعيًّا وعلميًّا يصف العمليات والتطورات على أرض الواقع، بل نظرنا إليها على ما هي عليه في واقع الأمر؛ أي تغليف خطابي لهذه العمليات بغلاف جغرافي وتاريخي ملائم ولامع، مصمَّم ليكون (كما هو الحال مع أي منتج) جذابًا لأكبر سوق ممكنة من واضعي السياسات والحكومات. لقد كان من المفترض دائمًا أن تأخذ العولمة شكل حس عام لا يمكن مناقشته، ووَصْف صريح للَّحظة المعاصرة والطريقة العامة لسير الأمور، والتي كنا نظن أنه من المستحيل أن نعيد توجيهها أو نغيرها أو نتراجع عنها على نحو جوهري.

إن العولمة ببساطة هي اسم كلِّ ما يحدث في الوقت الحاضر؛ وهو اعتقاد طالما طَعَنَ الباحثون والنشطاء اليساريون عليه، وأصبحوا الآن يطلقون مصطلح «الليبرالية الجديدة» على هذا النمط من فهم العالم والتعامل معه، وهو المصطلح الذي يَلتقط بدقة أكبر الديناميكيةَ الأيديولوجيةَ للمناورة الجيوسياسية على مدى العقود العديدة الأخيرة، كما يعرض الوظيفة الأيديولوجية التي يؤديها مفهوم العولمة. لم تتَّسم العولمة تحت مسمى الليبرالية الجديدة على نحو أساسي بنقل جميع العلاقات إلى مستوًى عالمي، أو بالوجود المتزايد لتقنيات الاتصال في الحياة اليومية، أو بتغيير الوعي البشري أو إدراك الطابع الدولي السائد في الحياة في نهايات القرن العشرين، أو أي تطورات أخرى ترتبط عادة بالعالمية؛ ولكنها تميزت بالمد والنشر الشرسين لقيم السوق في كل

مؤسسة اجتماعية وعمل اجتماعي. وكما تقول ويندي براون، تعني الليبرالية الجديدة أن البشر «مُشكَّلون بالكامل ليكونوا «كائنات اقتصادية»، وأن جميع أبعاد الحياة البشرية مشكَّلة وفق عقلانية السوق.»[1] ويقول سلافوي جيجيك في كتابه «في البداية مأساة، وبعد ذلك مهزلة» إنه: «كان على يوتوبيا فوكوياما في تسعينيات القرن العشرين أن تموت مرتين، بما أن انهيار اليوتوبيا السياسية الليبرالية الديمقراطية في ٩/١١ لم يؤثر على اليوتوبيا الاقتصادية لرأسمالية السوق العالمية؛ وإذا كان الانهيار المالي الذي حدث في عام ٢٠٠٨ له معنًى تاريخي، إذن فهذا علامة على نهاية الجانب الاقتصادي لحلم فوكوياما.»[2] وعلى الرغم من أن البعض كان يأمل في أن الأزمة المالية لعام ٢٠٠٨ كانت ستضع حدًّا للعقلانية السياسية المهيمنة والمحددة للِّيبرالية، فإن الأمور لم تَسْرِ على هذا المنوال. يكفي المرء أن ينظر إلى عدم وجود احتجاجات واسعة النطاق من قِبل المواطنين لمعارضة تصرفات حكوماتهم في دعم النظام المالي، أو القرارات التي اتخذتها، أو بالأحرى لم تتخذها، لمحاولة مواجهة العجز المالي؛ فعلى ما يبدو قد أصبح من المستحيل الآن أكثر من أي وقت مضى أن نزيد الضرائب مجددًا؛ ومن ثم فإن الإجراء الوحيد الذي يمكن اتخاذه هو وقف الخدمات المقدمة أو تقليلها، وأحيانًا يُنفَّذ هذا بشدة. أما ما انتهى بالفعل، فهو الوظيفة الأيديولوجية للعولمة بوصفها تبريرًا وغطاءً لعملية صناعة القرار الحكومي. لم يكن جيجيك هو الوحيد الذي أعلن النهاية التامة للتصور الخيالي الذي يقول بنهاية التاريخ؛ فقد أعلنت شخصيات بحجم روبرت كاجان، الباحث البارز في مؤسسة كارنيجي، والكاتب في صحيفة «واشنطن بوست»، والمسئول بوزارة الخارجية خلال ولاية رونالد ريجان الثانية، (مع إشارة صريحة إلى فوكوياما) أن التاريخ قد «عاد»؛ ومن ثم فقد أصبحنا في حاجة إلى وسيلة جديدة للتفكير في العالم. وفقًا لِكاجان، بعد الحرب الباردة تخيلنا أننا قد وصلنا إلى «نوع جديد من النظام الدولي، تنمو أو تختفي فيه الدول القومية معًا، وتنصهر الصراعات الأيديولوجية، وتختلط الثقافات، ويزداد حجم التجارة الحرة والاتصالات.»[3] ومع ذلك، فاليوم «يتعين على ديمقراطيات العالم أن تبدأ في التفكير في كيفية حماية مصالحها والدفاع عن مبادئها، في عالم تواجه فيه تلك الأشياء مرة أخرى تحديات قوية.»[4]

بعد العولمة يظهر سردٌ جديدٌ للقوة الجيوسياسية؛ أولًا: يواجه هذا السرد نهاية القوة الأمريكية الأحادية نتيجة لصعود دول كبرى أخرى، ولكنه يفعل ذلك بطريقة

تحافظ صراحة وضمنيًّا على الهيمنة الأمريكية على العالم؛ ثانيًا: يهدف هذا السرد إلى جعل العقلانية السياسية للِّيبرالية (الجديدة) طبيعية أكثر، وهي حقيقة يخفيها من خلال تأكيده على التمايز والاختلاف الثقافيَّين العالميَّين واحتفائه بهما. وكما أكدنا من قبل، ستكون هذه اللحظة التالية لحظة مربكة على نحو مدهش، مليئة بالتهديد وعدم اليقين السياسيَّين والفكريَّين، ولكنها حافلة بالوعود السياسية كذلك. وفجأة، يُزاح الستار من جديد وتنكشف العولمة بوضوح صارخ بوصفها مشروعًا للنظام العالمي الجديد الذي يتحدث عنه كاجان، فلم يَعُد يتم التعتيم عليها من خلال وظيفتها الظاهرة باعتبارها مصطلحًا يعبر عن فترةٍ ما أو وصفًا لظاهرة اجتماعية. والآن بما أننا نستطيع، وبثقة، أن نطلق على العولمة (على سبيل المثال) الليبرالية الجديدة، بوصفها جانبًا من جوانب النظام الاجتماعي المسمى بالرأسمالية، فربما كنا نأمل أو نتوقع أن يبدو بعض بريق الطابع العالمي باهتًا وكئيبًا: أن يحدث أي شيء غير المستقبل، الحاضر المشرق الواعد الذي كنا نتصوره ونحلم به. ولكن، يبدو أن الحال لم يَسِرْ على هذا المنوال، أو على الأقل، لن يكون كذلك بالتأكيد بالنسبة إلى من يرغبون في مواصلة الدعوة إلى مشروع اجتماعي وسياسي معين يثقون بأنه سيكون الحل لجميع مشاكل العالم، تمامًا كما هو الحال دائمًا.

في هذا الفصل، سننظر في عدة تحليلات للعولمة عُرضت في أعمال كُتاب مشاهير ارتبطت أسماؤهم بها ولعبوا دورًا في تشكيل فَهْمنا لها. هؤلاء الكتاب بعيدون قليلًا عن النقاش والجدال الأكاديميَّين حول العولمة، على الرغم من أن اثنين منهم، وهما ريتشارد فلوريدا وَبول كروجمان، يشغلان مناصب أكاديمية، كما تنشر ناعومي كلاين مقالات في دوريات أكاديمية. إن اتجاه الأكاديميِّين عند التعامل مع الأعمال المكتوبة عن العولمة هو استخدام مقالات وتعليقات الكُتاب موضع الاهتمام، ولكن بنحو أساسي بوصفها وسيلة للإشارة لحدود ومشكلات وجهات النظر التي عبَّر عنها مثل هؤلاء الكتَّاب. أما ما لم يفعله الأكاديميون، فهو الفحص الجدي للمواقف التي يتبناها هؤلاء الكتَّاب المعروفون، سواء لتقييم مزاياها وعيوبها، أو لرسم علاقتها بما كنا نصفه بالحس العام لعصر العولمة، بما في ذلك الحس العام للعولمة نفسها. سيكون نهجنا نقديًّا إزاء أعمال المؤلفين موضع البحث في هذا الفصل؛ وهم ريتشارد فلوريدا، وَتوماس فريدمان، وَبول كروجمان، وَناعومي كلاين. ونعتزم محاولة فهم مواقفهم للوصول إلى منطق الحجج التي يؤيدونها وفَهْم السرد الذي يقدمونه للحاضر والمستقبل. يُنتج هؤلاء الكتَّاب أصحاب الكتب الأكثر

بيعًا كتبًا تعليمية صريحة تهدف إلى التنقيب داخل افتراضات الآخرين وتقديم حلول جديدة للمشاكل الملحة التي تم اكتشافها. وفي ضوء المواقف التي أوردناها في الفصل الأول، وخاصة سلسلة الأطروحات التي بصيغة النفي التي وردت في نهايته، فإن هدفنا هو فهم الحس العام للاحتمالات «التقدمية» المتاحة. ويجب أن نؤكد على أن هؤلاء المؤلفين الأربعة لا يُنظر إليهم بصفة عامة بوصفهم من المحافظين الذين يريدون أن يبقى العالم على ما هو عليه، أو الذين ينكرون أن العالم يواجه تحديات كبيرة تحتاج إلى معالجتها (كما أنهم لا يعتبرون أنفسهم كذلك). على العكس من ذلك، يريد هؤلاء الكتَّاب، بدرجات متفاوتة (وفي الواقع، أحيانًا بنحو يعارض فيه بعضهم بعضًا)، أن يساعدونا على تجاوز الحدود التي نواجهها حاليًّا. ونأمل، من خلال تقييم تأطيرهم لمشكلات وإمكانيات الحاضر أن نتبين أن هناك شيئًا ما مفقودًا؛ فهناك شيء ما مفقود في طريقة تكويننا لإحساسنا بالحاضر وما ينتظرنا في المستقبل.

إن الكُتَّاب الذين سنفحص أعمالهم، وكذا الفيلم الذي سنختتم به، يتَّسمون جميعًا، بدرجة أو بأخرى، بالليبرالية. في أعقاب الليبرالية الجديدة للعولمة، يرغب الجميع في الدعوة إلى عودة روح اجتماعية مختلفة، تلك التي حلت محلها العولمة، والتي يمكنها أن تعمل الآن في الفضاء الجديد للقرن الحادي والعشرين على المستوى العالمي بدلًا من المستوى القومي فقط. وبينما ركز المحافظون (أي الليبراليون الجدد) على جزء واحد من المعادلة السياسية في الوقت الحاضر — الجزء «الرأسمالي» للرأسمالية الليبرالية الديمقراطية — يريد هؤلاء الكتَّاب إحياء واستعادة الجزء الديمقراطي الليبرالي باعتباره وسيلة للتفكير في فرص العالم بعد الممارسات الاقتصادية الوحشية التي أصبحت ترتبط بالعولمة. وعلى الرغم من ذلك، فإن إحياء ليبرالية تحمل طموحات عالمية يجب أن يأخذ في الاعتبار تحول العالم بسبب مبادئ الليبرالية الجديدة، أو على الأقل «ينبغي» أن يضع هذا في الحسبان. في كثير من الأحيان، يلقي هؤلاء الكتَّاب نظرة إلى الوراء إلى الطبقة الوسطى للمجتمع الأمريكي في فترةٍ ما بعد الحرب العالمية الثانية بوصفها مصدرًا لإلهام للعالم الذي يرغبون في استحضاره إلى حيز الوجود؛ فالسنوات المتخللة تبدو ببساطة مثل تاريخ خرج عن المسار، أو خطأ لم يتسبب في وجود أي شيء جديد اجتماعيًّا أو سياسيًّا، ومن الأفضل أن ننساه. إلا أن هذه خطوة إشكالية، وذلك على أقل تقدير. يتمثل أحد التطورات العديدة التي وقعت، والتي تسمح باحتمالية أن تكون الليبرالية خَلَفًا للِّيبرالية الجديدة في أن العالم بعد العولمة أصبح يُنظر إليه بوصفه

«أمريكيًّا» أكثر فأكثر. إن النمط الأمريكي من الليبرالية هو الذي يتردد صداه في أعمال هؤلاء الكتَّاب، هذه السياسة التي تؤكد على أهمية الرأسمالية حتى وهي تنتقدها من خلال الحجج التي تنادي بضرورة وجود دولة قوية للتعامل مع نتائجها الاجتماعية وتحسينها. ويعيد التاريخ نفسه: بالنسبة إلى هؤلاء الكتَّاب، تمامًا مثلما أدت تجاوزات العصر المُذهب الأول في الولايات المتحدة الأمريكية إلى التوصل للصفقة الجديدة بعد الكساد العظيم، قدَّم الانهيار الاقتصادي في عام ٢٠٠٨، بالإضافة إلى التجربة الحافلة للعولمة خلال العقدين الماضيين، إمكانية التوصل لصفقة جديدة أخرى. وتتكرر الأحداث الدرامية التي شهدتها الولايات المتحدة الأمريكية في بداية القرن العشرين على نطاق عالمي في بداية القرن الحادي والعشرين، وإذا كان الكساد الذي وقع في وقت سابق يقدم دروسًا للعالم كله، فيعود السبب وراء ذلك إلى أن هناك ادعاءً الآن بأننا جميعًا أمريكيون.

ما الذي يمكن أن نعنيه بهذا؟ هذا الشعور الذي تلا العولمة، والذي يفيد بأن العالم قد أصبح أمريكيًّا، يعبر عنه بصورة مباشرة ودون اعتذار فريد زكريا في كتاب يبدو عنوانه موحيًا بعكس ما ندَّعيه هنا. كان زكريا هو مدير التحرير السابق لمجلة «فورين أفيرز»، ورئيس التحرير الحالي لمجلة «نيوزويك إنترناشونال»، وقد لعب كتابه «عالم ما بعد أمريكا» دورًا رئيسيًّا في المناقشات العامة لما سيحدث فيما بعد العولمة. بالنسبة إلى زكريا، «ما بعد أمريكا» ليس مصطلحًا تَشكَّل في إطار آمال سياسية أو أيديولوجية، ولكنه مهم من الناحية التحليلية: «من المرجح أن نحيا في النظام الدولي الهجين، وهو نظام أكثر ديمقراطية وأكثر ديناميكية وأكثر انفتاحًا وأكثر ترابطًا، لعدة عقود. ومن الأسهل علينا أن نحدد ما ليس فيه من صفات، عما هو عليه، وكذا من الأسهل وصف الحقبة التي هو آخذ في الابتعاد عنها عن وصف الحقبة التي يتحرك نحوها؛ ومن هنا جاء ما أسميه «عالم ما بعد أمريكا».»[5]

بعد مقدمة وفصل يشيد بالنجاحات الاقتصادية والسياسية لحقبة العولمة، يخصص زكريا الفصل الثالث الطويل (بعنوان «عالم غير غربي؟») لتناول التغريب، والحداثة، والأمركة. وقد كتب يقول: «إن العالم يتحول من الغضب إلى اللامبالاة، من معاداة أمريكا إلى ما بعد أمريكا.»[6] لقد حدث تغيير جعل العالم غير مبالٍ بالتغريب، ويعود ذلك جزئيًّا إلى نجاح الأنماط الغربية في الحياة والسلوك. ويضيف زكريا في كتابه قائلًا: «لقد كان هناك إكراه وراء انتشار الأفكار الغربية، لكن كان هناك أيضًا العديد من غير الغربيين

الحريصين على تعلم طرق الغرب. وكان السبب وراء ذلك بسيطًا؛ هم يريدون النجاح، ويميل الناس دائمًا لتقليد نموذج من استطاعوا النجاح.»[7] ويعود زكريا إلى التاريخ لتقديم أمثلة عديدة على هؤلاء: بطرس الأكبر، وكمال أتاتورك، فوكوزاوا يوكيتشي (مُنظِّر إصلاح ميجي)، والهندي جواهر لال نهرو، والرئيس المصري جمال عبد الناصر. إذا كان هذا الأخير كانت لديه خلافات ونزاعات مع الغرب، فيذكرنا زكريا بأن الماركسيين في العالم النامي أيضًا «كانوا ببساطة ينهلون من التقاليد الراديكالية للغرب.» لقد أصبح العالم حديثًا بالفعل، وأضحى في واقع الأمر غربيًّا: «إذا سرت في شارع في أي مكان من العالم الصناعي اليوم، فسترى تنويعات من نفس الموضوعات؛ ماكينات الصرف الآلي الخاصة بالبنوك، والمقاهي، ومحلات الملابس بتخفيضاتها الموسمية، والجاليات المهاجرة، والموسيقى والثقافة الشعبية.»[8] إن هذا لا يدعو للقلق، بل إنه بالأحرى سبب للاحتفال. إذا كانت التقاليد تتآكل في جميع أنحاء العالم، يعود السبب وراء ذلك لما يلي:

> صعود العامة، مدفوعين بالرأسمالية والديمقراطية. وكثيرًا ما يرتبط هذا بالتغريب لأن ما يحل محل القديم — الثقافة السائدة الجديدة — يبدو غربيًّا، وتحديدًا أمريكيًّا. لقد أصبح ماكدونالدز والبناطيل الجينز الزرقاء وموسيقى الروك أمورًا عالمية، وما فتئوا يزاحمون أنماط الطعام والملبس والغناء القديمة والأكثر تميزًا. إلا أن القضية هنا تتعلق بمخاطبة جمهور أكبر كثيرًا من النخبة الصغيرة التي درجت على تحديد أعراف البلد. تبدو القصة أمريكية لأن أمريكا، البلد الذي ابتكر النزعة الاستهلاكية والرأسمالية الجماعية، بدأت هذه النزعة أولًا. لقد أصبح تأثير الرأسمالية الجماعية الآن عالميًّا.[9]

لقد برزت الحداثة أو التغريب بوصفها جزءًا من تطور تاريخي له درجة معينة من الحتمية. وفي الفصل الختامي من كتاب زكريا (بعنوان «الغرض الأمريكي»)، من الواضح أنه يرى أن هذه التطورات مفيدة للولايات المتحدة الأمريكية: «يسير العالم على نهج أمريكا؛ فالدول تصبح أكثر انفتاحًا، وديمقراطية، وإتاحة لحرية التجارة. وما دمنا نحافظ على نمو قوى الحداثة، والتفاعل العالمي، والتجارة، فسوف يسير كلٌّ من الحكم الرشيد، وحقوق الإنسان، والديمقراطية قدمًا للأمام.»[10] وسواء ظلت الولايات المتحدة هي القوة العالمية الوحيدة، أو استمر نصيبها من الناتج المحلي الإجمالي العالمي

في الانخفاض أم لا، فهي الرابحة بالفعل؛ لأن القيم والمبادئ المنظمة للكوكب هي ذاتها القيم والمبادئ الخاصة بها.

حتى لا تعتقد أن هذه الطريقة في تأطير الأمور هي رؤية تتعلق بزكريا وحده، فلنلقِ نظرة على مجموعة مماثلة من المزاعم في كتاب كاجان «عودة التاريخ»:

> لقد تبنَّت جميع الدول الغنية والقوية في العالم، بدرجةٍ ما، الجوانبَ الاقتصادية والتكنولوجية، بل وحتى الاجتماعية، للحداثة والعولمة. وقد تبنَّت جميعها، لكن بدرجات متفاوتة من الشكوى والمقاومة؛ التدفق الحر للسلع، والتمويلات، والخدمات، واختلاط الثقافات وأنماط الحياة، وهي السمات التي تميز العالم المعاصر. وتزايدت مشاهدة الشعوب للبرامج التليفزيونية نفسها، والاستماع إلى الموسيقى نفسها، والذهاب لمشاهدة الأفلام نفسها. وإلى جانب هذه الثقافة الحديثة السائدة، تقبلت الشعوب، حتى مع أنها قد تبدي تأسفها على ذلك، الخصائصَ الأساسيةَ للأخلاق والجماليات الحديثة. تعني الحداثة، من بين أمور أخرى، التحرر الجنسي، إلى جانب السياسي والاقتصادي للمرأة، وضعف سلطة الكنيسة وتعزيز وجود ما اصطُلح على تسميته بالثقافة المضادة، وحرية التعبير في الفنون (إن لم يكن في السياسة) التي تشمل حرية الكفر والسخرية من الرموز الدينية، والسلطة، والأخلاق. هذه هي النتائج المترتبة على تبني الليبرالية والرأسمالية دون أن يردعها أو يقيدها تقليد، أو كنيسة قوية، أو حكومة أخلاقية ومهيمنة.[11]

لا يجد زكريا أي مشكلة مع اتخاذ الحداثة أشكالًا ثقافية مختلفة؛ أي إذا كانت الثقافة هنا تعني أنواع الملابس التي يمكن للمرء أن يرتديها في العمل، أو الطعام الذي يتناوله، أو القصص التي يقرؤها. ويشجع كاجان كذلك الثقافات المضادة وأشكال التعبير الفني الحر؛ فكلاهما متقبل للاختلاف، بل ويشجعه، ما دام هناك قبول لِحِس عام أو عقلانية اجتماعية أكثر تأسيسًا، ومن دون تعليق: فلم يتم انتقاد الرأسمالية أو الديمقراطية الليبرالية «على الإطلاق» في أي موضع، أو تناول طبيعة العمل، أو التفكير في مستويات عدم المساواة الاقتصادية والمعاناة الاجتماعية. ولكن مجددًا، لن يساعد استكشاف مثل هذه المسائل على تبرير استمرار سلطة الولايات المتحدة الأمريكية، التي تتأكد على مستوًى عميق من خلال حقيقة أنه لم تَعُد هناك أي حاجة للصراع من أجل

الموافقة على عقلانية اجتماعية أساسية أصبحت الآن عالمية؛ وما اصطلحا على تسميته بـ «الحداثة» في تعريف غير صحيح (وإن لم يكن متعمدًا) لهذه العملية التاريخية المعقدة لما يظهر هنا: المنطق الثقافي للِّيبرالية الجديدة، الذي يختفي خلفه تكثيف لعقلانية السوق المشار إليها آنفًا من قِبل ويندي براون.

لقد انتهت العولمة بوصفها تمثيلًا للهيمنة الأمريكية على العالم فيما بعد الحرب الباردة، إلا أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تزال تحتفظ بمكانتها الرائدة في العالم، بفضل حقيقة أن الكوكب قد أعيد صياغته في صورتها، دون تحديد أي عواقب لذلك. ويحمل سرد كلٍّ من زكريا وَكاجان ملامح الشكل الخطابي الذي أَسْمَتْه ساريكا شاندرا، من منطلق إدراكها، «اللامحلية».[12] بالنسبة إلى شاندرا، يبدو أن اللامحلية تحاول الامتداد إلى العالم، ولكن بوصفها وسيلة لترويض العالم فحسب بغية تحويله إلى مكان آمن لتنفيذ مشروعات وأيديولوجية أمريكية. إن اللامحلية «هي» الأمركة متنكرة في زي العولمة؛ أي التفكيك الظاهري للافتراضات والأيديولوجيات القومية بما يؤدي في الواقع إلى امتداد السطوة الأمريكية بقوة، أو على الأقل توفير إمكانية تحقيق هذا الامتداد، على نطاق عالمي. وحتى مع تحدِّي هذه السلطة على مستويات متعددة — سياسية واجتماعية واقتصادية — فهي لا تواجه تحديًا على المستوى الثقافي؛ مما يعني أن النخب في الولايات المتحدة الأمريكية تجد عالمًا منفتحًا أمامهم، وأن سائر النخب قد «أصبحت صورة» منهم، على الرغم من وجودهم ماديًّا في دول وبين شعوب أخرى.

في تحليلها لظاهرة اللامحلية، تنظر شاندرا إلى الاستخدام المدهش للنظرية الثقافية والخيال الأدبي في نظرية الإدارة المعاصرة، والانفتاح الواضح للدراسات الأمريكية على تكوينِ ما بعد القومية المؤطَّر مع ذلك حول الأمركة، وإن كان ذلك بنحو خفي، والديناميكيات السياسية المستمرة لأدب الرحلات بعد انتهاء السفر بوصفه مجالًا لملاقاة كل ما هو جديد وغريب (بالرغم مما يحتويه ذلك من إشكاليات)، والأشكال الجديدة من السياحة التي تنظم حول ثقافات الغذاء، وهي البقية الباقية من الاختلاف التي تتحرك بنحو رائع في وضع عالمي من التميز والذوق البرجوازي. في كل حالة من الحالات السابقة، هناك محاولة غير مكتملة أو مشبوهة لإبعاد الهوية القومية في محاولة لإظهار التعقد النظري أو الملاءمة المعاصرة؛ لنأخذ على سبيل المثال الصراع الذي دام لعقد لتستطيع الدراسات الأمريكية أن تقدم نظريات أو موضوعات عالمية، وفي الوقت نفسه تستمر في التركيز بثبات على كل ما هو أمريكي. هناك شيء مختلف قليلًا في أعمال

مثل عمل زكريا. وما يحدث على مستوى عالمي يؤكد قوة الأيديولوجية القومية، ليس هذا وحسب، بل ويكشف أن المسرح العالمي مساحة آمنة أيديولوجيًّا حتى فيما بعد العولمة؛ أي مستوًى مناسب حيث يمكن إنشاء سرد يستطيع أن يكتب بثقة نهاية سلطة الولايات المتحدة الأمريكية، حتى أثناء تأكيده على استمرار مكانتها ووظيفتها. أما فيما بعد العولمة، فلن يتغير أي شيء؛ لأن العالم قد تغير بالفعل من خلال العولمة؛ مما يعني أن أي عمل يهدف إلى إرشاد الولايات المتحدة الأمريكية لما يجب عليها القيام به في عالمِ ما بعد أمريكا ينتهي به الأمر إلى إخبارها بما هي تفعله بالفعل.

من الناحيتين الأيديولوجية والسياسية، يرى المؤلفون الذين سنتناول أعمالهم بالتحليل فيما يلي أنهم يتخذون موقفًا مخالفًا للغاية لموقف زكريا، وبالتأكيد مختلفًا عن موقف كاجان. أما أوجه الشبه بينهم فهي أن ليبراليتهم تعمل أيضًا في عالمِ ما بعد أمريكا الذي يُقدَّم على أنه آمن بالنسبة إلى أمريكا وأفكارها حتى فيما بعد العولمة. وهذا يوضح سبب ثقتهم التي يروجون من خلالها لقيم الديمقراطية الليبرالية في مقابل الليبرالية الجديدة، والتي دعوا من خلالها لأفكار أقدم متعلقة بالرأسمالية الديمقراطية الليبرالية لرسم خريطة المستقبل. وعلى الرغم من ذلك، يبدو العالم بالفعل أقل ثقةً ويقينًا. تتبعُ التحليلاتُ التي سنعرضها أدناه حدود الليبرالية فيما بعد العولمة، وهي حدود شكل من أشكال الحس العام الذي يرفض حتى في أكثر حالاته تطرفًا (نشير هنا إلى أعمال ناعومي كلاين) التخلي عن الرأسمالية، مهما كانت المشاكل والصدمات التي يتسبب فيها.

(٢) الليبراليون الجدد يتَّشحون بالسواد: ريتشارد فلوريدا[13]

في المجتمع الشيوعي، حيث لا يمتلك أي شخص مساحة حصرية للنشاط، ولكنه يمكن أن يصبح بارعًا في أي مجال يرغب في العمل به، ينظِّم المجتمع الإنتاج العام؛ ومن ثَمَّ يسمح لي بأداء شيء اليوم وغيره في اليوم التالي؛ فيمكنني صيد الحيوانات في الصباح، وصيد الأسماك بعد الظهر، ورعي الماشية في المساء، والانتقاد بعد العشاء، كما أرغب تمامًا، دون أن أصبح صيادًا للحيوانات، أو صياد سمك، أو راعي ماشية، أو ناقدًا.

كارل ماركس، «الأيديولوجية الألمانية»[14]

من الصعب أن نفرق بين أستاذ يحتسي الإسبريسو ومصرفي يرتشف الكابتشينو.

ديفيد بروكس، «بوبوس في الجنة»[15]

مع نشر كتاب «صعود الطبقة المبدعة» في عام ٢٠٠٢، أصبح ريتشارد فلوريدا على الفور تقريبًا من الشخصيات المؤثرة في مجموعة من المجالات والتخصصات. كان ريتشارد أكاديميًّا، وشكلت أفكاره على مدى العقد الماضي المناقشات الخاصة بالشئون الجارية والقرارات التي يتخذها رجال الأعمال والحكومة. وعلى الرغم من أنه لم يبتكر مصطلح «الطبقة المبدعة»، فإن تحليله ووصفه الدقيقين لخصائص ووظيفة ما يراه بوصفه المجموعة الاجتماعية والاقتصادية المهيمنة حديثًا، كفل له أن يشار إليه باعتباره من مؤسسيها، والمتحدث الرسمي باسمها. ظل فلوريدا مدافعًا ومؤيدًا قويًّا للطبقة المبدعة والمفاهيم المتصلة بها (المدن المبدعة والاقتصادات المبدعة) عبر سلسلة من الكتب المتتابعة التي تجيب عن الانتقادات بشأنها، وتقدم المزيد من التوضيح للأفكار الأساسية التي ذكرها في كتابه السابق الإشارة إليه.[16] ومع ذلك، يظل كتابه الأول هو الأهم؛ من حيث صياغة المفاهيم والأفكار التي يواصل تقديمها، والاهتمام والنقد اللذين ولَّدهما، وتأثيره الدائم على اللغة التي وضعت إطار قرارات التخطيط الاقتصادي والحضري المعاصر.

في كندا (وطنه الجديد)، حصلت أفكار فلوريدا على ثناء أكثر مما تعرضت له من انتقاد، والمزيد من القبول أكثر من الرفض. وقد احتفت وسائل الإعلام المحلية والقومية على حد سواء بتعيينه في عام ٢٠٠٧ أستاذًا للأعمال والإبداع بكلية روتمان للإدارة بجامعة تورونتو، ومديرًا أكاديميًّا لمعهد الرخاء الذي كان قد أنشئ حينها حديثًا. كان هذا نموذجًا لهجرة الطبقة المبدعة التي كان فلوريدا نفسه يكتب عنها، مع إضافة أن انتقاله من مدينة واشنطن إلى تورونتو بدا تأكيدًا على الأهمية المتزايدة للأخيرة بوصفها مدينة مبدعة. وحتى قبل وصوله فعليًّا إلى تورونتو، اهتمت بشدة حكومات المدن في كندا بمسألة المدن المبدعة؛ حيث كانت شغوفة بوضع تصور للتخطيط الحضري يتناسب مع تحديات وتوقعات عصر الليبرالية الجديدة. إذا كانت منظمات مثل شبكة مدن كندا المبدعة أو سلسلة مؤتمرات الأماكن والمواقع المبدعة، التي نظمتها المجموعة غير الهادفة للربح آرت سكيب، تَشِي بأي شيء، فهو أن فكرة أن الإبداع ضروري لتحقيق النمو الاقتصادي قد أصبحت مفهومًا مترسخًا لدى الحكومات الحضرية في جميع أنحاء كندا؛

في المدن الكبرى مثل فانكوفر ومونتريال، وكذا في الأماكن الأصغر، من مونكتون وحتى موس جو.[17] وفي محاولة لتكوين محيط حضري جاذب لأعضاء الطبقة المبدعة، سعت الحكومات المحلية والإقليمية والقومية في جميع أنحاء العالم إلى إنشاء برامج جديدة لدعم وتشجيع الثقافة. وبدلًا من أن يكون قطاع الفنون والثقافة عبئًا على الاقتصاد، أصبح الآن بمنزلة هبة محتملة للربح المالي، وجزءًا من أجزاء الاقتصاد يجب الاستثمار فيه.[18]

هل هناك خطأ في هذا الاهتمام بالأثر الاقتصادي للإبداع؟ حتى لو من الناحية الاستراتيجية فحسب — هذا التركيز على النتائج بدلًا من المفاهيم، والحجج، والنظريات التي يستخدمها فلوريدا وغيره للدعوة إلى الإبداع اليوم — ألا يمثل هذا التطور وضعًا مثمرًا وإيجابيًّا للفنون والثقافة، هذه المجالات التي نتوقع ونأمل أن تجد طرقًا جديدة للتخيل والتفكير والاعتقاد؟ إذا كانت لغة المدن المبدعة والطبقة المبدعة تولد المزيد من الأموال للمتاحف وتزيد المنح المقدمة للفنانين والعاملين في الحقل الثقافي، وتوسع رعاية الحكومة للمهرجانات، وما إلى ذلك؛ فما الذي يمكن أن يكون خطأً في ذلك؟ وهل هناك أي علاقة بين هذا وبين دراما العولمة وما بعدها التي نناقشها هنا؟

نود أن نشير إلى أن إعادة تعريف الفنون باعتبارها «واحدة من عديد» الممارسات الإبداعية التي تشكل اقتصاد القرن الحادي والعشرين تعد مشكلة. يمثل التوسع في الحديث عن الإبداع في الاقتصاد ككل خسارة في كيفية فهم سياسة الفن، وهو التحول من ممارسة تحظى بدرجة معينة من الاستقلال (وإن كانت مشكوكًا فيها وإشكالية على المستوى النظري) إلى ممارسة لا تمتلك أيًّا من هذا. وربما أهم من ذلك، أنه يشكل إعادة تصور أساسي لعمليات العمل في ظل الرأسمالية العالمية التي تنحِّي جانبًا المخاوف المتعلقة بالتعهيد الخارجي، واستغلال عمالة المصانع، وتقليص العمالة، وسائر المخاوف.

فيما يلي، نقدم تحليلًا مفصلًا لكتاب «صعود الطبقة المبدعة» لفلوريدا لإظهارِ ما يفعله خطاب «الإبداع» في فهمه للعولمة. هناك الآن العديد من الانتقادات الموجهة لأفكار فلوريدا، خاصة من قِبل الاقتصاديين والجغرافيين الحضريين الذين يشككون في مزاعمه حول طبيعة الطبقة المبدعة والمساحات التي تشغلها. لكن ما لم يُعالَج بنحو مباشر هو فكرة الإبداع الذي يتوقف عليه كل شيء، وهو المفهوم الذي يُستدعى على نحو متزايد من أجل إنجاز أعمال مفاهيمية وسياسية مهمة من الجانبين؛ اليمين واليسار. وللفهم الكامل للآثار المترتبة على طريقة فلوريدا في وضع مفاهيم الإبداع — وهي فكرة الإبداع

الذي يلوح بأن يتحول إلى حس عام، هذا إن لم يكن قد أصبح كذلك بالفعل — من المهم فحص مزاعمه ببعض التفصيل.

كما هو متوقع من عمل معاصر، شعبي، غير روائي يتناول قضايا اجتماعية، كان الوعد الأساسي وموطن الجاذبية في كتاب «صعود الطبقة المبدعة» لريتشارد فلوريدا هو تقديم ظاهرة اجتماعية جديدة كشف عنها المؤلف؛ وتَبْرز أهمية هذه الظاهرة لكونها ضرورية لفهم طبيعة المجتمع العالمي المعاصر، فضلًا عن مستقبله القادم. يأخذ خطاب الكتاب شكل حكاية المستكشف؛ السرد اللاهث لاكتشاف نقلة نوعية تعيد ترتيب إدراكنا لعمليات العالم الاجتماعي. يسعى فلوريدا إلى إقناعنا بأن الطبقة المبدعة هي المسئولة في المقام الأول عن الشق الأكبر من التطور الاقتصادي، وأن تأثيرها على الاقتصاد وأهميتها بالنسبة إليه سوف يتزايدان في العقود المقبلة. إن التركيز على طبقة معينة فيما يتعلق بوظيفتها الاقتصادية أمر مهم. وعلى الرغم من أن فلوريدا يفترض أنه يقدم تحليلًا واسع النطاق للمجتمع المعاصر — حيث نصَّب نفسه وريثًا لعمل علماء اجتماع من أمثال ويليام إتش وايت، وَسي رايت ميلز، وَجين جاكوبس — فإن الكتاب بالأساس يبقى كتابًا عن إدارة العمالة. في سياق تنوع التغيرات والتطورات الاجتماعية، وخاصة المجتمع التكنولوجي المنتظر، يحلل الكتاب خصائص الطبقة المبدعة، ودوافع أعضائها، ومتعهم، وعاداتهم، وميولهم، وأهدافهم، وما يحبونه، وما يكرهونه؛ بغية منح الشركات الأدوات المفاهيمية اللازمة لحصد ثمار إبداعهم. ويهدف الكتاب كذلك إلى تقديم المشورة الاقتصادية لمجالس المدن ومخططي الحضر (وليس لحكومات الولايات أو الحكومات القومية، بالنسبة إلى فلوريدا؛ فكما هو الحال عند ساسكيا ساسين، تُعد المدينة هي الوحدة الأساسية للفترة المعاصرة).[19] ويوضح فلوريدا تمامًا أن تغيير بيئة عمل الطبقة المبدعة ليس كافيًا. فيمكن الاستفادة الكاملة من طاقات الطبقة المبدعة فقط في البيئات الحضرية؛ حيث تجد هذه الفئة الوضع مشجعًا لها على الحياة. ويقدم الكتاب إرشادات لصفة وطبيعة المقومات الثقافية والخصائص الحضرية التي توفر الظروف الملائمة للإبداع الذي أصبح غاية في الأهمية للاقتصاد اليوم.

تلقَّى هذا الجانب من الكتاب معظم النقد والاهتمام الإعلامي الموجه لفلوريدا. يقدم الجزء الرابع الطويل من الكتاب الذي بعنوان «المجتمع»، سردًا لما يشكِّل «المراكز الإبداعية»، ونظرة عامة على مختلف الإجراءات الإحصائية التي استخدمها فلوريدا وزملاؤه لرسم الخريطة الجغرافيا الحضرية الجديدة للطبقات في الولايات المتحدة

الأمريكية. ويستكشف فلوريدا منطق الفجوة المتنامية بين المدن التي تضم أعدادًا كبيرة من المنتمين للطبقة المبدعة، وتلك التي لا تمتلك مثل هذه الأعداد؛ ويرتبط هذا التقسيم مباشرة بالوضع المالي الحالي للمدن موضع البحث. إن السؤال الرئيسي الذي ينظم دراسة فلوريدا للاقتصاد في المناطق الحضرية هو سبب اختيار أعضاء الطبقة المبدعة العيشَ في بعض المدن أكثر من غيرها. إن توضيح الخصائص التي تجعل المدن التي تأتي على رأس قائمة المدن المبدعة — ألا وهي سان فرانسيسكو، وَأوستن، وَسياتل، وَبوسطن — جذابة للغاية بالنسبة إلى الطبقة المبدعة، يهدف إلى مساعدة المدن التي تقع في أسفل تلك القائمة — وهي ممفيس، وَنورفولك، وَبافلو، وَلويزفيل — على تطوير برامج وسياسات تهدف إلى تحسين اقتصاداتها.

يمكن للمرء أن يفهم سبب توجيه الانتقادات فيما يتعلق بهذه النقطة؛ أولًا: تستخدم وسائل الإعلام المحلية كتاب فلوريدا إما للتدليل على مكانة مدنهم وإما للتشكيك فيها (هل بافلو أو ممفيس أماكن رهيبة حقًّا لا يمكن العيش بها؟ هل يمكن لمثل هذه الأماكن أن تصبح جذابة لمهندسي البرمجيات والمستثمرين؟) ثانيًا: هناك اعتراضات على صحة وجدوى المؤشرات الجديدة التي استخدمها فلوريدا للوصول إلى تصنيفاته؛ فبالإضافة إلى بعض المؤشرات مثل الابتكار (الذي يقاس بنسبة براءات الاختراع للفرد الواحد) والترتيب فيما يتعلق بالتكنولوجيا المتقدمة (الذي يحدد من خلال المؤشر التقني لمعهد ميلكن)، استخدم فلوريدا أيضًا مقياسين مثيرين للجدل أكثر: مؤشر المثليين، ومؤشر البوهيميين. لقد تسببت الأبعاد السياسية التي استشعر العديدون أنها مخفية في هذين المقياسين في إثارة الجدل. بالنسبة إلى فلوريدا، يشير مؤشر المثليين — أي عدد المثليين في مدينةٍ أو منطقةٍ ما — إلى مدى التسامح بين سكان المنطقة، في حين أن مؤشر البوهيميين — أي «عدد الكتَّاب والمصممين والموسيقيين والممثلين والمخرجين والرسامين والنحاتين والمصورين والراقصين»[20] — يحدد المقومات الثقافية في المنطقة، وتجدر الإشارة إلى أن السيمفونيات وقاعات الحفلات الموسيقية لم تكن تحظى بنفس الاهتمام (هناك مؤشرات أخرى لها) الذي تحظى به الجوانب الأكثر تطورًا التي تمثل الأجواء المميزة للمنطقة. ما علاقة هذه العوامل بالاقتصادات الحضرية؟ يدعي فلوريدا أن «الفنانين، والموسيقيين، والمثليين، وأعضاء الطبقة المبدعة بنحو عام يفضلون الأماكن المنفتحة والمشجعة على التنوع.»[21] ويشير فلوريدا إلى وجود ارتباط قوي بين هذه المؤشرات المختلفة، وعدد سكان الطبقة المبدعة في منطقةٍ ما، ونجاح الاقتصاد. ولأسباب سنوضحها خلال لحظات، هناك

اعتقاد بأن أعضاء الطبقة المبدعة يقدرون نمط الحياة، والتفاعل الاجتماعي، والتنوع، والأصالة، والهوية. لم تكن المدن تحب أن تُعتبر غير لطيفة (ممفيس، وديترويت) أو متعصبة (سانت لويس، وممفيس المسكينة أيضًا)؛ بالإضافة إلى ذلك، أدى تصنيف المدن المبدعة في مقابل المدن غير المبدعة على المستوى الحزبي، حيث تميل المدن المبدعة إلى أن تكون زرقاء (أي تابعة للحزب الديمقراطي)، فيما تبدو المدن غير المبدعة حمراء (أي تابعة للحزب الجمهوري)؛ إلى تشكك الكثيرين من اليمين السياسي في الولايات المتحدة الأمريكية في النوايا الحقيقية لدراسة فلوريدا.

لقد ولَّدت الادعاءات والحجج المقدمة في الجزء الأخير من كتاب فلوريدا حول العلاقة بين المدن والإبداع عددًا من الانتقادات؛ فيما لم تُثِر الأجزاء الأولى الأكثر موضوعية انتقادات كثيرة. تقدم الأجزاء الثلاثة الأولى، «عصر الإبداع» و«العمل» و«الحياة والترفيه»، دراسة مفصلة لطبيعة الطبقة المبدعة. بعبارة أخرى، يعرف الكاتب في هذه الأجزاء ما يجعل هذه الطبقة تحصل على تصنيف طبقة من الأساس. وكما قد يشير تفضيل التسامح والتنوع والانفتاح على الأفكار الذي ذُكر آنفًا، فإن هذه الفئة ليست طبقة بأي معنًى موضوعيٍّ من معاني المصطلح، سواء فيما يتعلق بالاقتصاد الكلاسيكي (تقسيم العالم إلى أربعة أو خمسة أجزاء استنادًا إلى الدخل) أو بالمعنى الماركسي من حيث من يبيعون عملهم في مقابل من يشترونه. تُعامل الطبقة المبدعة بادئ ذي بدء بوصفها طبقة اقتصادية؛ إلا أنها طبقة اقتصادية قد جُمعت معًا ليس من خلال وظائف أعضائها فحسب، ولكن لأنهم يتبنون نمط حياة مشترك؛ فلسفة في الحياة تتجاوز وتربط معًا الأنماط المختلفة للعمل، والترفيه، وتحقيق الذات، والسلع الاجتماعية. إذا كان للمرء أن يصف هذا النمط من الوجود في كلمة واحدة، فهي تلك الصفة التي يصف بها فلوريدا هذه الطبقة؛ ألا وهي: المبدعة. ولذلك يمكن أن نتوقع وجود تعريف واضح، أو حتى محاولة للوصول إلى تعريف، مع الوضع في الاعتبار أن المعاني الاجتماعية للمصطلح فضفاضة وغير واضحة للغاية؛ حيث يمكن أن يبدو هذا التعريف في بعض الأحيان تفضيليًّا فارغًا: فإطلاق صفة الإبداع على شيءٍ ما لا يزيد عن كونه موافقة أو ثناءً عليه. أما ما يثير الذهول، فهو أنه لم يتم تحديد أي تعريف له. ومع ذلك، فهناك أهمية ووظيفة أساسية لكلمتَي «مبدعة» (الصفة)، و«الإبداع» (الاسم) الذي يبرز في كتاب فلوريدا. لإدراك ما يقوم به مفهوم الإبداع لفهم العالم الاجتماعي، وكذلك العمل الذي يقوم به بوجه عام اليوم، على المرء أن ينظر في أهمية التعريفات والارتباطات المتعددة التي يقترحها الكاتب خلال الكتاب.

على الرغم من أن العديد من الأوصاف التي يشير بها فلوريدا إلى الإبداع تبدو وكأنها تدور في نفس النطاق (أي إنها جميعًا تشير إلى نفس الاسم، ونفس الشيء، حتى ولو أنها تفعل ذلك مع وجود بعض الاختلافات الطفيفة)، فإن فحص المزاعم والافتراضات المقدمة في كل حالة أمر ضروري. هناك (على الأقل) «سبعة» أشكال أو أنماط للإبداع محددة في كتاب فلوريدا، وهي كالتالي:

(أ) الإبداع صفة فطرية في العقل أو المخ البشري. و«النزعة الإبداعية هي السمة التي تميزنا بوصفنا بشرًا عن سائر الأنواع الأخرى.»[22] تميِّز هذه السمة الإنسان وتوضح اختلافه كما هو، على الرغم من أنها تُعرَّف كذلك بأنها «قدرة كامنة في كل الناس تقريبًا بدرجات متفاوتة.»[23]

(ب) الإبداع من الخصائص الثقافية أو الاجتماعية و/أو السلع. وكما هو الحال مع الأفراد، يمكن للمجتمعات أن تكون مبدعة بنحو أو بآخر؛ فيمكن أن تنظم بحيث تفضي إلى الإبداع، أو تحدُّ منه، أو تمنعه. ويأتي كتاب فلوريدا بمنزلة تحذير للولايات المتحدة الأمريكية بأن تتوخى الحذر بشأن فقدان ميزتها الإبداعية لصالح دول مثل المملكة المتحدة وألمانيا وهولندا، والتي تعمل بجد أكبر من أجل زيادة الإبداع.

(ج) الإبداع يعني تحطيم القواعد أو كسرها. و«هو يحطم الأنماط الحالية للفكر والحياة. ويمكن أن يبدو شيئًا تخريبيًّا وغير مستقر حتى بالنسبة إلى المبدع نفسه.»[24] وللإبداع بوصفه عملًا محطِّمًا للقواعد أهميةٌ خاصة في إعادة سرد فلوريدا للدراما الاجتماعية لستينيات القرن العشرين، وأهميته المركزية في تأسيس روح وادي السيليكون والصناعات التكنولوجية بوجه عام أكثر.[25]

(د) يُعَد الإبداع العنصر الأساسي في أنواع معينة من العمل، الذي يمر عبر طيف من التعريفات والتصنيفات السابقة للعمالة (أي أصحاب الياقات البيضاء، وأصحاب الياقات الزرقاء، والطبقة التنفيذية، والطبقة العاملة). ويمكن أن تكون هناك وظائف إبداعية لأصحاب الياقات البيضاء كما هو الحال بالنسبة إلى أصحاب الياقات الزرقاء، ولهذا السبب يجد فلوريدا أنه من الأفضل أن نتحدث عن طبقة مبدعة بدلًا من الاعتماد على هذه التصنيفات الفوردية الأكثر قدمًا. تشكل الوظائف الإبداعية تحديًا، وتنطوي على عملية حل للمشكلات. وهناك متعة فطرية في هذا النوع من العمل، بل قد لا يُنظر إليه بوصفه عملًا إلا لأن المرء يتقاضى عنه أجرًا. وينجذب المبدعون إلى وظائفهم بسبب المكافآت الكامنة في طبيعة وظائفهم؛ فمثل هذه الأعمال تسمح للفرد بممارسة النزعة الفطرية المحددة في النقطة (أ).

(هـ) يُستخدم الإبداع باعتباره مصطلحًا بديلًا للأعمال التي تُنتج «الجديد»: الأفكار الجديدة، أو المفاهيم الجديدة، أو المنتجات الجديدة. بعبارة أخرى، الجديد هو الإبداع (والعكس صحيح).

(و) يرتبط الإبداع ارتباطًا وثيقًا بالتكنولوجيا. من مقاييس الإبداع عدد براءات الاختراع للفرد الواحد، وهناك مقياس آخر هو مقدار الإنفاق على البحث والتطوير. ويشير فلوريدا إلى هواتف نوكيا المحمولة وسلسلة أفلام «سيد الخواتم» بوصفهما من المنتجات الإبداعية. وعلى الرغم من أنه يشير إلى مجالات أخرى من النشاط ومنتجات أخرى بوصفها إبداعية، ليس ثمة شك في أنه يرى أن مجال التكنولوجيا المتقدمة المعاصرة هو أكثر المجالات التي يحدث فيها إبداع.

(ز) وأخيرًا، تم تعريف الإبداع مرارًا باعتباره سمة من سمات العمل في مجال الفنون، الذي تقع أنشطته ضمن نطاق مؤشر البوهيميين. وقد تَوسَّع هذا العنصر من الفنون الآن ليغطي أشكالًا أخرى من النشاط البشري نتيجة للتغير الاجتماعي والتطور التكنولوجي، أو ببساطةٍ نتيجةً لإعادة النظر في العملية الإنتاجية؛ فبنظرة سريعة يتضح أن العديد من أشكال العمل كان يتسم دائمًا بالفعل بالإبداع. إن «تأليف كتاب، أو إنتاج عمل فني، أو تطوير برامج جديدة يتطلب فترات طويلة من التركيز.»[26] وعندما يصف فلوريدا الإبداع، تكون الفنون دائمًا على رأس القائمة: «يتطلب [الرخاء] زيادة الاستثمارات في أشكال متنوعة ومتعددة الأبعاد من الإبداع، مثل الفن والموسيقى والثقافة والتصميم والمجالات ذات الصلة؛ لأنها ترتبط جميعًا بعضها ببعض وتزدهر معًا.»[27]

في بعض الأحيان تقف هذه الأفكار المختلفة عن الإبداع منفردة؛ وفي كثير من الأحيان، يتم وصف الإبداع وتناوله من خلال ربط فكرتين أو أكثر من هذه الأفكار معًا. وتبدو سلسلة الارتباط التي يدير من خلالها فلوريدا هذه الأفكار كالتالي:

التكنولوجيا (و) مبدعة لأنها:
تمتلئ بالأشخاص الذين يسُمح لهم بكسر القواعد (ج) ومن ثَمَّ، يستطيعون
أن ينتجوا أشياءَ جديدة (هـ)،
وكل هذا نتيجةً لوضع اجتماعي جديد (ب)
يمكِّن الشركات من (د) إتاحة ظروف العمل التي تسمح بحدوث ذلك.

إن العمل في شركة للتكنولوجيا المتقدمة وامتلاك القدرة على الإبداع بهذا الشكل هو أفضل العوالم الممكنة جميعها، ولكن هذا مع ذلك في أساسه:

> (أ) تعبير عن نزعة إنسانية فطرية سحقها الاقتصاد العالمي حتى الآن تحت الأقدام.

مما لا يثير الدهشة أنَّ تداول هذه الأفكار المتعددة عن الإبداع يَنتج عنه زيادة في الإطناب والتناقضات مع المضي قدمًا في الكتاب. يوصف الإبداع بأنه جانب أساسي في البشر،[28] ومع ذلك، يخبرنا مرارًا وتكرارًا أن هناك «أشخاصًا مبدعين» (ومن ثم فهناك أيضًا مَن يُفترض أنهم أقل إبداعًا)، وطبقة متميزة يجب أن يكون إبداعها وظيفة شيء غير مجرد كونهم بشرًا عاديين.

لا شك أن التعريف السابع للإبداع (ز) هو الأهم من وجهة نظر فلوريدا. يحدد تعريفه الأكثر موضوعية السمة الرئيسية للطبقة المبدعة كالتالي: «أن أعضاءها منخرطون في عمل تتمثل مهمته في «إنتاج أشكال جديدة لها معنًى».»[29] وبالتأكيد، يبدو هذا التعريف عامًّا بلا شك؛ تتضح طبيعة هذه الأشكال ووظيفتها في الاستفاضة في شرحه لأنواع العمل التي تشكل عمل الطبقة المبدعة. باستخدام الفئات الواردة في مسح العمالة المهنية الذي قام به المكتب الأمريكي لإحصاءات العمل، يقسم الكاتب الطبقة المبدعة إلى فئتين أساسيتين؛ وهما: الفئة الرئيسية العالية الإبداع والفئة المبدعة بنحو أعم. وتضم المجموعة الأولى عاملَين عبر نطاق واسع من فئات العمالة؛ وهي كالتالي:

> العلماء والمهندسون وأساتذة الجامعات والشعراء والروائيون والفنانون والممثلون والمثلون الهزليون والمصممون والمهندسون المعماريون، فضلًا عن قادة الفكر في المجتمع الحديث؛ وهم: مؤلفو الأعمال الأدبية غير القصصية والمحررون والمثقفون والباحثون المفكرون والمحللون وغيرهم من صناع الرأي العام ... ويمكنني أن أحدد أعلى شكل للعمل الإبداعي بأنه ذلك الذي ينتج أشكالًا أو تصميمات جديدة يمكن نقلها بسهولة والاستفادة منها على نطاق واسع، مثل تصميم المنتجات التي يمكن إنتاجها وبيعها واستخدامها على نطاق واسع.[30]

تحصل هذه الفئة على رواتبها مقابل المشاركة في إنتاج أشكال جديدة يمكن نقلها والاستفادة منها. وعلى العكس، بينما يُنتج باقي أفراد الطبقة المبدعة أحيانًا أشكالًا

جديدة، فإن ذلك ليس جانبًا أساسيًّا من وظائفهم؛ فعليهم أن يفكروا بأنفسهم، ولكن أثناء ذلك قد لا ينتجون بالضرورة أشكالًا جديدة. أما المجموعة الثانية فهي على نفس المستوى من الاتساع، وتشمل العمال الذين يتمتعون بمعرفة عميقة مثل موظفي الصحة والقانون، ومقدمي الخدمات المالية، والمحامين، والعاملين في صناعة التكنولوجيا المتقدمة. إذا حظي أيٌّ من هؤلاء العاملين بفرصة المشاركة في إنتاج أشكال جديدة من خلال وظائفهم — كل شيء بدءًا من المنتجات الجديدة حتى فرص الوظائف الجديدة — فستصبح لديه الفرصة للانتقال إلى المستوى العالي الإبداع، حيث يصبح إنتاج أشكال جديدة صالحة للاستعمال وقابلة للنقل هو الغرض الرئيسي من عملهم.

يرى فلوريدا أن الإبداع سلعة اقتصادية، مثل النفط أو الفحم، أو عمل العمال في المناطق الحرة أو الماكيلدوراس، إلا أنها ليست كأي سلعة؛ فكما يقول فلوريدا بنحو مباشر في تمهيد طبعة كتابه الورقية الغلاف، ويكرر في مختلف أجزاء الكتاب، «الإبداع البشري هو المورد الاقتصادي الأساسي.»[31] قد يتصور الكثيرون أن الإبداع صفة أو ميزة لها قيمة جوهرية، وهي قيمة لا تحددها الأسواق، ولا تتأسس من خلال فائدتها أو إمكانية نقلها. يرى فلوريدا الأمور من منظور مختلف. بالنسبة إليه، يقع الإبداع في صميم «التكنولوجيات الجديدة، والصناعات الجديدة، والثروة الجديدة»؛ ومن ثم لا بد من تشجيعه، حيث إن جميع «الأشياء الاقتصادية الجيدة تتدفق منه»؛[32] ومن ثم، كانت مساهمة كتاب فلوريدا ذات شقين؛ أولًا: يلعب فلوريدا دور جماعات الضغط نيابة عن الإبداع بالنسبة إلى الحكومة، وقطاع الأعمال، والجمهور العام؛ حيث يعمل دون كلل لحملهم على الاعتراف بأهمية الإبداع بالنسبة إلى الاقتصاد. وثانيًا: وضع فلوريدا، في إطار دوره كعالم اجتماع، العديدَ من المخططات النظرية والتجريبية التي تهدف إلى الوصول إلى فهم أفضل للأنظمة الاقتصادية الإبداعية التي قد تطورت، حتى الآن، من تلقاء نفسها. وقد كان هدفه مساعدة التشجيع على الإبداع والاستفادة منه حتى يمكن أن تعمل تلك الأنظمة بنحو أفضل بفضل المعرفة التي تقدمها العلوم الاجتماعية؛ مما سيعود بالنفع — على حدٍّ سواء — على كلٍّ من الدول القومية وحياة العمال الذين يضيع إبداعهم حاليًّا في وظائف تقع خارج نطاق الطبقة المبدعة.

يا لها من رؤية يوتوبية، أليس كذلك؟ من يمكن أن يقف ضد المزيد من الإبداع في العالم، أو النتائج التي يبدو أن الإبداع قادر على إنتاجها: مجتمعات أكثر تنوعًا وتسامحًا، وظائف أفضل، وثروة للجميع؟[33] كان رأي فلوريدا فيما يتعلق بأهمية الطبقة المبدعة

لمستقبلنا جميعًا واضحًا لا لبس فيه، فيقول: «لقد تطورت النظم الاقتصادية والاجتماعية التي تستغل الإبداع البشري وتستفيد منه كما لم يحدث من قبل. ويُنتج هذا بدوره فرصة ليس لها مثيل في رفع مستوى المعيشة، وبناء اقتصاد أكثر إنسانية واستدامة، وجعْل حياتنا أكثر اكتمالًا.»[34] ولم تُستغل هذه الفرصة حتى الآن. لحسن الحظ، إنَّ كل ما يقتضيه الأمر لتحقيق هذا المستقبل الاستثنائي هو اكتمال «التحول إلى مجتمع يستغل إمكاناتنا الإبداعية بالكامل ويكافئ عليها.»[35] ويبدي فلوريدا — بوصفه عضوًا فخورًا من قادة الفكر في مجتمعنا — استعدادًا للمساعدة في إضاءة الطريق نحو مستقبل أفضل (وتكوين ثروة من خلال شركته الاستشارية أثناء ذلك).

وعلى الرغم من حماس فلوريدا لمشروع تحويل العالم لمكان أكثر أمانًا للإبداع، فإن نظرته للنظام الاجتماعي والاقتصادي بأنه نظام شبه كامل تفشل في معالجة عدد من القضايا أو تفسيرها، التي — مع أخذ الموضوع الذي يعرضه والمفاهيم التي يستخدمها في الاعتبار — لا يمكنه أن يتجاهلها. ويمكننا أن نحدد هذه الفجوات والأمور المحذوفة من خلال النظر إلى اللحظات القليلة التي كان يثير فيها المخاوف أو التساؤلات حول الصورة التي يرسمها للحاضر. في كتاب مكوَّن من ٤٠٠ صفحة يبدو في بعض الأحيان عازمًا على معالجة كل شيء تقريبًا (جيمي هندريكس وصعود الزراعة، وَتوماس فرانك ومدرسة فرانكفورت، ووادي السيليكون ومهارة فلوريدا الخاصة في بناء سيارات خشبية في مرحلة الطفولة)؛ هناك «ثلاث» لحظات فقط من الشك أو التردد إزاء وجهات النظر التي يقدمها. وتستحق هذه اللحظات أن تنقل بالكامل:

> إن الاقتصاد الإبداعي ليس حلًّا ناجعًا للعلل الاجتماعية والاقتصادية العديدة التي يواجهها المجتمع الحديث؛ فهو لن يقوم بطريقة سحرية بتخفيف حدة الفقر، ولا القضاء على البطالة، ولا التغلب على الدورة الاقتصادية، ولن يؤدي إلى المزيد من السعادة والوئام للجميع ... إن هذا النظام القائم على الإبداع، إذا تُرك دون قيود ودون تدخل بشري مناسب، قد يزيد بعض مشاكلنا سوءًا.[36]
>
> تشير أبحاثي الإحصائية إلى علاقة إحصائية سلبية ومثيرة للقلق بين أماكن تركُّز شركات التكنولوجيا المتقدمة ونسبة السكان غير البيض ... يمكن للاقتصاد الإبداعي أن يفعل القليل للحد من الفجوة التقليدية بين الشرائح السكانية من البيض وغير البيض، وربما يزيد الأمور سوءًا.[37]

> الإبداع ليس سلعة رابحة في كل الأحوال، وإنما هو من القدرات البشرية التي يمكن استخدامها لتحقيق العديد من الأهداف المختلفة ... وقد أدت التجارب الضخمة والمركزية المتعلقة بأشكال جديدة من الحياة الاقتصادية والاجتماعية إلى حالات فشل ذريع مثلما حدث في الاتحاد السوفييتي، بينما هنا في الولايات المتحدة الأمريكية، أدى إبداع السوق الحرة إلى تحقيق الكثير من الأمور التافهة والمبتذلة، والتي بلا فائدة.[38]

لا يوجد أي تعليق بعد أول اقتباسين؛ حيث يقعان في نهاية أجزاء يستأنف فلوريدا بعدها تأييده الذي بلا هوادة للإبداع. ويأتي التحذير الثالث المتعلق بالأخطار المحتملة للإبداع في خاتمة الكتاب؛ حيث يوجه فلوريدا طاقاته نحو إقناع الرأي العام الأمريكي والحكومة بالاعتراف بأهمية الطبقة المبدعة ودعمها. وهناك دفاع وديع عن إمكانية توجيه الإبداع نحو الاستخدامات الشمولية، أو أن يؤدي إلى تخلف ثقافة المستهلك. ببساطة، بما أن الإبداع أصبح الآن في قلب الاقتصاد، ونظرًا لأنه يُعَد زيادة في الموارد التي من شأنها تعزيز القدرة على تحسين الأحوال في العالم، فهو سيبقى ضروريًّا، بغض النظر عن أن نتائجه تشمل كل شيء؛ بدءًا من القنبلة الذرية، ووصولًا إلى السلع غير الضرورية التي تملأ رفوف متاجر السلع البسيطة في جميع أنحاء العالم.

أما ما يظهر في هذه الفقرات الثلاث، فهو ما لا يَرِدُ ذكره على الإطلاق في بقية الكتاب؛ وهو: «الشق السياسي.» لم يتم أبدًا تحديد لمَ قد يؤدي هذا النظام القائم على الإبداع إلى زيادة مشاكلنا سوءًا؛ كما أنه يأتي من قبيل المفاجأة، نظرًا لِلَهجة الكتاب وانتصاره للإبداع، أن نعلم أن هذا النظام «ليس» حلًّا ناجعًا. ويدرك المرء من قراءة هذه الفقرات أنه لا توجد أي إشارة، أو ربما إشارات بسيطة فحسب، إلى مجموعة كاملة من القضايا المتعلقة بالعمل والعمالة في حقبة العولمة: الفقر والبطالة والتعهيد الخارجي والعمل في الخارج والدورة الاقتصادية؛ أو العِرق والعرقية في هذا الإطار. إلا أن هذه العوامل جميعها حاسمة في تشكيل تجربة العمل ودرجة المشاركة الاقتصادية للشخص، سواء في الولايات المتحدة الأمريكية أو في أي مكان آخر. وهناك طرق أخرى لفهم قائمة المدن التي وضعها فلوريدا، ومستوياتها الحالية من عمال الطبقة المبدعة، التي ترتبط تحديدًا بالفقر، والبطالة، والعِرق، وعدم الحصول على التعليم (وهو أمر مطلوب في وظائف الطبقة المبدعة)، ووجود نقص في وسائل التنقل، وكذلك في الفرص.[39] هذه القضايا سياسية عميقة، وليست مجرد أمور خارجية أو إضافية بالنسبة إلى النظام

الذي يصفه. عند مناقشة فلوريدا للعرقية أو الهجرة، يصيغها باعتبارها سياقًا أو خلفية في إطار حضري؛ أي إنها التلون الحضري الذي يعطي المكان طابعًا خاصًّا من التنوع والتسامح، أو بعبارة أخرى، تبدو كمشهد موسيقيٍّ بديل جيد: جزء من التشكيل الضروري للمدينة الذي يسمح لأعضاء الطبقة المبدعة من البيض بالشعور بالرضا عن أنفسهم وعن المكان الذي يعيشون فيه. وقد أعلن فلوريدا عن أحد أسباب عدم تطرقه إلى السياسة، إلى جانب أن التطرق إليها من شأنه أن يفسد أناقة أنظمة فلوريدا والارتباطات القوية الواضحة الخاصة بها بين نوع العمل و«التسامح» و«التنوع»، في ردِّه على المشكلة المقدمة في الفقرة الثالثة أعلاه. عندما يتعلق الأمر بمنطق الاقتصاد، فإنه يفوق كل شيء آخر، حتى إمكانية صناعة أسلحة جديدة رهيبة، منوط بأعضاء الطبقة المبدعة (من دون شك) تصميمُها. وأيًّا كانت حقيقة الإبداع الاجتماعية، فقد بدا وكأنه اسم آخر للِّيبرالية الجديدة، أو إن لم يكن يعادلها، فهو عامل مهم في تفعيلها، لا سيما في اقتصادات ما بعد الصناعة.

على أحد المستويات، لن تكون هناك مبالغة إذا ما قلنا إن غياب السياسة هو غياب لـ «العالم» بنحو عام؛ إذ لا يوجد ذكر للأحداث الطارئة والتحديات التي تشكِّل القرارات الاقتصادية، وكذا قرارات مجالس المدن ومخططي المدن. ويمكن أن يكون هذا هو أحد الأسباب وراء وجود خلط تركيبي أساسي بين السبب والنتيجة في عمل فلوريدا عند تخيل كيفية عمل المناطق الحضرية: «نادرًا» ما يتم أولًا إنشاء المدن المبدعة التي تجتذب إليها العمال المبدعين فيما بعد (بعيدًا عن المدن الإبداعية الأخرى). العكس هو الصحيح والأكثر شيوعًا، مع ظهور أنواع معينة من المدن بسبب عمليات تاريخية خاصة بالصناعة والعمل. (هل يمكن للمرء أن يتصور، على سبيل المثال، أن تؤسس الصين مدينة مبدعة على نمط برازيليا من العدم؟ ما الذي يتطلبه الأمر لجعل هذا المكان مكانًا يدفع «قادة الفكر» لترك بكين وشانغهاي للذهاب والعيش فيه؟) ولكن قد يكون من الأفضل أن نركز على عنصر أصغر من الكتاب، يوضح — على صغره — بعض نقاط التقصير الأوسع نطاقًا.

يمكن التعرف على حدود بناء فلوريدا للطبقة المبدعة وما تقدمه من وعد للمستقبل من خلال حقيقة أن الكتاب الذي يعالج في الأساس قضية العمل لا يحتوي على أي مناقشة حقيقية للعمل على الإطلاق. تعمل الطبقة المبدعة على إنتاج أشكال جديدة وذات جدوى، إلا أنها تقوم بذلك باعتباره «عملًا»، أو نشاطًا داخل الشركات والمؤسسات

المعروفة لنا جميعًا (الشركات التي تسترعي اهتمام فلوريدا هي عمالقة التكنولوجيا مثل ديل، ومايكروسوفت، وأبل). في مناصرة فلوريدا للإبداع، يبدو أنه قد نسي العمل، سواء عن عمد أو غير عمد. للعمل في ظل الرأسمالية عدد من الوظائف الاجتماعية والاقتصادية، أهمها — وهو سبب تعيين شركةٍ أو مؤسسةٍ ما لعضو من أعضاء الطبقة المبدعة — إنتاج منتج أو تقديم خدمة (مفيدة ويمكن نقلها، سواء كانت مادية أو معنوية). لا تتم هذه العملية من أجل خير الإنسانية، أو لأنها تسمح لأحد أفراد الطبقة المبدعة بالاستفادة من قدراته، ولكنها تهدف إلى تحقيق أرباح. وكما يعلم أي طالب في الصف الرابع، لا يمكن تحقيق الأرباح إلا إذا كان المبلغ المدفوع للعاملين المبدعين (وسائر العاملين) أقل من الدخل الذي يمكن أن يتولد من خلال المنتج.

هذا المعنى للعمل الرأسمالي — بوصفه جزءًا من نظام للربح — لا يظهر أبدًا في كتاب فلوريدا. بدلًا من ذلك، يؤكد فلوريدا على أن أعضاء الطبقة المبدعة «لا يعملون» بدافع جَنْي الأموال، وأن الفئة العالية الإبداع منها تحصل على مقابل مادي يقل حتى عن نظرائهم من المبدعين.[40] وفي الاستطلاعات التي يستشهد بها فلوريدا، يشير العاملون في مجال تكنولوجيا المعلومات إلى أن تحدي العمل، والمرونة، والاستقرار هي الأسباب التي تسبق الأجر في سبب اختيارهم لوظائفهم، بالإضافة إلى عوامل أخرى كثيرة (الإجازات، وتقدير آرائهم، وما إلى ذلك) تأتي بعد ذلك بفارق بسيط.[41] بالنسبة إلى فلوريدا، يبدو هذا الاهتمام بالعوامل الأخرى غير الراتب هو العنصر الذي يميز الطبقة المبدعة؛ فرغبتهم في الحصول على وظائف مرنة ومنفتحة — تسمح لهم بتجنب ارتداء ملابس رسمية، أو الوصول إلى العمل في وقت متأخر، أو أفضل من ذلك مواصلة العمل أينما ومتى شاءوا (في المنزل، في مترو الأنفاق، أثناء التسوق، أثناء قراءة الرسائل على هواتفهم المحمولة، وما إلى ذلك) — يُنظر إليها باعتبارها علامة على نمط جديد من الحرية في العمل، ليس هذا فحسب، بل وشكلًا من أشكال الحرية الاجتماعية بوجه أعم.

وقد وجه العديد من النقاد الاجتماعيين والثقافيين الانتباه إلى الطرق التي تخفي بها هذه الحرية الجديدة الظاهرية التي حصلنا عليها في الواقع امتدادًا ليوم العمل التقليدي المستمر لثماني ساعات لكل جانب من جوانب حياة الفرد.[42] بالنسبة إلى من يتمتعون بفهمٍ أكثر منهجيةً للاقتصاد الرأسمالي، وتحديدًا التغيرات التي مر بها على مدى العقدين الماضيين، يبدو هذا التحرر في بيئة العمل مجرد وضع جديد لإدارة العمل، يظل هدفه إجمالًا هو تحقيق أكبر قدر ممكن من الربح للشركات والمساهمين. إذا كان

العمال يرون أن وظائفهم تمثل مواقع لإثبات ذواتهم، وللتحدي والحرية وليس العكس، فسيكون ذلك أفضل كثيرًا للهدف الأساسي للشركات والمساهمين! إن تدريب الأفراد على الاستعداد للعمل في أي وقت من اليوم، والقيام بذلك دون إكراه خارجي، بل بسبب دافع فطري لإثبات الذات، لَهُو وسيلة سهلة لزيادة الإنتاجية دون الحاجة إلى زيادة الأجور. لا يبدي فلوريدا أي قلق إزاء إعادة التعريف هذه للعمل، بل إنه يجادل حتى بأن هذه المخاوف مبالَغ فيها ولا معنى لها.[43]

إن ما يعبِّر عنه كتاب فلوريدا، في جوهره، هو أحد أوهام العمل في ظل الرأسمالية: إمكانية أن يكون هناك في ظل الرأسمالية عملٌ دون استغلال؛ عمل يشبه اللعب. أما ما يدعو من يدرسون الفنون والثقافة إلى التوقف هنا لوهلة، فهو كيف تقترب بشدة هذه الرؤية من الغرض والوظيفة الاجتماعيَّين المثاليَّين للثقافة، إذا عملت في الاتجاه المعاكس. لقد كان الهدف من الطليعة التاريخية هو رفض العقلانية القاسية للمجتمع الرأسمالي من خلال إنشاء «تقليد لحياة جديدة ذات أساس فني.»[44] يشير وصف فلوريدا للطبقة المبدعة إلى أن هذه الحياة الجديدة قد تحققت بالفعل. وبالنسبة إلى الطليعة التاريخية، كان من المفترض أن يحدث الانتقال إلى يوتوبيا ممارسة الحياة الجديدة عن طريق تحول الحياة والعمل عن طريق «الفن»؛ بحيث لم يعد الفن — باعتباره مجال حياة مستقلًّا ومنفصلًا عن النشاط الأكثر واقعية للحياة — ضروريًّا. إن الفصل بين الفن والحياة، الذي جعل النشاط المستقل المسمى بالفن على ما هو عليه، سيُتراجع عنه من خلال الممارسة الفعلية للفن ذاته. في ضوء رؤية فلوريدا لحاضرنا الإبداعي، يميل «العمل» نحو الفن بسبب حدوث تغيرات في شخصية العمل وطبيعته، ويعود ذلك جزئيًّا إلى التطورات التكنولوجية، وإلى ما يمكن وصفه فقط بتنوير جديد فيما يتعلق بطريقة توصيف مكان العمل. قد تبدو مساواة الطبقة المبدعة مع نشاط الطليعة أمرًا خياليًّا، إلا أنها الطريقة الأساسية التي تَصوَّر فلوريدا من خلالها الوظيفةَ الاجتماعيةَ للطبقة المبدعة. بالنسبة إليه، جمعت الطبقة المبدعة مختلف مجالات الحياة معًا لتسمح لهذا العنصر الفطري الخاص بالإبداع الذي نتَّصف به بوصفنا بشرًا ويميزنا عن الحيوانات بأن يظهر أخيرًا على المستوى الاجتماعي. ويكتب فلوريدا قائلًا: «لقد سئمنا من الفواصل الصارمة التي رسمت في السابق حدود العمل والمنزل والترفيه.»[45] لحسن الحظ، تم محو هذه الفواصل في حقبة العولمة؛ «فصعود اقتصاد الإبداع يقرِّب بين مجالات الابتكار (الإبداع التكنولوجي)، والأعمال التجارية (الإبداع الاقتصادي)، والثقافة (الإبداع الفني والثقافي)،

وذلك في توليفات أكثر تقاربًا وأكثر قوة من أي وقت مضى.»[46] ويردف قائلًا: «اليوم، يحدث تداخل بين المثقفين وغير المثقفين، الجديد والشائع، العمل واللعب، الرئيس التنفيذي والإنسان العادي.»[47] الرئيس التنفيذي والإنسان العادي، الأستاذ الجامعي والمصرفي: ربما، ولكن ماذا عن العمال الذين يصنعون ملابسهم وأجهزة الكمبيوتر المحمولة الخاصة بهم؟ وأولئك الذين يجمعون هواتف الآيفون الخاصة بهم؟

بطبيعة الحال، نرى أن رؤية فلوريدا تُعَد نوعًا من التفكير التواق أكثر منها يوتوبيا يمكن أن تتحقق بالفعل. فهو يتصور أن الرأسمالية قد حققت ما كانت الطليعة ترغب به كوسيلة للقضاء على الرأسمالية. كيف يمكن لهذا أن يكون؟ ما يمكن أن يتيح ويُبقي وَهْم الرأسمالية باعتبارها طليعية — أي إن الرأسمالية قد تجاوزت نفسها بالطريقة التي ظن الفن يومًا أنها يمكن أن تسلكها — هو مفهوم الإبداع نفسه. إن تاريخ مفهوم الإبداع والتغيرات التي مر بها بمرور الوقت معقدٌ للغاية.[48] ويكفي أن نقول إن الإبداع، من حيث تاريخه الحديث، يرتبط على نحو شائع بعملية الإنتاج في الفنون الجميلة. إن فكرة إنتاج لوحة أو نوتة موسيقية تنطوي على خَلْق من عدم — ظهور شكل جديد من العدم — ينبع جزئيًّا من فردية الممارسة الفنية في بداية القرن التاسع عشر، وكذا من الخروج عن التصنيفات الشكلية المحددة بصرامة التي كان من المفترض ممارسة مثل هذه الأنشطة داخلها. إن الفنان هو نموذج للفرد المبدع، كما أنه نموذج لنوع من العمل تُحركه الدوافع الذاتية والأغراض الداخلية، والذي يتم خارج المؤسسات الرسمية للعمل.

على مدى القرن العشرين، أصبح الإبداع مرتبطًا بكل أنواع الأنشطة: الاكتشافات العلمية، والرياضيات، والاقتصاد، والأنشطة التجارية، إلى آخره؛ أيْ مرتبطًا بأيِّ شيء يبدو أنه ينطوي على إنتاج شيء جديد من أي نوع. وعلى الرغم مما تبقى من إنسانوية رومانسية في المصطلح، فإن أحد آثار هذا التوسع فيه هو تحوُّل الإبداع ليكون مرادفًا للأصالة أو الابتكار. في استخدام فلوريدا للمصطلح، يصبح الإبداع فعلًا أقل تحديدًا؛ حيث يدل في بعض الأحيان على أنه نوع من «حل المشكلات» الذي يحدث طوال الوقت في العمل وفي الحياة اليومية. ومع ذلك، فمن الضروري أن يحافظ الإبداع، تقريبًا في كل مرات استدعائه في كتاب فلوريدا، على صلته بالفنون والاستقلال والحريات (المتخيلة) المرتبطة بمثل هذا العمل. ويعزز ذلك من خلال المساواة التي يشير إليها فلوريدا مرارًا بين أعمال الفنانين والمهندسين والموسيقيين وعلماء الكمبيوتر. سيكون هناك شيء مفقود بالغ الأهمية في سرد فلوريدا إذا كان يريد أن يُشِيد لا بعمل الطبقة المبدعة، ولكن بعمل

«عمال المعرفة»، أو «طبقة ما بعد الصناعة»، أو «الطبقة الإدارية المحترفة»، أو «المحللين الرمزيين»، أو «العمال المعرفيين» كذلك. يجعل وصفُ هذه الطبقة بأنها «مبدعة» طبيعةَ عملها غامضًا، ويحولها إلى شيء أكبر بكثير من مجرد تسمية لفئة جديدة من العمل في الرأسمالية المتأخرة. إن عبقرية استخدام كلمتَي «مبدعة» و«إبداع» بالطريقة التي استعان بها فلوريدا تتمثل في تحول العالم إلى شيء يتكون من «نشاط فني فقط» — إن لم يكن اليوم، ففي يوم قريب — إذا ما نُفِّذ ذلك من خلال أشكال مختلفة من العمل (ليس باستخدام ألوان الرسم، ولكن عن طريق لغة إكس إم إل، وليس من خلال مقاطع الفيديو المخصصة للمعارض الفنية، ولكن للعملاء على شبكة الإنترنت)، ومع وضع أهداف مختلفة في الاعتبار. ومن ثم، تصبح الفروق بين المهندس، وعالم الكمبيوتر، والمحامي شيئًا أقرب إلى ما بين الرسامين، والنحاتين، والسينمائيين؛ أي أشكالًا مختلفة لنفس النزعة الإبداعية الأساسية. في نفس الوقت، يفضي ملء العالم بالفن إلى تفريغه من التقلبات والظلم الناتجَين عن العمل في ظل الرأسمالية؛ أي عن العالم الذي نحيا فيه ويتوجب علينا أن نحسنه.

أما أكثر مجموعة تثير إعجاب فلوريدا، فهم العاملون في صناعة التكنولوجيا المتقدمة في أماكن مثل وادي السيليكون وَأوستن في تكساس. يشكل فهمُه لطبيعة الابتكار التكنولوجي، وإنتاج أجهزة وبرمجيات جديدة وعجيبة، فهمَه لما يُعد إبداعًا. وعلى الرغم من عدم إفصاحه عن ذلك، فإذا كان العمل الفني يُعد نموذجًا لما يشكل العمل الإبداعي بنحو عام، فالتكنولوجيا الجديدة هي الآلية التي يمكن من خلالها أن نتصور أن الإبداع يمكن أن يشكل نشاطًا حياتيًّا لعدد أكبر من الناس: فيمكن للابتكار أن يقضي على العمل الممل، تاركًا خلفه العمل الذي يمثل تحديًا فحسب. إلا أن هناك مستوًى آخر يمكن من خلاله أن نرى الصلة بين العمل الفني وذلك الخاص بالصناعات التكنولوجية الذي يهتم به فلوريدا. في موضعٍ ما في كتاب فلوريدا، يتفاخر بأن عدد الأشخاص الذين يَعتبرون أنفسهم فنانين وعاملين في الحقل الثقافي زاد بنحو كبير خلال نصف القرن الماضي في الولايات المتحدة الأمريكية، من ٥٢٥ ألفًا في عام ١٩٥٠ إلى ٢٫٥ مليون في عام ١٩٩٩، «بزيادة قدرها أكثر من ٣٧٥ في المائة.»[49] إلا أنه لم ينظر في كيفية حصول هؤلاء العمال على دخلهم، وهذا أمر مفهوم حيث يرى أن الفنانين والعاملين في مجال الثقافة يقدرون فرصة الاستمتاع بحريتهم الإبداعية أكثر بكثير مما يقلقون بشأن كيفية كسب قوت يومهم.

قد يكون فلوريدا محقًّا في تحديده للعلاقة بين الفنانين والعاملين في الصناعات المعرفية الخاصة بـ «الاقتصاد الجديد». أما موضع الخطأ، فيكمن في الطبيعة المحددة لهذه العلاقة. إن ما يجري تحويله من الفنان للعامل في مجال تكنولوجيا المعلومات عبر وسط الإبداع هو «الخصم الثقافي»، الذي طالما صاحب العمل الفني بجميع أنواعه لفترة طويلة (وذلك دون التطرق إلى القضايا المتعلقة بالملكية الفكرية، التي سننحيها جانبًا هنا). أحد الأسباب التي تجعل معظم الفنانين غير قادرين على الاعتماد على ثمار عملهم في الحياة هو أنه من المفترض أن يكونوا «على استعداد لقبول مكافآت غير نقدية — الإشباع من إنتاج الفن — بوصفها مقابلًا لعملهم؛ مما يؤدي إلى تقليل المقابل النقدي لعملهم.»[50] وعلى الرغم من أن عمال تكنولوجيا المعلومات عادة ما يحصلون على مقابل لعملهم أفضل كثيرًا مما يحصل عليه الفنانون، فإنَّ ربط عملهم بالعمل الفني يتسبب في خفض مماثل يعود بالفائدة على أصحاب الشركات التي يعملون بها، حتى ولو كان عامل تكنولوجيا المعلومات يؤمن بأن الفوائد الأساسية ملك له. تتمثل صفات عامل المعرفة في اقتصادِ ما بعد الصناعة، الممثل النموذجي للطبقة المبدعة كما يعرِّفها فلوريدا، في أنه «يشعر بالراحة في بيئة دائمة التغير تتطلب تحولات إبداعية للتواصل مع مختلف أنواع العملاء والشركاء؛ وينصبُّ اهتمامه على الإنتاج الذي يتطلب ساعات طويلة من العمل، وغالبًا ما يكون في معزل عن الآخرين؛ كما أنه معتاد، في الممارسات المتنوعة لعمله العقلي، على روتين مؤقت، غير ثابت، للتطبيق الذاتي.»[51] الآن، نحن جميعًا فنانون، ولا يعني هذا أن نحيا حياة الحرية غير المقيدة والإبداع؛ على العكس، يعني هذا أنه إذا كنا محظوظين، فإن العمل الطاحن لساعات طويلة يمكن أن يُخفف بسبب عدم الحاجة إلى ارتداء ملابس رسمية في العمل، وإمكانية اللعب مع الزملاء على طاولة لعبة كرة القدم في الزاوية بين الحين والآخر.

هناك الكثير مما يمكن للمرء أن ينتقده حول رؤية فلوريدا لمستقبلنا الجماعي؛ على سبيل المثال، هناك حقيقة أنه على الرغم من رغبته في إيجاد علاقة بين الفن والطبقة المبدعة، ففي نهاية المطاف لا يستطيع الفنانون والموسيقيون أن يتنافسوا مع الكبار في عالم تكنولوجيا المعلومات. ويؤكد مؤشر البوهيميين، الذي يقيس وجود الشخصيات الإبداعية في المدن، على أنهم هم الأساس الذي ينمو منه إبداع الشخصيات التكنولوجية: تمامًا مثل التنوع العرقي؛ فهم يسبغون على المكان لونًا مميزًا، وقد يكونون مصدرًا للترفيه المسائي من آنٍ لآخر. إن رؤية فلوريدا المحدودة للإبداع، أي استبعاده لأي إشارة

للقيمة الجوهرية، أو الوظيفة السياسية أو الاجتماعية، لأنواع معينة من النشاط البشري؛ تتضح من استخدامه لبراءات الاختراع باعتبارها وسيلة لقياس الإبداع، وكذا في وصفه للإبداع، دون أي شعور بالخجل، بأنه محض فائدة، ويتمتع بقابلية للنقل، وبأن له وظيفة اقتصادية. ويتخيل فلوريدا أن هناك توسعًا تدريجيًّا للطبقة المبدعة سيفضي بها في يومٍ ما إلى أن تشمل «الجميع». ولا نعلم تحديدًا من سيبقى لتقديم المشروبات التي يعشقها أساتذة الجامعات والمصرفيون. أما ما يبدو واضحًا فهو أنه حتى وسط كل الإبداع الذي يشترك فيه كلٌّ من الطبقة المبدعة وفلوريدا نفسه، هناك شيء واحد «جديد» استُبعد منذ البداية؛ وهو وجود نظام اقتصادي واجتماعي جديد تمامًا؛ حيث يمكن للعمل أن يكون له طابع اجتماعي يختلف تمامًا عما يمكن للرأسمالية الليبرالية أن توفره، حتى في أكثر الحالات اليوتوبية. بدايةً، قد لا يتم تنظيمُ مثلِ هذا النظام حول مستويات متزايدة من الأرباح والإنتاجية. وعلى الرغم من جميع الوسائل الجديدة المثيرة للاهتمام المعروضة في كتاب فلوريدا للتفكير في العمل في حقبة العولمة، فإن الكتاب يبقى في النهاية محجمًا عن التفكير في طرق جديدة للوجود والحياة، وفضَّل أن يضع أمله في فكرة أن الرأسمالية ستصبح، بلمسةٍ من عصا التكنولوجيا السحرية، أساس أفضل عالم من الممكن أن نحيا فيه.

لنَكُن واضحين: إن آراء فلوريدا حول الإبداع تمييزية أكثر منها تشخيصية. ويجد المرء أن هذه الأفكار متداولة على نطاق واسع في المجال الثقافة عمومًا، كما أنها منتشرة جدًّا اليوم، خاصة في لغة الأعمال والاقتصاد. وكما يكتب بول كروجمان (لنأخذْ مثالًا واحدًا): «في تسعينيات القرن العشرين، عاودت الفكرة القديمة التي تقول بأن الثروة نتاج الفضيلة، أو على الأقل الإبداع، الظهورَ من جديد.»[52] في بعض النواحي، قد لا تبدو إعادة تعريف الأعمال بأنها فن عبر مفهوم الإبداع تطورًا مثيرًا للقلق بنحو خاص. ومن المؤكد أنها لا تبدو كما لو كانت تتهادى في المجال الذي يفترض بها أن تكون به: مجال الدراسة والتحليل الثقافي؛ ففي نهاية المطاف، لم يكن الإبداع قطُّ من ملامح المفردات المفاهيمية القديمة للدراسة الثقافية (من يوهان يواخيم فينكلمان، حتى إيمانويل كانط، وصولًا إلى جوتهولد ليسينج)، كما أنه ليس مهمًّا في المفردات الحديثة. وفي الوقت نفسه، تم ربط الإبداع بنشاط الفن والأدب والثقافة من خلال المفردات اليومية المعتادة للمجتمع. ونحن نوجه انتقاداتنا لفلوريدا لإعادة التعريف الأيديولوجي المستمر للعمل والتجربة الاجتماعية والتوقعات في ظل الليبرالية الجديدة. ولكن هل نحن بحاجة إلى أن نذهب

أبعد من ذلك وننظر في معنى إعادة التعريف المعاصرة هذه للإبداع بالنسبة إلى ممارسة الفن والثقافة؟

إن استعارة الإبداع من الفنون لاستخدامه في وصف نشاط له آثار لا يمكننا إغفالها. من وجهة نظر فلوريدا، ما كان قبل ذلك يبدو خطرًا أو ثوريًّا في الفن يبدو الآن مألوفًا تمامًا. إن حرية الفنان فيما يتعلق ببعض جوانب تنظيم عمله تصبح نموذجًا للعمل بنحو عام؛ ونتيجةً لذلك، فإن «المحتوى» الاجتماعي أو السياسي للفن أو الممارسات الثقافية، وليس «شكلها» الاجتماعي — بوصفه نوعًا من العمل متميزًا عما سواه — هو فقط الذي يمكن أن يمثل تهديدًا أو خطرًا. لقد قدم العمل الفني قبل ذلك نماذج لإمكانية وجود أوضاع أخرى للعمل غير أرض المصنع أو مكتب المدير، كلٌّ منها خاضع بطريقته الخاصة لإيقاعات رأس المال. وبمجرد أن يصبح للفن طابع عالمي من خلال انتشار خطاب الإبداع، يصبح حتى هذا التحدي السياسي المحتمل مخففًا. إن الثورية المغامرة للفنانين الظاهرة في المعارض المستقلة والمتاحف الفنية المعاصرة هي الشيء الذي يجد فيه فلوريدا تشابهًا مع روح العمال المبدعين في أماكن أخرى من الاقتصاد؛ فالمتاحف المشهورة التي تعرض كلاسيكيات الفن الغربي لا تسترعي اهتمامه أو (كما يدعي) اهتمام الطبقة المبدعة على الإطلاق. إذا كان الجميع يشاركون في نفس السرد حول التنمية الاجتماعية من خلال الإبداع، سواء الفنانون أو العاملون في مجال تكنولوجيا المعلومات، وأساتذة الجامعات أو المصرفيون، فما سيتبقى فقط للفن هو تقديم الأفكار على نحو غير مباشر للاقتصاد الرأسمالي، وذلك من خلال شرارة أو وميض يحمل مفهومًا جديدًا قد يظهر عندما يقف مصمم برامج أمام لوحة زيتية تشجب الرأسمالية التكنولوجية والهيمنة الاجتماعية لأجهزة الكمبيوتر؛ ومن ثم، فإن سيادة الإبداع تفرض تحديات على طريقة عمل النقد الاجتماعي اليوم، حتى لو لم يكن الإبداع مفهومًا له أهمية نظرية خاصة في النقد الثقافي كما هو الحال الآن.

إلا أن التحدي أو التهديد يتجاوز ذلك. لقد أشرنا على نحو عابر في البداية إلى أن الإبداع كان مفهومًا يستخدمه الطرفان السياسيان؛ اليسار واليمين. وحال دراسة تعميم فلوريدا للعمل بوصفه مشهدًا للإبداع، فقد ركزنا عليه باعتباره المُنظِّر والمؤيد الرئيسي لفكرة الإبداع التي تحول الرأسمالية من وسيلة للاستغلال إلى شيء يمكِّن الأشخاص من توظيف قدراتهم الفطرية بالكامل. انتقد اليمين الأمريكي دوافع فلوريدا السياسية في وصف هذا المكان أو ذاك بالمدينة المبدعة، حتى مع استيعابها للفكرة الكبرى التي تتمثل

في التشجيع على الإبداع. ولكن ماذا عمَّن يحتلون أقصى اليسار؟ هناك أيضًا استطاع مبدأ الإبداع أن يشكل جزءًا مهمًّا من كيفية تصور السياق الاجتماعي الحالي. خاصةً في أعمال الكتَّاب المرتبطين بالفكر الذاتي الإيطالي، بدايةً من باولو فيرنو حتى مايكل هارت وأنطونيو نيجري، يُنظر للهيمنة الحالية للعمل في مرحلةِ ما بعد الفوردية، أو العمل المعرفي أو العمل الوجداني، بأنها ألقت الضوء على ما كان موجودًا بالفعل فيما يتعلق بالعمل، ولكنه أصبح اليوم من المستحيل تجاهله من الناحية الهيكلية. ويعتمد الرخاء الاجتماعي على اللغة، والتواصل، والمعرفة، والإبداع؛ أي «العقل العام» الذي يصفه ماركس في فقرة في كتابه «مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي»، التي أصبحت جزءًا أساسيًّا من الفلسفة السياسية اليسارية المعاصرة. وعلى الرغم من أنَّ ما يلي قد يبدو مفاجئًا، فإن الفرق بين اليمين واليسار، بين فلوريدا وَفيرنو، لا يكمن في تحليلهما لِبِنْية الرأسمالية المعاصرة والتطورات الاجتماعية والسياسية التي رافقتها، بقدرِ ما يكمن في الدروس المستفادة التي يستقيها كلٌّ منهما منها. تبدو يوتوبيا العمل في مرحلةِ ما بعد الفوردية التي يتصورها فلوريدا بالنسبة إلى المفكرين اليساريين أنها قد تؤدي إلى أي شيء سوى عالم خالٍ من العمل؛ بدلًا من ذلك، فهي تضع شكلًا جديدًا للاستغلال، وربما يكون أكثر خطورة؛ نظرًا للقوة الأيديولوجية لسرد الأعمال المعاصرة، مثل ذلك الخاص بفلوريدا. يزدهر الإبداع بالفعل في ظل الرأسمالية المعاصرة، ولكن بقدر استخدامه لتوليد الربح، عادة ما يتم نزع فتيل الآثار السياسية المحتملة لهذا الوضع الجديد، على الأقل مؤقتًا. بالنسبة إلى اليسار، يمثل الاعتماد المتزايد للمجتمعات المعاصرة على أشكال العمل الإبداعي انفتاحًا سياسيًّا وخياليًّا؛ اعترافًا (متأخرًا) بأن الرأسمالية تحتاج إلى العمل أكثر بكثير من احتياج العمل للرأسمالية، وأن سيادة الدولة يمكن الاستعاضة عنها بمجتمع جديد يقوم على العقل العام.[53]

وعلى الرغم من الدروس المختلفة المستمدة من الآثار الاجتماعية والسياسية للعمل فيما بعد المرحلة الفوردية، فمن الغريب أن هناك وجهة نظر مشتركة تتعلق بما يشكله الإبداع وعلاقته بالفن والثقافة والجمال؛ ففي الفكر الاجتماعي والسياسي المعاصر، يبدو أن الإبداع قد أصبح العنصر الحاسم المعرِّف للإنسان؛ فلَم نعد «الإنسان العامل» بل «الإنسان المبتكر». وكما هو الوضع في حالة فلوريدا، يجد الإبداع اليساري مرجعيته في رؤية مثالية للعمل الفني، ووجهة نظر مشوهة لطابع الجماليات الكلاسيكية، كما يُنظر إليه على أنه شيء يجب أن يُمكَّن ويُطلق سراحه حتى تكون هناك حرية اجتماعية

حقيقية. في مقابلة أُجريَت مع فيرنو مؤخرًا، أشار إلى الدمج المقلق للجماليات مع الإنتاج، ولكنه بذلك يؤكد نظرة للجماليات تذكِّرنا بمزاعم فلوريدا نفسه حول وجود الإبداع في طبيعة الإنسان.[54] وبينما اعترف فيرنو في بداية هذه المقابلة الطويلة بأن معرفته بالفن الحديث «في الواقع محدودة للغاية»، لم يُبدِ تخوفًا من استخدام العديد من مفاهيمه الأساسية في مناقشات خاصة بالفن والجماليات، مثل «البراعة»، أحد التسميات العديدة للقدرة الإنتاجية الفطرية للبشر (التي يطلِق عليها أنطونيو نيجري في أعماله اسم «القدرة الأساسية»).[55] إذا كانت الخطابات اليسارية متفقة مع النقاط التي تجاهلها فلوريدا في احتفائه بظروف العمل في ظل رأس المال المعاصر، فإنها أقرت نفس التلميح البلاغي والمفاهيمي لتحويل النشاط البشري (أو على الأقل إمكاناته) كما هو إلى فن؛ إلى فكرة عن الفن لم تؤخذ من علم الاجتماع، وإنما من الأوهام حول علاقته المثالية بشيء يسمى «الإبداع».

ومن جديد، كان أثر ذلك هو كبت القدرات الأساسية و(على الأقل) الوظيفة السياسية المحتملة للفن والثقافة، حتى عندما ترتبط مع نشاط الحياة البشرية على ما هو عليه. بالإضافة إلى ذلك، فهو يضع الفن في مركز السياسة، ولكن فقط عن طريق القضاء على أهمية الفن بوصفه فنًّا. للفن والإنتاج الثقافي المعاصرَين خصوصية اجتماعية تلعب دورًا أساسيًّا في وظيفتهما السياسية. وهما لا يحتاجان إلى التفكير في أنفسهما بوصفهما مجالَي إبداع. في الواقع، يبدو أنهما كلما ابتعدا عن حركة الفكر والسياسة في الإبداع، كان من الأرجح أن يستطيعا الاستمرار في تحدي حدود طرقنا في التفكير، والرؤية، والوجود، والإيمان.

إن القضية هنا هي الحدود وكيف يمكن معالجتها على أفضل نحو. في بعض الأحيان في عمله، يبذل فلوريدا جهدًا كبيرًا لشرح كيفية وجود، أو احتمالية وجود، جوانب إبداعية في عمل القائم على التنظيف أو رعاية الحديقة في منزله أو غيرهما من العاملين في اقتصاد الخدمات الذين يحتك بهم يوميًّا أثناء أدائهم لأعمالهم. بالنسبة إليه، كان اقتراح أي شيء غير ذلك سيكون بمنزلة وصفهم بأن حياتهم أقل «إنسانية» من حياته هو شخصيًّا. بنحو ما، كان فلوريدا على حق في ذلك: فمن ذا الذي لا يريد أن يكون أستاذًا جامعيًّا أو مصرفيًّا بدلًا من أن يكون النادل الذي يقوم على خدمتهما؟ بطبيعة الحال، لا ريب أن الوضع كان سيصبح مختلفًا إذا كان النادل يمتلك المحل الذي يعمل به، وإذا كان المصرفي الذي أشار إليه ديفيد بروكس في الاقتباس الموجود في بداية هذا القسم

صرافًا وليس أحد المديرين وصناع القرار المهمين، أو إذا كان دخل الأستاذ الجامعي منخفضًا؛ حيث يعمل محاضرًا بالتعاقد وليس أستاذًا في إحدى الجامعات المرموقة ممن يتقاضون أجورًا مرتفعة. تكمن عبقرية نظام فلوريدا في تصور وجود يوتوبيا «داخل» الرأسمالية، يوتوبيا لا تتطلب أي توقف، أو تغير، أو تحول ثوري في السلوك. ويستشهد فلوريدا بأمثلة من الحاضر تشير إلى أننا بالفعل قد حققنا هذه اليوتوبيا، أو على الأقل بعضنا، وأننا في حاجة إلى دفع الأمور قُدُمًا حتى يتسنى لنا جميعًا أن نصعد إلى جنة العمل في مجال تكنولوجيا المعلومات. هل يمكننا جميعًا تفعيل جوهر الإنسان الفطري في داخلنا من خلال العمل الإبداعي؟ يبدو أن فلوريدا يؤمن بذلك. ولكن هناك جزء آخر من السرد في أعمال فلوريدا، وخاصة كتاباته في أعقاب الأزمة المالية لعام ٢٠٠٨، يشير إلى أن الطبقة المبدعة تشكل مجموعة صغيرة من العمال بالضرورة، وإن كانت مرغوبة على نحو كبير، يتعين على المدن والأقاليم والدول أن تكافح للحصول عليهم إذا كانت ترغب في أن ينتهي بها الأمر على قمة اللعبة الاقتصادية. لكنه أشار إلى أنه من دون الأمل في وجود إمكانياتٍ وقدراتٍ فردية أكبر على النطاق العالمي، تبدو قصة المدن التي تكافح لاجتذاب عمال تكنولوجيا المعلومات والسينما والتليفزيون وما شابه، أنها تفتقر إلى البصيرة اللازمة لخبير يريد أن يقودنا إلى المستقبل، حتى ذلك المستقبل الذي يشبه الحاضر إلى حد بعيد. وعلى الرغم من أن فلوريدا نادرًا ما يَستخدم المصطلح بنفسه، تعمل رؤيته داخل نطاق من الافتراضات والمعتقدات التي تعارفنا عليها باسم العولمة.[56] تظن الشخصية التالية التي سنعرضها أنها تقدم خريطة لهذا النطاق واحتمالاته، وتشير إلى كيف ولماذا يؤدي هذا الجهد لإظهار بعض الحدود الداكنة التي رُسمت حول فهمنا للحاضر على مستوى العالم.

(٣) رجل الحكايات: توماس فريدمان

حصل الأمريكي توماس فريدمان على جائزة بوليتزر ثلاث مرات، ومنذ عام ١٩٩٤، أصبح كاتب عمود الشئون الخارجية في صحيفة «نيويورك تايمز». وبالإضافة إلى كتابة مقال رأْي في صحيفة «ذا تايمز» مرتين أسبوعيًّا، كتب فريدمان خمسة كتب أدبية غير قصصية مؤثرة جدًّا وتعد ضمن الكتب الأكثر بيعًا، وتتناول الشرق الأوسط، والشئون الجيوسياسية والمالية الدولية، وأحداث ١١ / ٩، والأزمة البيئية المعاصرة.[57] موجِّهًا حديثه إلى الحكومات وقادة قطاع الأعمال في جميع أنحاء العالم (بالإضافة إلى طلاب المدارس

الثانوية، وربَّات البيوت، والجماهير في العديد من البرامج الحوارية التليفزيونية)، سطع نجم فريدمان باعتباره واحدًا من أبرز الأصوات في عصرنا. يرى فريدمان نفسه أقرب إلى العراف، ولكن وجه الاختلاف هو أنه يتكلم بوضوح تام دون ألغاز، وكلامه مدعمًا بالحس العام والحكايات الشخصية.

تمثل العولمة موضوع دراسة فريدمان والمبدأ التنظيمي الوحيد لنظرته إلى العالم وإنتاجه المتواصل من الأفكار والآراء والمعتقدات والمواقف والانتقادات والتنبؤات والمخاوف والآمال. في عام ١٩٩٩، كتب فريدمان كتاب «ليكزس وشجرة الزيتون»؛ حيث كشف النقاب بحماس كبير عما أسماه بالنظام الجديد للعولمة، في مقابل نظام الحرب الباردة الذي ساد في فترةٍ ما بعد الحرب العالمية الثانية.[58] وفقًا لفريدمان، مع سقوط جدار برلين في شتاء عام ١٩٨٩، ظهرت مجموعة جديدة من الأفكار والاتجاهات الديموغرافية ووجهات النظر المتعلقة بالعالم والتقنيات المحددة والقياسات والمخاوف إلى حيز الوجود، التي أدت ليس إلى تقسيم العالم (كما فعل منطق الحرب الباردة)، ولكن إلى جمع شمله. بالنسبة إلى فريدمان، العولمة هي «الدمج القوي بين الأسواق، والدول القومية، والتقنيات إلى درجة لم تَحْدث من قبل؛ بطريقة تمكِّن الأفراد والشركات والدول القومية من الوصول إلى جميع أنحاء العالم بطريقة أوسع وأسرع وأعمق وأرخص من أي وقت مضى، وبطريقة تمكِّن العالم من الوصول إلى الأفراد والشركات والدول القومية على نحو أسرع وأعمق وأرخص من أي وقت مضى.»[59] يصبح كل هذا ممكنًا من خلال رأسمالية السوق الحرة وكذلك (على الأقل في هذا الكتاب الأول حول العولمة، قبل أن يخفف الانهيار المالي من ولاء فريدمان الصريح لفريدمان الآخر، ميلتون فريدمان) ذكر بإخلاص رؤية الليبرالية الجديدة:

> كلما سمحتَ بتولي قوى السوق زمام الأمور، وكلما فتحتَ اقتصادك أمام التجارة والمنافسة الحرة، أصبح الاقتصاد أكثر كفاءة وازدهارًا. وتعني العولمة انتشار رأسمالية السوق الحرة تقريبًا في كل بلد من بلدان العالم؛ ومن ثم، تمتلك العولمة أيضًا مجموعتها الخاصة من القواعد الاقتصادية؛ القواعد التي تدور حول الانفتاح، ورفع القيود، والخصخصة، حتى يستطيع الاقتصاد أن يصبح أكثر قدرة على المنافسة وتتزايد جاذبيته للاستثمارات الخارجية.[60]

تشير كلمة ليكزس الواردة في عنوان الكتاب إلى مصنع السيارات اليابانية الفائق الحداثة والكفاءة وذي الفكر التقدمي، الذي ذهب بلبِّ فريدمان عندما زاره عام ١٩٩٢،

في حين أن شجرة الزيتون تشير إلى دفاع الفلسطينيين العنيف عن حقهم في العودة إلى أرضهم أمام إسرائيل. ولكن، كما هو معتاد من فريدمان، فقد حوَّل هذه الأشياء الحقيقية إلى استعارات؛ بحيث تمثل ليكزس التقدم والرخاء والسعي لما هو جديد، في حين أن شجرة الزيتون تمثل الهوية والقومية والتمسك الشديد بالماضي. في جميع أعمال فريدمان، رغم أن ذلك يبدو بوضوح أكبر في الكتب والأعمدة التي كتبها في أعقاب الأزمة المالية عام ٢٠٠٨ وزيادة المخاوف الخاصة بالبيئة، يريد فريدمان أن يشير إلى الحاجة إلى دمج كلٍّ من الليكزس (التطور الرأسمالي السريع النمو) وشجرة الزيتون (الهوية، والبيئة، والأصول الثقافية) دمجًا سليمًا، ولكنه ببساطة لا يستطيع أن يمنع نفسه من الاعتقاد بأن السيارة ليكزس هي الوسيلة الفُضلى والوحيدة التي يمكن أن تقودنا إلى مستقبل أفضل. أما أشجار الزيتون، فليس لديها عدادات السرعة، فضلًا عن امتلاكها لأجهزة راديو أقل من شأنها أن تسمح لنا بالاطلاع على الأحداث العالمية أولًا بأول على طول الطريق السريع للرخاء الرأسمالي.

وبعد مرور ست سنوات على نشر كتاب «ليكزس وشجرة الزيتون»، قام فريدمان بتحديث أفكاره حول العولمة في كتاب «العالم مسطح: تاريخ موجز للقرن الحادي والعشرين». أدرك فريدمان أثناء رحلة إلى بنجالور عام ٢٠٠٤ أن الأمور قد تغيرت مرة أخرى، من الإصدار الثاني للعولمة (بلغة فريدمان) الذي يعتمد على الاندماج العالمي للدول والشركات الذي يدفعه النمو المستمر لتكنولوجيا الاتصالات (من التلغراف إلى شبكة الإنترنت العالمية، من عام ١٨٠٠ إلى عام ٢٠٠٠)؛ إلى الإصدار الثالث للعولمة، الذي يعتمد أكثر على الأفراد الذين أصبحوا أكثر قدرة على التعاون والمنافسة عالميًّا بطرق جديدة تمامًا، وذلك بفضل التقارب الذي تدفعه تكنولوجيا الاتصالات الجديدة (الكمبيوتر الشخصي، وكابلات الألياف الضوئية، وبرامج تدفق العمل). إذا كان الإصدار الثاني للعولمة يدور حول تحول كبرى المؤسسات والدول إلى نظام عالمي بفضل الثورة الصناعية ونمو تكنولوجيا المعلومات (وكان الإصدار الأول للعولمة، من عام ١٤٩٢ وحتى عام ١٨٠٠، يتعلق أكثر بأصول النظام القائم على الدولة القومية، وكيف شكَّلَته «قوة البلد ... وكيف يمكن استخدامها بأسلوب خلاق»)؛ إذن فالإصدار الثالث للعولمة يتناول نهاية الأمة وبداية تمكين الفرد.[61]

عند النظر إلى كتابَي فريدمان جنبًا إلى جنب، نرى أسلوبَي سرد مختلفين تمامًا للتاريخ، وكذا نظريات مختلفة تمامًا للتاريخ. في كتاب «ليكزس وشجرة الزيتون»، على

سبيل المثال، كانت نقطة التصدع هي سقوط جدار برلين الذي يفصل تمامًا بين نظامَين دوليَّين مختلفين للغاية، وهما نظام الحرب الباردة ونظام العولمة. ويحذر فريدمان من أن التظاهر بأن العولمة هي مجرد موضة اقتصادية أو «اتجاه عابر، لا يختلف نوعيًّا عما جاء قبله، يعني التغافل عن الحقيقة الأكثر أهمية المتعلقة بعالمنا الحالي.»[62] وفي كتاب «العالم مسطح»، أصبح يُنظر للعولمة على أنها ستستمر لمدة أطول من ذلك بكثير، وأنها ستمرُّ بمراحل مختلفة. ومن خلال هذا السرد الأحدث، تُبنى التحولات كلٌّ فوق الآخر، بطريقة تصل بها، في نهاية المطاف، إلى تحرير الفرد على مستوى العالم. ويهيمن على السرد الأول الأسلوب التزامني لكتابة التاريخ، في حين يتميز السرد الثاني بالأسلوب التعاقبي.

وفي إطار المجال المعروف باسم فلسفة التاريخ، ينظم الأسلوب التزامني (بمعنى «الذي يحدث في الوقت عينه») الأحداثَ والظواهرَ لِلَحظة تاريخيةٍ ما في هيكل منفصل يتناقض جذريًّا مع غيره من الهياكل (وإن كانت توجد أوجه شبه فيما بينها). ويتبع التأريخ التزامني منطقًا مكانيًّا يؤكد على العلاقات بين وحدات أي شريحة معينة من الزمن، في حين أن التأريخ التعاقبي يتبع منطقًا زمنيًّا يؤكد على حركة الظواهر من هيكل إلى هيكل تالٍ (وذلك كما يشير الاسم الذي يعني هذا «عبر الوقت»). ويؤكد الأسلوب التزامني على الانفصال وعدم الاستمرارية وتكامل اللحظة التاريخية المنفصلة، فيما يؤكد الأسلوب التعاقبي على التراكم والاستمرارية وتكامل الظواهر التي تتجاوز الفترات التاريخية.

بطبيعة الحال، لا يهتم فريدمان بالمشكلة النظرية الخاصة بتنظيم التاريخ وسرده، إلا أنه لا مفر لجميع حججه من أن تتشكل من خلال إساءة إدارته لهذه المشكلة. إن الاهتمام بتنظير التاريخ هو تمامًا ما يدفع أهم الأعمال التي تتناول العولمة. خذ كمثالٍ الجغرافيَّ ديفيد هارفي؛ ففي كتابه «حالةُ ما بعد الحداثة»، يشير إلى التحول من الحداثة إلى ما بعد الحداثة عن طريق التأكيد على الأشكال المرنة الجديدة للتراكم التي أصبحت ممكنة بفضل التطورات في مجال تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات.[63] يرى هارفي أن نقطة التحول المهمة جاءت خلال سبعينيات القرن العشرين مع أزمات النفط؛ فقد أصبحت الرأسمالية الصناعية (بناءً على خط تجميع هنري فورد) جامدة للغاية؛ حيث إن النموذج الهرمي الرأسي المجزأ تمامًا هذا لم يكن يمكنه أن يستجيب بالسرعة والفاعلية الكافِيَين في مواجهة الأزمات؛ سواء فيما يتعلق بالموارد، أو جراء الإفراط في الإنتاج، أو

نقص الاستهلاك، أو الاضطرابات العمالية. أما ما ينتج عن مرحلةِ ما بعد الفوردية (اعتمادًا على العديد من الخصائص نفسها التي وصفها فريدمان) فهو تزايُد المرونة في القدرة على إدارة الأزمات؛ إذن، على سبيل المثال، عندما تصبح النقابات العمالية في هايتي قوية للغاية، يمكن لشركة تعمل في مرحلةِ ما بعد الفوردية أن تنقل مصنعها بسهولة وهدوء إلى بلد تتميز قوة العمل به بخضوع أكبر، مثل ماليزيا وفيتنام.

إن ما يطلق عليه فريدمان «منصة العالم المسطح»، هو ما يدعوه هارفي «ضغط الزمان والمكان»، ويشكل مفهوما التغيير هذان حدود وفرص الأفراد، والدول، والشركات المتعددة الجنسيات. إلا أن الفارق الكبير بين هذين المفكرين يتمثل في مفهومهما عن أساس هذا التحول التاريخي الحاسم. يرى فريدمان التحول الكبير إلى العولمة باعتباره ثمرة التطور التكنولوجي، لكن من أين يأتي هذا التطور التكنولوجي الهائل؟ من خلال أفراد عظام يعملون في بيئات حرة! ومن أين يأتي هؤلاء الأفراد العظام والبيئات الحرة هذه؟ من أمريكا ومن الرب (وهو إصرار على أهمية وضع الولايات المتحدة الأمريكية في الاعتبار؛ مما يعيدنا إلى مزاعم زكريا في كتابه «عالمُ ما بعد أمريكا»)! عندما ننظر إلى العالم المسطح، نرى أن الخوف الأكبر لفريدمان هو «خسارة أمريكا لوضعها»، وكذا عدم السماح للعبقرية التي وهبها الرب للبشر بالازدهار حتى تكون لديهم الفرصة لبناء مصانع ليكزس جديدة (وهي وجهة نظر للإنسان تذكِّرنا ببعض مزاعم وأفكار ريتشارد فلوريدا).

على النقيض من ذلك، يوضح هارفي التغيير التام في مرحلةِ ما بعد الفوردية من خلال تحليل التحولات التي حدثت داخل الرأسمالية. بالنسبة إلى هارفي، تُعد الرأسمالية هي النظام الذي شكَّل الحرب الباردة والعولمة، وليس العكس، كما يريد فريدمان أن يصف الأمر؛ فمنطق الرأسمالية مُنَظَّم حول إنتاج السلع والعلاقات الاجتماعية التي تنشأ عن هذا الشكل المحدد للإنتاج. وهناك بعض القواعد الأساسية للرأسمالية (مثل حتمية إنتاج الربح، والعلاقات الاجتماعية غير المتساوية المتمثلة في إنتاج السلع، وضرورة التوسع المستمر) التي تحدد هذا الوضع وتضع هيكله، منذ تحوله من نظام الإقطاع وحتى الوقت الحاضر. قد يكون الشكل المتطور للتراكم قد تحول من التصنيع إلى المضاربات المالية، إلا أن القواعد الأساسية لم تتحول. من خلال التركيز على الهوية واختلاف رأس المال على مدى تاريخ الرأسمالية الطويل (الهوية من حيث استمرارية ثبات قواعدها، والاختلاف من حيث تغير الشكل السائد للتراكم)، استطاع هارفي أن يحلل الهوية والاختلاف بين البشر، والدول، والتشكيلات الثقافية بمرور الوقت.

إن الهدف من ذكر هارفي في النقاش هو إظهار مدى اختلاف فريدمان عن الآخرين عند النظر في العولمة. إن تعبير المرء عن آرائه وتقديم حججه حول العالم (كما يفعل فريدمان في مقالاته في «نيويورك تايمز») شيء، ولكن التظاهر بعرض نقد منهجي وصارم لِلَحظة تاريخيةٍ ما، كما يفعل فريدمان، أمر مختلف تمامًا؛ على سبيل المثال، يبدأ فريدمان كتابه «ليكزس وشجرة الزيتون» بتأكيد قوي على أن العولمة نظام دولي «حل الآن محل نظام الحرب الباردة القديم، ومثلها في ذلك مثل نظام الحرب الباردة، تمتلك العولمة قواعدها ومنطقها الخاصين اللذين يؤثران اليوم، تأثيرًا مباشرًا أو غير مباشر، على السياسة والبيئة والجيوسياسة والاقتصاد تقريبًا في كل بلد من بلدان العالم.»[64] وهذا هو الخطأ التصنيفي الذي ذكرناه من قبل؛ فالحرب الباردة لم تكن نظامًا سياسيًّا واقتصاديًّا، بل كانت وسيلة لوصف العلاقات الجيوسياسية التي يحكمها شكلان اجتماعيان متنافسان، أحدهما رأسمالي والآخر اشتراكي. وبالمثل، لا تؤثر العولمة على أي شيء؛ وذلك لأنها ليست نظامًا، بل هي أثر أو نتيجة لنظام العولمة الخاص بالرأسمالية، وهي نقطة (على الأرجح واحدة من نقاط قليلة) يتفق عليها الاقتصاديون الكلاسيكيون الجدد والماركسيون على حدٍّ سواء.

لا يبدي فريدمان، على عكس زميله في صحيفة «نيويورك تايمز» بول كروجمان، اهتمامًا كبيرًا بالاقتصاد السياسي. صحيح أن فريدمان يشير إلى فكرة جوزيف شومبيتر الخاصة بـ «التدمير الخلاق»، ويحتفي بنظرية ديفيد ريكاردو حول الميزة النسبية، كما يتفاجأ بمعرفة أن ماركس كان لديه بالفعل ما يقوله عن الرأسمالية؛ ومع ذلك، يرى فريدمان أن الرأسمالية ليست منطقًا اقتصاديًّا، ولكنها بالأحرى حدث مهم قديم وغير مثير في تاريخه المفرط في التبسيط. يضع فريدمان فرانسيس فوكوياما مع مشاهير الرؤساء التنفيذيين (مثل بيل جيتس من مايكروسوفت، ومايكل ديل من شركة ديل، وأندرو جروف من شركة إنتل)؛ بغية إخفاء أي تحليل للرأسمالية سوى أسعار أسهم الشركات التي يستثمر فيها. في نهاية المطاف، يرى فريدمان أن أي نقد للرأسمالية يجب أن يتماشى مع فهمه للتاريخ: «إن إضفاء الصبغة الديمقراطية على التمويل والتكنولوجيا والمعلومات لم يُطِحْ بكل الجدران الحامية للنظم البديلة فحسب؛ بدءًا من الكتاب الأحمر الصغير لِماو إلى «بيان الحزب الشيوعي»، إلى دول الرفاهة المنتمية لأوروبا الغربية إلى رأسمالية المحسوبية في جنوب شرق آسيا، بل أدى إلى ظهور مصدر جديد للقوة في العالم، وهو ما سأسميه القطيع الإلكتروني.»[65] إن القطيع الإلكتروني هو الاسم الذي أطلقه

فريدمان على المتاجرين بالأسهم والسندات، والعملة، وكذلك الشركات المتعددة الجنسيات التي، وفقًا لرأيه، أصبحت المولِّد الرئيسي لنمو رأس المال، كما حلَّت محل الحكومات بقيامها هذا الدور. أما سبب وكيفية التنسيق التام بين الحكومات والقطيع الإلكتروني (وهو ما كان عليه الحال بالفعل بدايةً من تولِّي إدارة كلينتون الحكم في الولايات المتحدة الأمريكية وتعزيز دينج شياو بينج لاقتصاد السوق الاشتراكي في الصين)، فهو ليس جزءًا من قصة فريدمان.

ولكن يجب ألا يفاجئنا تشجيع فريدمان للسوق الحرة، ويجب ألا نظن أنه أمر استثنائي، كما ينبغي الثناء عليه لتتبعه العولمة مثل صائد الهاربين؛ حيث التقط رائحتها في مكانٍ ما وربطها بظواهر أخرى، مهما كانت تبدو متباينة عنها وغير مرتبطة بها. لكن ينصبُّ اهتمامنا أكثر على تحليل كيفية جمع فريدمان (حتى على نحو غير واعٍ) مجموعة من المبادئ معًا، وكيفية ربط استراتيجياته التمثيلية بالأطروحات التي أوضحناها في الفصل الأول من الكتاب. وبدلًا من الغضب من الفقرة التي أوردها ماركس في «بيان الحزب الشيوعي»، والتي يقول فيها: «كل ما هو صلب، يذوب في الهواء»، التي اقتبسها فريدمان في كتابيه «ليكزس وشجرة الزيتون» و«العالم مسطح» (والتي استغرقت صفحة كاملة في الكتاب الأخير)؛ ربما كان على فريدمان أن ينظر أيضًا في الفكرة الرئيسية لماركس في عمله «الأيديولوجية الألمانية» التي تقول: «إن أفكار الطبقة الحاكمة في كل عصر هي الأفكار الحاكمة؛ أي إن الطبقة التي تمثل القوة المادية الحاكمة للمجتمع، هي في الوقت نفسه قوته الفكرية الحاكمة.»[66]

كتب ماركس أيضًا، مثل فريدمان، عن الشئون الخارجية لواحدة من كبرى صحف نيويورك. ولكن، على عكس فريدمان، كان ماركس يدرك جيدًا أن كيفية تعبيره عن أفكاره ترتبط بمحتواها. وكان في كثير من الأحيان يغير أسلوبه ليتناسب مع النوع الأدبي الذي يتعامل معه؛ فقد اختلفت طريقته في الكتابة على نحو كبير في الأعمدة التي يزيد عددها عن ٣٥٠ التي كتبها لصحيفة «نيويورك تريبيون» (١٨٥٢–١٨٦١)، أو السجالات مثل «بيان الحزب الشيوعي» (١٨٤٨)، أو التحليل الأكثر دقة وطولًا الذي قدمه في كتابه «رأس المال» (١٨٦٧). عندما كان يكتب لجريدة «تريبيون»، التي كانت في ذلك الوقت لها أكبر نسبة توزيع على مستوى العالم، والتي تصل إلى ٣٠٠ ألف قارئ أسبوعيًّا، كان ينشئ روابط بعيدة المدى بين البلدان العديدة التي كان يكتب عنها، مع الاهتمام بنحو خاص بالصين، وأمريكا، والهند. كان ماركس يستخدم ضمير المتكلم

(باستثناء استخدام الضمير «نحن» عندما يشترك في الكتابة مع فريدريك إنجلز)، وكان يملأ عموده المكون من ألف كلمة بأسماء الأفراد وتفاصيل السياسات، فضلًا عن مراجعه الأدبية المعتادة، والنكات، والغضب المتهكم. ويختلف هذا، بطبيعة الحال، عن أسلوب الجدل المنظم في «بيان الحزب الشيوعي»، بل ويختلف بنحو صارخ عن النقد المنهجي في كتاب «رأس المال». في الواقع، إن المغزى الأساسي لكتاب «رأس المال» (إن لم يكن للمشروع الماركسي بأكمله) هو تحليل الرأسمالية بطريقة تمثل منطقها الهيكلي، هذا المنطق الذي يُنتج بعض الآثار المتفاوتة، ليس بسبب الإجراءات الجشعة وغير العادلة للرأسماليين، ولكن بسبب أن هذا التفاوت أمر داخلي في النظام ذاته، وفي منطق السلع بنحو خاص؛ ولهذا السبب، يبدأ الكتاب بتحليل «للسلع البسيطة». فقط من خلال الوحدة الأساسية للإنتاج الرأسمالي يمكن فهم النظام الأكبر للرأسمالية.

إن الشكل الذي اتخذه كتاب «رأس المال»؛ أي تحوُّله من الحالة الخاصة لشكل السلعة إلى النظام العام للرأسمالية، يهدف إلى تعليم القراء كيفية فهم حياتهم، ليس عن طريق إلقاء المواعظ التي تحرضهم ضد رؤسائهم الجشعين، أو إلقاء اللوم عليهم لتسبُّبهم في هذا الوضع البائس لأنفسهم (وكلاهما يأتي بنتائج عكسية)، ولكن من خلال فهم كيفية وصولهم إلى هذا الوضع الحالي في المقام الأول، وكيفية تكرار ذلك يوميًّا وبانتظام. يرى ماركس أن هذا النقد الأكثر موضوعية هو وحده ما يمكن أن يقدم الخريطة الأوضح لكيفية عمل النظام. وعلاوة على ذلك، والأهم هنا، أن هذا النقد الموضوعي (الذي انعكس شكليًّا، مثل عمليات التقعير الأدبي والفلسفي العظيمة) يكشف عن أن عدم المساواة الناتجة عن الرأسمالية لا تشير إلى أن هناك خللًا في النظام أو أنه معطل مؤقتًا، ولكنها تفيد بأنه يعمل جيدًا؛ فمن السهل أن تنتقد الرأسمالية عندما تطول الحرائقُ المصانعَ المتداعيةَ، أو يرفض أرباب العمل دفع أجور العمال، ولكن التحدي الأهم والأصعب هو صياغة نقد للنظام عندما تُنفَّذ بنود التعاقد بين أرباب العمل والعمال ويعمل أرباب العمل بنزاهة ورحمة. ويتطلب هذا النقد البنيوي أسلوبًا حياديًّا ومتجردًا أكثر، قلَّ أنْ نجده في مقال رأي تقليدي.

المعضلة هنا (والنقطة التي تعود بنا إلى عمل فريدمان) هي أنه ليس من السهل استخدام مثل هذا الأسلوب، كما أنه ليس جذابًا على نحو مباشر بالنسبة إلى مجموعة متنوعة من القراء. وفي المقابل، تتَّسم الصحافة بكونها مناسبة بنحو استثنائي لجذب القراء بسردها الجذاب والسهل الاستيعاب. ونحن الآن بصدد تعيين الحدود العامة

الأساسية للعمل الأكاديمي والصحفي؛ إذ يؤكد العمل الأكاديمي على التجرد العلمي على حساب سهولة الوصول للقراء واتصافه بطابع جذاب، بينما يركز العمل الصحفي على الأشياء الصغيرة الخاصة بالحياة اليومية على حساب التجرد الصارم والبحث الأكاديمي التقليدي. بطبيعة الحال، هذه تعميمات، وهناك العديد من الكتَّاب الذين يحاولون حل هذه المعادلة الصعبة، مثل علماء الأنثروبولوجيا الأكاديميين الذين يقومون بالتنظير عن طريق الوصف المكثف، أو من خلال مقالات المراجعات الطويلة في مجلة «نيويورك ريفيو أوف بوكس»، أو «ذا تايمز ليتراري سبلمنت». ومع ذلك، في نهاية المطاف، للكتابة الأكاديمية والصحافة حدود وإمكانيات مختلفة على نحو لا يمكن إنكاره، ولا تتفوق إحداهما بالضرورة على الأخرى.

إن كتابَي «ليكزس وشجرة الزيتون» و«العالم مسطح» عبارة عن دراستين ضخمتين (٤٩٠ و٦٠٠ صفحة على التوالي) كُتبتا بأسلوب مطابق للأسلوب المكتوبة به أعمدة فريدمان في صحيفة «نيويورك تايمز». وهذا هو بالضبط الأسلوب الصحفي الذي استخدمه في كتابة كتبه التي أصبحت أكثر الكتب بيعًا، والذي يهدف من خلاله إلى تقديم عمل يعرض أكثر من رأي واحد؛ حيث نستطيع تحديد التجسيدات الأقوى المعتمدة على الحس العام التي تتناول العولمة والعالم المعاصر.[67]

يتمثل أول وأقوى أسلوب شكلي عند قراءة أي شيء كتبه فريدمان في استخدامه لضمير المتكلم المفرد لتقديم العديد من الحكايات الشخصية. لا يمكن للمرء أن يغض الطرف عن هذا؛ فكل فكرة تبدأ بحكاية مستقاة من رحلات فريدمان المستمرة حول العالم. ويمكن أن نأخذ الحكاية الأساسية لكتاب «ليكزس وشجرة الزيتون» بوصفها مثالًا على ذلك. عندما كان فريدمان في اليابان عام ١٩٩٢، زار مصنع سيارات ليكزس الواقع خارج حدود مدينة تويوتا وأثار إعجابه، بل وذهوله، مدى تقدم التكنولوجيا المستخدمة في إدارة العمليات هناك. يقول: «ظللتُ أحدق في هذه العملية، وأفكر كم استغرقهم الأمر من تخطيط وتصميم وتكنولوجيا لحمل الذراع الروبوتية هذه على القيام بعملها، ثم تتحرك في كل مرة، بالزاوية المطلوبة، بحيث يمكن لهذا السلك الصغير جدًّا أن يلتقط آخر جزء من المطاط الساخن حتى يبدأ الروبوت في العمل مع النافذة التالية.»[68]

وبعد زيارة فريدمان لمصنع ليكزس، وخلال ركوبه أحد قطارات شبكة السكك الحديدية اليابانية الفائقة السرعة للعودة إلى منزله، يوضح أنه توقف أثناء قراءة

الصحيفة عند مقال يتناول ما أثارته المتحدثة باسم وزارة الخارجية الأمريكية من ضجة في الشرق الأوسط عندما كانت تعلق على اللاجئين الفلسطينيين. يقول فريدمان:

> كنت أتنقل بسرعة ١٨٠ ميلًا في الساعة على متن أحدث قطار في العالم، وأنا أقرأ هذا المقال عن أقدم ركن من أركان العالم. لقد تبادر إلى ذهني كيف أن هؤلاء اليابانيين، الذين شيدوا مصنع ليكزس الذي زرته لتوِّي وصنعوا هذا القطار الذي أركبه، يصنعون أعظم السيارات الفاخرة في العالم باستخدام الروبوتات. وهنا، في الجزء العلوي من الصفحة الثالثة من صحيفة «هيرالد تريبيون»، لا يزال مَن عشت بينهم لسنوات عديدة في بيروت والقدس، الذين كنت أعرفهم جيدًا، يقتتلون لتحديد من يمتلك شجرة الزيتون؛ ومن ثم، خطر ببالي أن ليكزس وشجرة الزيتون كانا في الواقع رمزين جيدين لحقبةٍ ما بعد الحرب الباردة هذه: لقد بدا أنَّ نِصْف سكان العالم قد خرجوا من الحرب الباردة وفي نيتهم تصنيع سيارات ليكزس أفضل، وكرسوا أنفسهم لتحديث اقتصاداتهم وتنظيمها وخصخصتها بهدف الازدهار في ظل نظام العولمة. بينما كان نصف سكان العالم … لا يزالون منخرطين في الصراع على من يملك شجرة الزيتون.[69]

ما هي بالضبط الحكاية؟ كيف تعمل؟ وكيف ترتبط استراتيجياتها الشكلية بمحتواها؟ كيف ستبدو كتب فريدمان لو حذفنا منها هذه الحكايات؟ وكيف يمكن للحكاية أن ترتبط بالأفكار السياسية لفريدمان — أي حسه العام، وفهمه للأمة، والرأسمالية — ومواقفه الأخلاقية؟

إن الحكاية هي قصة موجزة تروي حادثة حقيقية (عادة، ولكن ليس دائمًا، من السيرة الذاتية) وهدفها الأساسي هو الكشف عن حقيقة تتجاوز خصوصية الحادثة نفسها. ويعني المقابل الإنجليزي لهذه الكلمة باللغة اليونانية «غير المنشورة»؛ أي إن الحادثة لا يمكن التأكد من صحتها، كما لا يوجد مصدر لها سوى الراوي. وعلى الرغم من إيجاز تلك الحكاية، فإنها عادة ما يكون لها الهيكل الثلاثي الذي للسرد الطويل: عرض الموقف، وحدوث توترٍ أو أزمةٍ ما، والتوصل إلى حل. أما الصفة المميزة للحكاية، فهي افتقارها إلى التعقيد وليس قِصَرها. في «الحكاية والتاريخ»، وهو مقال يتتبع تاريخ واستخدام الحكاية في أوروبا، يوضح ليونيل جوسمان أنه قد يجوز استدعاء الحكاية

لتوضيح «مشكلة أو حتى مفارقة، لكنها لن تؤدي في المعتاد إلى إعادة النظر في جوانب المشكلة أو المفارقة.»[70]

وتمتلك الحكاية إمكانات مزدوجة نتيجة لتدخلها الشكلي: إمكانات رجعية وراديكالية. باعتبارها مجازًا رجعيًّا، تؤكد الحكاية وجهات نظر الحس العام الخاصة بالعالم والحالة الإنسانية وتعيد إنتاجها. وهي أيضًا وضعية؛ فهي تعطي معنًى للحادثة نفسها من خلال فصلها عن سياق أكبر من المعنى. بعبارة أخرى، فإن الحكاية تضفي أهمية خاصة على الحادثة؛ حيث تجمد ديناميكية النظام الأكبر الذي تعمل في إطاره الحادثة، وتستثمر الكثير من المعاني في هذا الجزء المنفصل. أما بالنسبة إلى حكاية فريدمان الخاصة بِليكزس وشجرة الزيتون، فكل هذا يبدأ باليابان.

وحتى إذا نحَّيْنا حقيقة الكساد الياباني جانبًا، (الذي كان بالفعل قاسيًا للغاية في وقت نشر كتاب «ليكزس وشجرة الزيتون»)، وتظاهرنا بأن الكفاءة اليابانية ومرونة الشركات في الاقتصاد الياباني لم تكونا موضعًا للتساؤل على الأقل منذ مطلع تسعينيات القرن العشرين، فلا تزال هناك حاجة للنظر في السياق الذي ولدت فيه المعجزة الاقتصادية اليابانية. إن الاقتصاد الياباني ذا معدل النمو المرتفع، من نهاية الاحتلال الأمريكي عام ١٩٥٢ حتى دورة الألعاب الأولمبية في طوكيو عام ١٩٦٤، يجب أن يُفهم من حيث السياق الجيوسياسي الأكبر، الذي تحميه المظلة النووية الأمريكية، ويغذيه المسار العكسي (خيانة وعودِ ما بعد الحرب مباشرة فيما يتعلق بالديمقراطية ونزع السلاح) الذي اتبعه حكم الحزب الواحد؛ وهو الحزب الديمقراطي الليبرالي بدايةً من عام ١٩٥٥. بالنسبة إلى معظم فترة النمو المرتفع، تقلصت الحريات المدنية إلى حد كبير بحيث إن أي تعبير عن المعارضة عادة ما كان يُكبَت، وكان الرد المعتاد هو: «كيف يمكنك أن تتذمر في ظل السرعة التي ينمو بها الاقتصاد؟» ولكن لم يكن من الصعب جدًّا التمييز بين النمو الاقتصادي والرخاء الاقتصادي (كما فعلت حركات الطلاب والفلاحين الضخمة في اليابان خلال ستينيات القرن العشرين وسبعينياته). ربما تكون اليابان قد أصبحت ثاني أكبر اقتصاد في العالم، ولكن الشعب الياباني لا يشعر بأنه شعب ثري جدًّا.

استندت المعجزة الاقتصادية اليابانية (نمو الناتج المحلي الإجمالي بمعدل يزيد عن عشرة بالمائة على مدى عقود) إلى سياسة اقتصادية وطنية؛ حيث لم يكن هناك أي فصل على الإطلاق بين المؤسسات اليابانية الخاصة والعامة. لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية

لتشجع مثل هذا الاقتصاد الموجه (حددت وزارة التجارة الدولية والصناعة اليابانية بإتقان شديد العلاقةَ المتبادلةَ بين القطاعات التجارية، والمصرفية، والمالية للاقتصاد الياباني) لولا وجود ضرورة لحماية نفسها من الصين والتهديد المحتمل المتمثل في انتشار الاشتراكية في جميع أنحاء شرق وجنوب شرق آسيا.

بالإضافة إلى ذلك، عادت القومية اليابانية بروح انتقام على مدى العقود القليلة الماضية. تواترت تعليقات حاكم مدينة طوكيو، شينتارو إيشيهارا، المعادية للمهاجرين، وأصبح انعدام الثقة الطويل الأمد في اليابان من قِبل مستعمراتها السابقة (وخاصة كوريا والصين) شائعة. في الواقع، يمكن للمرء أن يجادل بأن هناك مناوشات حول شجرة الزيتون في اليابان أكثر من سيارات ليكزس؛ فبدلًا من تقديم الحكمة وتوفير سبيل غير معتاد إلى معنًى أعمق، تعزِّز حكايات فريدمان الصور النمطية التي تعوق التفكير النقدي.

إلا أن الحكاية لا تكون دائمًا في خدمة هذه الوظيفة الرجعية. بدلًا من ذلك، قد يربك استخدامُ الحكاية الرواياتِ المهيمنةَ على العالم والتاريخ، وتحديدًا من خلال طريقة خروجها عن الحدود أو تحولها إلى شوكة في حلق التاريخ؛ على سبيل المثال، في كتاب «تاريخ الحكاية»، يطلق جويل فاينمان على الحكاية أصغر وحدة في السجل التاريخي، وعلى هذا النحو فإن الحكاية «هي الشكل الأدبي الذي «يتيح للتاريخ أن يحدث» من خلال طريقته في افتتاح السرد الغائي، ومن ثَمَّ اللازمني، من بداية ووسط ونهاية.»[71] وعلى هذا النحو، يقول فاينمان إن الحكاية يمكنها أن تحرر الفكر مما يسمى بنظرية «الرجل العظيم» أو نظرية «الحدث الكبير» الخاصة بالتاريخ.

القضية هنا هي أن المؤرخ غير التقليدي الذي يرفع قدر الحكاية في مقابل الأرشيف التاريخي التقليدي يمكنه أن يفعل ذلك فقط من خلال الاستماع بعناية فائقة لشيء غير محسوس تقريبًا في الحادثة التي تنبثق عنها الحكاية. يشبه هذا الاستماع الخاص بالتحليل النفسي؛ حيث يستمع المحلل لأصغر التفاصيل ويتتبعها (بدلًا من الالتفات للمشاكل المفترض أنها كبيرة)؛ وذلك للوصول إلى صلب المشكلة. وحيث إن الروايات السائدة لحياة المريض تعمل على إبقاء المريض على الحالة التي هو عليها، عادةً ما تفتح التفاصيل الطارئة (زلة لسان، أو نكتة، أو ملاحظة عابرة) الطريقَ إلى اللاوعي. ويتطلب الاستماع بهذه الطريقة انفصالًا محددًا، وأهم من ذلك أنه يتطلب ضبط النفس لمنع فرض معنًى على القضية أو الحدث. وبدلًا من استخدام الحكاية استخدامًا نفعيًّا، يجب

أن تُعطى الحكاية الفرصة للوجود على نحو منفصل عن الروايات المهيمنة. عندها فقط ستنطلق الحكاية وتقدم طرقًا جديدة وقوية للتفكير في العالم.

إلا أن مثل هذا الاستخدام الراديكالي للحكاية لا يأتي عن طريق إعادة تشكيل دقيق وصبور ومتقن للتفاصيل، ولكن من خلال استخدامها على نحو منهجي وتعليمي وثاقب. لنأخذْ برتولت بريخت على سبيل المثال؛ من عشرينيات القرن العشرين وحتى خمسينياته، ألَّف بريخت مجموعة متنوعة من الحكايات ومقتطفات قصيرة أخرى، جُمع بعضها تحت عنوان «حكايات السيد كونر».[72] لم يكن السيد كونر، أو السيد كيه، في عمل بريخت متحذلقًا ولا شعبيًّا، ولا أكاديميًّا ولا هاويًا فكريًّا، بل كان صوت بريخت للتعليق على مجموعة متنوعة من الموضوعات المختلفة؛ على سبيل المثال، كانت الحكاية التالية تحت عنوان «رجل له عزم»:

> طرح السيد كيه الأسئلة التالية: «كل صباح يشغِّل جاري بعض الموسيقى على الجرامافون. لماذا يشغل الموسيقى؟ لقد سمعت أن ذلك بسبب أدائه لتمارين رياضية. ولِمَ يؤدي هذه التمارين؟ لأنه يحتاج لأن يكون قويًّا، كما سمعت. لماذا يحتاج لأن يكون قويًّا؟ لأن عليه أن يتغلب على أعدائه في البلدة، كما يقول. ولِمَ يجب عليه أن يتغلب على أعدائه؟ لأنه يريد أن يأكل، كما سمعت.»
>
> وبعد أن علم أن جاره يشغل الموسيقى لأداء التمارين الرياضية، ويؤدي التمارين ليكون قويًّا، ويريد أن يكون قويًّا ليقتل أعداءه، ويقتل أعداءه ليأكل، طرح السؤال التالي: «لماذا يأكل؟»[73]

إحدى إجابات هذا السؤال الأخير هي «للبقاء على قيد الحياة». وقد يرد السيد كيه على ذلك بالسؤال التالي: «ولماذا يبقى على قيد الحياة؟» وهكذا تستمر هذه الأسئلة التي تبدأ بـ «لماذا» إلى ما لا نهاية. ولكن هذا الاقتصار المحبط على الأسئلة التي تستفهم عن السبب ليست لعبة بسيطة ساذجة تؤدي إلى لا شيء، بل هي استراتيجية بلاغية لإثارة صمتٍ منتِجٍ، صمتٍ يربك الوظيفة السلسة والتكرارية للخطاب. وفي نقطة بعينها من هذه العملية، يقتصر الجواب على رد أبوي من قبيل: «هكذا وحسب!» ومن بعده يسود الصمت. وعند هذا التدخل «غير المعقول» بالضبط يتم التوصل إلى اللحظة السياسية الحقيقية؛ عندما يدرك الجانبان المتقابلان علاقات السلطة غير المتكافئة المتضمنة في الجدال، ويفهمان تصرفاتهما على أساس المصالح الأيديولوجية المختلفة. كما أن هذه هي

لحظة توقف المواعظ وبدء التعبير الصريح عن السلطة. ولكن هذه هي اللحظة التي لا يستطيع فريدمان، بسلسلة جُمَله النرجسية ومخزون حكاياته الشخصية، أن يصل إليها.

عندما نسأل فريدمان «لماذا» أمريكا هي الأنسب لقيادة العالم اليوم؟ يجيب باستدعاء ماضي أمريكا العظيم. لماذا تقف أمريكا في طليعة التطور العالمي المسمى بالعولمة؟ لأنها كانت زعيمة العالم الحر، وهكذا يجب بالضرورة أن تستمر في قيادته إذا كان من المقدر للمستقبل أن يكون أفضل من الماضي، وهذا هو السبب. وعلى النقيض من طريقة بريخت في استخدام الحكاية للوصول للتخلص من الافتراضات المسبقة، ينشرها فريدمان من أجل تأكيدها. كل حكاية من حكايات فريدمان تماثل الحكاية التي رواها عن تجربته وهو يركب القطار الياباني السريع. من خلال أحداث تبدو عشوائية في ظاهرها — زيارة المصنع التي تليها فرصة إلقاء نظرة على قسم معين من الصحيفة — يبني نظرية كاملة للواقع، وهو شيء يفعله بنفس الطريقة سواء كان يكتب ألْف كلمة أو ٦٠٠ صفحة. إن ومضة التبصر التي تخرج من الحكاية تبدو وكأنها تعيد تشكيل العالم بطريقة جديدة. ومع ذلك، ينبغي أن يكون واضحًا أن الطريقة الوحيدة لتأطير هذه اللقاءات العرضية في شكل شيءٍ ما له معنًى هي أن تعرف بالفعل النظام مقدمًا. إن الظروف المحيطة بحكايات فريدمان لها نفس أهمية محتواها: القطار السريع في اليابان، أو شرفة شقة شيخ في دبي؛ هذه الحركة حول العالم للبحث عن حقيقة العولمة هي بالفعل عولمة. يسمح القراء لمجموعة فريدمان من الحكايات بالتحول إلى مزاعم تاريخية عن العالم (الإصدار الأول والثاني والثالث من العولمة)، جزئيًّا لأنها تُظهر حجم أسفاره؛ إذ يسمح له اختبار العالم بأن يعرف كنه العولمة. في الواقع، يبدو أحيانًا كما لو أن النظام العالمي واضح بالفعل في نظام هذه الحكايات الشخصية؛ ومن ثَمَّ ليست هناك حاجة لأنواع الأدوات النظرية والتحليلية التي يجدها المرء، على سبيل المثال، في أعمال ديفيد هارفي.

يعرف فريدمان، الرحالة العالمي، العولمة بسبب أسفاره. بوصفه رحالة، يبدو فريدمان قادرًا على اكتشاف الجديد أينما ذهب. إن «الجديد» هو عنصر أساسي في مقالاته وكتبه، ويشير إلى وجود اهتمام يستحق الثناء بعالم يتغير أمام عينيه. ولكن كما يُظهر مثال ليكزس، يمكن للمرء أن يتصور العثور على شيء جديد، إلا أنه لا يستطيع أن يلتقط الصورة الكبيرة على الإطلاق. في الواقع، ودون أن يدرك، يمثل فريدمان سائحًا أمريكيًّا سيئًا؛ فهو ليس بالشخص الذي يبعثر أمواله من حوله ويذل السكان المحليين،

ولكنه الشخص الذي يتخيل أنه من الضروري أن يصادف أشياءَ جديدة موسعة للأفق في الخارج؛ ومن ثم يمكنه أن يتعامل معها. ستعطي السيارة ليكزس انطباعًا إيجابيًّا، أما عالَم شجرة الزيتون، فلن يفعل أبدًا. يتمثل جزء من الحدود التي صادفها فريدمان في أنه يسافر في عالم أصبح الآن متأمركًا بالكامل. وفي حين أن زكريا يستطيع الإشارة إلى هذا بوصفه نجاحًا للنظام، فعلى السائح السيئ فريدمان أن يقمع التشابه الذي قد يجده في كل مكان، ويتعامل دائمًا مع الأشياء الجديدة بالطريقة الصحيحة، في إطار هذه الرؤية التكنولوجية للعالم التي يعجب بها فلوريدا لدرجة الافتتان.

التحديث، والتنظيم، والخصخصة؛ بالنسبة إلى فريدمان، من الواضح أن هناك رابحين وخاسرين في نظام العولمة. أما عن السبب وراء اتجاه البعض للصراع حول شجرة الزيتون، أو التفكير فيها، أكثر من سيارة ليكزس (أو الطبيعي في مقابل الصناعي، ولا يسعنا ألا نشير إلى ذلك)، وحتى يومنا هذا؛ فهو أمر لا يمكن لفريدمان أن يقدره، كما أنه لا يستطيع أن يرى أن الهيمنة العالمية لهذه القيم قد تكون الإجابة الصحيحة عن السؤال: «لماذا» أمريكا؟ وعلى الرغم من هذا المنطق الدائري (أو ربما بسببه)، كان لتأكيد فريدمان الجازم على قيم النظام تأثير هائل؛ فهو يؤكد على مكانة الولايات المتحدة الأمريكية في العالم (على سبيل المثال، أن الفرد هو الأهم، وأن السرعة هي أهم عامل، وما إلى ذلك)، حتى وهو يأخذ متعة تعليمية في الإشارة من خلال الحكايات إلى أجزاء العالم الأخرى التي قد انطلقت قُدُمًا بالفعل. وقد كان التأثير الكلي قويًّا؛ حيث يشير في الوقت نفسه إلى اهتمام أكثر دقة ونقدية بطابع العولمة وأبعادها المتعددة، فضلًا عن طابعها السياسي وتوجهها المستقبلي بنحو خاص، وفي الوقت نفسه يؤكد على صلابة الأشكال الحالية للتنظيم السياسي والاجتماعي، حتى في مواجهة الكثير من الأشكال الجديدة المفترضة لسير الأمور.

قد يكون فريدمان راويًا موهوبًا ومؤثرًا؛ إلا أنه لا يخبرنا بأي شيء تقريبًا عن إحدى الديناميكيات الأساسية للعولمة التي أصررنا عليها؛ ألا وهي: مصير السيادة القومية في مواجهة السوق العالمية. ويُعد هذا أحد الموضوعات الرئيسية لزميله في الصحيفة، الاقتصادي بول كروجمان، الذي تحولت كتاباته العامة بعيدًا عن الاقتصاد باتجاه الدفاع عن التعاون المثمر بين الليبرالية والرأسمالية في القرن الحادي والعشرين. إن كروجمان هو المفكر الأكثر دقة، الذي لا تقيده الحدود المفاهيمية التي عادة ما ترافق الحس العام للحكاية، ولكن هذا لا يعني أن الحس العام لِلَّحظة العالمية لا يؤطر أفكاره الخاصة بشكل يبدو وكأنه لا مفر منه.

(٤) لعبة الثقة: بول كروجمان

أكد بول كروجمان مكانته في تاريخ علم الاقتصاد بفوزه بجائزة نوبل لعمله الخاص بنظرية التجارة وعلاقتها بالجغرافيا. ومع ذلك، وخلافًا لبعض الفائزين بجائزة نوبل، كان تأثيره وشهرته العامة متحققَين جيدًا بالفعل قبل حصوله على الجائزة عام ٢٠٠٨؛ ففي العالم الأكاديمي، نُشرت أعمال كروجمان على نطاق واسع في مجالات تخصصه، كما شارك في تأليف كتاب أصبح مرجعًا جامعيًّا مهمًّا في علم الاقتصاد الدولي.[74] واكتسب كروجمان كذلك وضعًا عامًّا بارزًا نتيجة لمقالاته المقروءة على نطاق واسع حول القضايا الاقتصادية والسياسية التي تُنشر في صحيفة «نيويورك تايمز» (التي تم جمع مجموعة مختارة منها في أحد أكثر الكتب بيعًا عام ٢٠٠٤؛ وهو كتاب «السقوط العظيم»)، ومطبوعات أخرى (مثل مجلة «سليت» و«فورتشن»، وما إلى ذلك)، فضلًا عن عدد من الكتب الموجهة لعامة الناس. ويقدم كروجمان نفسه بوصفه ليبراليًّا دون أن يجد غضاضة في ذلك، ويشكل هذا جزءًا كبيرًا من جاذبيته. لقد تكوَّن تأثير ونفوذ كروجمان بوصفه مفكرًا عامًّا على مدى العقد الأول من القرن الحالي، من خلال دوره كناقد له جمهور واسع من القراء ينتقد عملية صنع القرار الاقتصادي والسياسي لإدارة الرئيس جورج دبليو بوش. وتزايدت شعبيته بعد فترة حكم بوش (وبعد حصوله على جائزة نوبل) نتيجة لتعليقاته على استجابة حكومتَي بوش وأوباما (أو فشلهما في الاستجابة) للأزمة المالية عام ٢٠٠٨ وانتقاداته لها. بالنسبة إلى الليبراليين واليساريين، يُعد كروجمان هو المفكر الذي يمكن اللجوء إليه في محاولة لفهم التفاصيل الدقيقة للاقتصاد المعاصر. ولا يقدم كروجمان الروايات الاقتصادية مدفوعًا بالإيمان الأعمى بفكرة أن تقديم امتيازات اقتصادية لأصحاب الدخول الكبيرة سيفيد في النهاية المجتمع ككل، من خلال استثمار هؤلاء لثرواتهم في الاقتصاد مما يوفر فرص عمل لأصحاب الدخول القليلة، ولا بثقة مفرطة في قدرة اليد الخفية على تصحيح الأوضاع؛ ولكنها تشير إلى أن الحكومات لها دور ضروري وأساسي عليها أن تلعبه، وكان لهذا الكلام وقع الموسيقى على آذان مَن كانوا يرون لعقود طويلة أن الحكومة الأصغر، والضرائب الأقل، وعدم وجود قيود؛ كارثةٌ محققةٌ.

أصبح كروجمان ممثلًا لمن ينادون بسوق أكثر رحمة وعطفًا؛ أي ما يماثل حلم اليسار الليبرالي بوجود رأسمالية تقدمية تحسينية — تُحكَم وتُدار بنحو سليم، هُذِّبت حوافها الخشنة وكُبح جماح ميلها نحو الفساد — يستفيد منها الجميع على المدى البعيد.

وتبدو الأفكار التي يقترحها جذابة، لأسباب ليس أقلها أنها تأتي من شخص ذي خبرة في علم السوق، يتجنب تطرُّف كلٍّ من الليبراليين الجدد (من ميلتون فريدمان حتى آلان جرينسبان) واليسار المناهض للعولمة (الذي كان قد انتقده مرارًا). ولعل أكثر ما يبدو جذابًا في الأفكار التي يعبر عنها هو أنها تؤكد دون هوادة على العقلانية الجوهرية، ليس للسوق الرأسمالية فحسب، ولكن للروايات الكبرى للتقدم والعقل أيضًا. وبينما قد تخفق النظم الاقتصادية وتَنتج عنها أزمات من حين لآخر — ويرى كروجمان أن السبب في ذلك عادة هو ضعف عملية صنع القرار التي تسترشد بالأيديولوجية بدلًا من العلم — لا يوحي أي مما وقع من أحداث على مدى القرن العشرين (ولا حتى الأزمة الاقتصادية الأخيرة) بأن هناك شيئًا يمكن أن نطلق عليه الجانب المظلم للتنوير الاقتصادي. إن الراحة التي يجدها المرء في رؤية كروجمان للعالم هي أنه، في نهاية المطاف، ليست هناك حاجة لإجراء أي تغيير منهجي واسع النطاق من أجل معالجة مشاكل اجتماعية وسياسية ملحَّة. إلى حدٍّ كبير، تبدو الأمور على ما يرام على ما هي عليه؛ فمع عودة الأفكار الكينزية — على استحياء وبنحو ضئيل للغاية، كما لا بد أن نعترف — والقضاء على أصحاب الأيديولوجيات من الحكومة (سواء من اليمين أو اليسار)، تستطيع النظم الحالية للديمقراطية التمثيلية الليبرالية الرأسمالية أن تؤدي المفترض منها؛ ألا وهو: توفير العدالة والفرص للجميع.

حصل كروجمان على جائزة نوبل لأبحاثه التي ركزت على ديناميكيات الإنتاج والاستهلاك على نطاق عالمي.[75] ومن المستغرب إذن أن تجد في عمله أقل القليل مما يشير إلى التعقيدات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في عصر العولمة. في مقال له في مجلة «سليت» نُشر في الأيام التي سبقت اجتماع منظمة التجارة العالمية في سياتل عام ١٩٩٩، هاجم كروجمان معارضي العولمة.[76] ويرى كروجمان أن هؤلاء لا يفهمون جيدًا مما أصبح على المحك في وجود العولمة، ويتصورهم مجموعات وأفرادًا يرون منظمة التجارة العالمية بوصفها «مركز مؤامرة عالمية ضد كل ما هو جيد ومهذب ... هيئة أعلى من الحكومات تجبر الأمم على الرضوخ لرغبات الشركات المتعددة الجنسيات، وتدمر الثقافات ... وتنهب البيئة؛ وتستخف بالديمقراطية؛ مما يجبر الحكومات على إلغاء القوانين التي تتعارض مع أغراضها الشريرة.»[77] ويرفض كروجمان الفكرة القائلة بأن الاقتصادات القومية تؤدي أداءً أفضل إذا سعت نحو الاكتفاء الذاتي بدلًا من الإنتاج للسوق العالمية، على الرغم من أنه من غير المؤكد أن أيًّا من المحتجين المعارضين لمنظمة التجارة العالمية

يعتقد ذلك لأنه يريد العودة إلى استراتيجيات إحلال المنتجات المحلية محل الواردات التي كانت سائدة في خمسينيات القرن العشرين وستينياته. كما يتناول فكرة أن العولمة تتسبب في إنتاج «ثقافة أحادية عالمية»، وهو ما يراه أحد المخاوف الأبوية؛ أي رؤية للعالم وكأنه مُصمَّم لتسلية السائحين الغربيين الذين يأملون في تجارب متنوعة ومبتكرة في رحلاتهم في الخارج، وليس «لمصلحة الناس العاديين في حياتهم اليومية.»[78] إلا أنه لا يذكر أي شيء عن تأثير العولمة على البيئة، أو آثارها على الديمقراطية، أو دورها في تشكيل القرارات الحكومية لتعكس عقلانية السوق (المنطق الذي نطلق عليه الآن اسم الليبرالية الجديدة). يشير التصور المحدود للعولمة إلى أنها مرتبطة بالتجارة الاقتصادية، وبنحو ثانوي، بالتدفقات الثقافية؛ ومن وجهة نظر كروجمان، لا تزال الدولة القومية هي الموقع الأساسي الذي يتم من خلاله اتخاذ القرارات السياسية، كما أنها الوحدة التنظيمية للشئون العالمية. بعبارة أخرى، تُفهم العولمة في شكلها الأكثر شيوعًا على أنها تدفق للأموال والسلع إلى ما وراء الحدود. بالنسبة إلى كروجمان، يبدو القليل من الأشياء متضمنًا في هذا التدفق أو متأثرًا به، بما في ذلك الأنظمة السياسية والاقتصادية القائمة بالفعل.

تؤدي الدولة القومية دورًا كبيرًا على نحو خاص من وجهة نظر كروجمان. إن حكومات الدول القومية هي المسئولة في نهاية المطاف عن اتخاذ القرارات التي تشكل عمليات الأسواق العالمية، تمامًا كما هي مسئولة عما يحدث داخل حدودها المحلية؛ ومن ثم، تبدو كتابات كروجمان عادةً موجهة لصناع السياسات هؤلاء. السؤال الآن: هل يمكن للرأسمالية أن تنقذنا على نحو تدريجي من خلال إشراك أكثر فاعلية للأمة، كما يقترح كروجمان وغيره من الليبراليين؟ وهل «نحن» التي يقولها كروجمان تشير إلى الولايات المتحدة الأمريكية وحدها، أم أنها تشملنا جميعًا بطريقة أو بأخرى؟ باختصار: كيف تبدو ليبرالية بول كروجمان؟ هل يجب أن نستسلم لإغراءات اتجاه يسار الوسط البراجماتي الخاص بها، أم نتعامل معها بالشك الذي تبديه الذبابة تجاه العرض الحلو اللزج الذي يقدمه لها نبات خناق الذباب؟

* * *

لطالما عرفنا أن الاهتمام بالمصلحة الشخصية دون مراعاة مصلحة الآخرين علامة على الأخلاق السيئة؛ والآن نعرف أنه علامة أيضًا على الاقتصاد السيئ.

فرانكلين ديلانو روزفلت، ١٩٣٦

كان العنوان الفرعي لكتاب كروجمان «السقوط العظيم» هو «انحرافنا عن الطريق في القرن الجديد». كان الضمير في كلمة «انحرافنا» يشير بطبيعة الحال إلى الجمهور الأمريكي الذي يتصور كروجمان أنه يمثل جمهور القراء الرئيسي له (على غرار فريدمان والشخصيات الأخرى التي ندرسها هنا). وقد تكون المضامين الواردة في باقي العنوان هي الأكثر أهمية؛ فهناك زعم بوجود طريق نسير عبره، اتجاه سرنا نحوه ذات يوم، وتخلينا عنه الآن أو فقدناه. إن الإشارة الواضحة هي أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تسير في الاتجاه «الصحيح» خلال الجزء الأكبر من القرن العشرين (إن لم يكن خلال تاريخها كله)، ولم تفقد بوصلتها إلا في العقد الأول من القرن الجديد. تقدم مجموعة مقالات الرأي المجمعة في كتاب «السقوط العظيم» أدلةً على كلٍّ من الطرق المتعددة التي جعلت الولايات المتحدة الأمريكية تضل طريقها، والخطوات التي يجب عليها أن تتخذها لتعود مرة أخرى إلى المسار الصحيح. وكما قد يتوقع المرء من سلسلة مقالات كُتبت بين الحين والآخر في خضم أحداث اقتصادية أو سياسية محددة، تأتي الرسالة العامة التي يخرج بها المرء غير مباشرة وغير مركزة؛ لذا، يتم توجيه الكثير من الانتقادات لبوش وأعضاء حكومته، حتى يتوقع المرء أن كل ما يتعين على الولايات المتحدة الأمريكية أن تقوم به للعودة إلى المسار الصحيح، هو أن تتخلص من الأشرار الذين ظهروا في واشنطن على نحو مفاجئ لإدارةِ أكبر اقتصاد وجيش في العالم لما يقرب من عقد من الزمان.

ويشكل سرد مماثل عن الضياع والعودة كتاب كروجمان «ضميرُ ليبرالي». نُشر هذا الكتاب لأول مرة في عام ٢٠٠٧ (مع إضافة مقدمة جديدة له عام ٢٠٠٩)، وهو يعرض الخطوط العريضة للاقتصاد والسياسة في الولايات المتحدة الأمريكية منذ العصر المُذهب وحتى وقت تأليف الكتاب، مع الإشارة في الفصول الختامية إلى مشاكل الرعاية الصحية وعدم المساواة الاقتصادية في الولايات المتحدة الأمريكية. كانت الغاية من هذه اللمحة التاريخية هي محاولة تقديم رؤية عميقة بعض الشيء للاتجاه الذي ينبغي على الولايات المتحدة أن تسلكه الآن. لا يوجد الكثير من الجوانب الجديدة في هذا الكتاب، سواء من الناحية النظرية أو الواقعية: بنحو عام، يعمل كروجمان من خلال مجموعة نموذجية إلى حدٍّ ما من القضايا والمفاهيم والمواقف التاريخية، القائمة على تقسيم قياسي للحياة السياسية الأمريكية؛ المحافظين والليبراليين. على عكس الكثير من كتابات كروجمان الأخرى (سواء الأكاديمية أو العامة)، فإن كتاب «ضمير ليبرالي» هو كتاب «سياسي» تمامًا، يأمل في كسب القراء وجذبهم باتجاه طريقته في رؤية الأشياء من خلال إعادة

سرد التاريخ الأمريكي الحديث؛ ومن ثم، التأكيد على ضرورة وجود طريقة جديدة للقيام بهذه الأمور؛ إنه هنا لا يعتمد على خبرته الاقتصادية بقدرِ ما يعتمد على المهارات التي اكتسبها في تقييم الحياة الاجتماعية الأمريكية خلال عصره بوصفه كاتبًا عامًّا.

يبدو المستقبل في حالةِ كون الولايات المتحدة الأمريكية تتبع أفكارَ ومُثُلَ «حركة المحافظين» (مثل أنصار حركة الشاي) أو خصومهم الليبراليين، بالنسبة إلى كروجمان، أنه لن يعود إلى المسار المفقود فحسب، بل وإلى الماضي المفقود كذلك. يقول في هذا الشأن: «يريد الليبراليون استعادة مجتمع الطبقة المتوسطة الذي ترعرعتُ فيه؛ فهؤلاء الذين يصفون أنفسهم بأنهم محافظون يريدون أن يُرجعونا إلى العصر المُذهب، ماحين بذلك عمل قرن من التاريخ.»[79] ويمكننا بسهولة أن نضع هنا كلمة «التقدم» محل كلمة «التاريخ»؛ فالزمن يتقدم نحو الأمام، وذلك من خلال تراكم الحريات وتوقعات أكبر بتحقيق العدالة الاجتماعية. وكان الادعاء المثير للدهشة (وإن كان ليس جديدًا) في كتاب «ضمير ليبرالي» هو أنه بالنسبة إلى كلٍّ من الليبراليين والمحافظين المجتمعُ المثاليُّ قد تحقق «بالفعل». وعلى هذا النحو، فهذا الكتاب لا يعرض توقعات يوتوبية استشرافية، ولكنه يقدم مشروعًا للاستعادة. يريد المحافظون أن يعودوا بالبلاد إلى العصر المُذهب الطويل حين ازدهرت الرأسمالية الجامحة لصالح الأغنياء وعلى حساب غيرهم. ومن ناحية أخرى، يريد الليبراليون أن يعودوا إلى الأيام الذهبية لأمريكا في مرحلةِ ما بعد الحرب، أيام شباب كروجمان نفسه، من أجل إضافة الجزء الأخير في أحجية الصور المقطعة الاجتماعية الخاصة بما كان بالفعل مجتمعًا عظيمًا؛ ألا وهو الرعاية الصحية القومية.

يُعد الفصل الافتتاحي لكتاب «ضمير ليبرالي» لافتًا للنظر لأمرين؛ يتمثل الأمر «الأول» في الصورة التي يرسمها كروجمان للحياة في الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية. إنها قصة معروفة، تكررت كثيرًا على لسان النقاد الليبراليين اليساريين، وربما أيضًا بوجه خاص جيل الطفرة السكانية في الولايات المتحدة الأمريكية. منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى انتخاب رونالد ريجان في عام ١٩٨٠، كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد أصبحت في واقع الأمر دولة تعتمد على الطبقة المتوسطة؛ فقد انخفضت معدلات الفقر، وتم كبح جماح تجاوزات الأغنياء، ودعمت الحكومات بجميع مستوياتها السياسةَ العامةَ التي تهدف إلى تعزيز العدالة الاجتماعية وتحقيق المزيد من المساواة الاقتصادية، وكان هناك حزبان يشتركان في عملية صنع القرار

التشريعي في الكونجرس. وكانت الاستجابة المثيرة للجدل من قِبل الحكومة للكساد العظيم؛ أي الصفقة الجديدة التي وضعها الرئيس فرانكلين ديلانو روزفلت، إلى جانب الإنفاق الحكومي الهائل الذي تطلبته مشاركة الولايات المتحدة الأمريكية في الحرب العالمية الثانية، هما ما أنقذا أمريكا من كارثة اقتصادية وجعلاها نموذجًا للمجتمع الذي يتميز بالعدالة الاجتماعية والاقتصادية. يقول كروجمان: «الآن، بما أن أمريكا قد نضجت، بحسب اعتقادنا، أصبح الوضع الطبيعي للمجتمع هو أن تكون هناك مساواة نسبيًّا بين أفراده، مع وجود طبقة وسطى قوية ومشهد سياسي متكافئ.»[80] ومن وجهة نظر كروجمان، تتميز هذه الفترة بعملية سياسية «يحكمها في الغالب ائتلاف بين حزبين صنعه رجال اتفقوا على قيم أساسية.»[81] مما لا شك فيه أنه كانت هناك بعض القضايا الاجتماعية المهمة التي كانت محل جدل بين الحزبين، مثل إعطاء حق التصويت للمرأة والأقليات، إلا أن أساس المجتمع العادل كان قد أنشئ بالفعل، وكانت الولايات المتحدة الأمريكية تتحرك في الاتجاه الذي يسمح أيضًا بحل هذه القضايا على النحو الأفضل.

هناك العديد من الأسئلة التي يمكننا أن نطرحها حول هذا الاستعراض الحالم لحقبة الخمسينيات والستينيات والسبعينيات. بادئ ذي بدء، نظرًا للاتفاق العام على القيم والحياة السياسية الثنائية الحزب، يمكن للمرء أن يتساءل عن الأساس الذي استند إليه المواطنون الأمريكيون في قرارهم بالتصويت لصالح أحد الحزبين ضد الآخر، إذا ما كانت الأمور ستتساوى في نهاية المطاف. (هل كان هذا من قبيل العادة فحسب؟ ولماذا لا نؤسس حكم الحزب الواحد؟) ولكن دعونا نركز أولًا على الأمر «الثاني» الذي طرحه كروجمان في الفصل الأول من كتابه؛ وهو الزعم الذي يضع الإطار لفكرة الكتاب بأكمله، كما أنه زعْم يبعث على الدهشة ليس فيما يسعى لتأكيده بقدرِ ما يعرضه عن فهمه لموقع الاقتصاد في المجتمع والسياسة. إن عدم المساواة الاقتصادية المتنامية التي ميزت الحياة الأمريكية خلال العولمة — المتمثلة في الفجوة المتزايدة بين الأغنياء والفقراء، واختفاء الطبقة الوسطى، وزيادة رقعة الفقر — لم توصف بأنها نتيجة «قوًى مادية مثل التغير التكنولوجي»؛[82] أي ناتجة عن دفعة من يد اقتصادية خفية، ولكنه اعتبرها نتيجة للسياسة. يقول كروجمان: «تزداد قناعتي بأن معظم السببية يعمل في الاتجاه المعاكس؛ أي إن التغيير السياسي في صورة زيادة الاستقطاب كان سببًا رئيسيًّا في زيادة نسب عدم المساواة.»[83] بالنسبة إلى معظم المعلقين والجماهير، لم يكن هذا مفاجئًا على الإطلاق. ولكن كان إيمان كروجمان بالاقتصاد بوصفه الخطاب الاجتماعي

السائد واضحًا في الحاجة التي استشعرها لتقديم أدلة على أولوية السياسة على الاقتصاد. وأضاف كروجمان: «هل يمكن للبيئة السياسية أن تكون حاسمة هكذا في تحديد عدم المساواة الاقتصادية؟ يبدو هذا وكأنه غير صحيح، ولكن هناك مجموعة متزايدة من الأبحاث الاقتصادية التي تشير إلى أنها يمكنها ذلك.»[84] ويقدم كروجمان أربع نقاط للدفاع عن هذا الموقف: مجتمعِ ما بعد الحرب القائم على الطبقة الوسطى، الذي يقدره كروجمان، أُنشئ من خلال المؤسسات والقواعد والبيئة السياسية لتلك الفترة؛ ويبدو أن توقيت التحولات الاقتصادية يوحي بأن السبب وراءها هو التغيرات السياسية؛ وتَسبَّب تآكل المعايير والمؤسسات الاجتماعية على مدى السنوات الثلاثين الماضية في ظهور عدم المساواة في الولايات المتحدة الأمريكية (في مقابل أن يكون مثلًا التغير التكنولوجي هو السبب في ذلك). وهناك زعم مشكوك فيه يقول إن الولايات المتحدة الأمريكية هي الدولة الوحيدة التي واجهت أكبر قدر من عدم المساواة خلال العولمة: يقول كروجمان إنه إذا كان الأمر يرجع إلى السوق، فلنا أن نتوقع أن تكون هناك مستويات مماثلة من عدم المساواة في جميع أنحاء العالم.

إذن، ما يثير الدهشة هو تفاجؤ كروجمان بقدرة السياسة على تحديد التطورات والتغيرات الاقتصادية؛ من ثَمَّ، لا يمكن لفهمه لطبيعة ومضمون السياسة إلا أن يشغل معظم الكتاب، حتى لو لم يقضِ أي وقت أو قضى وقتًا قليلًا في التفكير في طابع السياسة على هذا النحو. بالنسبة إلى كروجمان، ليست السياسة في نهاية المطاف مسألة سلطة، أو شكل تاريخي، أو تعقيدات البنية الاجتماعية، ولكنها مسألة «ضمير»، كما يوحي عنوان الكتاب؛ إنها تلك القوة الداخلية المتمثلة في الأخلاق التي تدفع الشخص للتصرف بالطريقة الصحيحة. من أُولى صفحات الكتاب، تم تقديم الكتاب بوصفه عملًا دراميًّا يضم أشرارًا وأبطالًا؛ حيث الأشرار هم «حركة المحافظين»، أي المجموعة التي تحركها سلسلة كاملة من المطبوعات والأشخاص والمفكرين ووكالات الأنباء، الذين سيطروا على الحزب الجمهوري بأفكارهم المناهضة للحكومة، التي تدعو لخفض الضرائب. في هذا الشأن، يقول كروجمان:

> المال هو العامل الذي يربط معًا كل أتباع حركة المحافظين، التي تمولها إلى حدٍّ كبير مجموعة صغيرة من الأشخاص الشديدي الثراء وعدد من الشركات الكبرى، الذين يستفيدون جميعًا من زيادة مستويات عدم المساواة، ومنع الضرائب التصاعدية، والتراجع عن دولة الرفاهة؛ باختصار، عكس بنود

> الصفقة الجديدة ... ولأن حركة المحافظين تهتم في نهاية المطاف بالتراجع عن السياسات التي تضر بمصالح نخبة ثرية قليلة العدد، فهي في الأساس مناهضة للديمقراطية.[85]

إن جشع عدد قليل من الأفراد وافتقارهم إلى الضمير الذي يرشدهم إلى أفضل السبل للعمل لصالح إخوانهم من البشر يحرف ما يمكنه أن يكون عملًا سلسًا وعاقلًا للاقتصاد. لا يمكن للمرء إلا أن يفترض أن هناك درجة أكبر من الفضيلة الأخلاقية في الحقبة التي بدأت بتولي فرانكلين روزفلت وحتى ستينيات القرن العشرين، التي حلت محلها الآن قيم جوردون جيكو وأمثاله. ولكن لماذا؟ وإذا كان هؤلاء أقلية، فلِمَ التغاضي عن هذا التحول، لا سيما في ضوء إصرار كروجمان على أن استطلاعات الرأي التي تناولت مجموعة متنوعة من القضايا تشير إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية يغلب عليها في الواقع اتجاه يسار الوسط؟

يتكون الجزء الأكبر من الكتاب من سرد مفصل، وفي كثير من الأحيان متبصر، لتاريخ صعود وسقوط الطبقة الوسطى الأمريكية منذ الصفقة الجديدة وحتى الوقت الحاضر؛ أو كما يقول كروجمان، من عقد الأربعينيات الذي شهد تقليلًا كبيرًا للفجوة بين الأجور، إلى حالات عدم المساواة الاجتماعية والاقتصادية التي تميز ما يسمى بالتفاوت العظيم في حقبتنا الحالية. إنها قصة مؤامرة الرأسمالية اليمينية (وقد تمت الإشارة إليها مباشرة بهذا الاسم). وهناك نقطتان تم التأكيد عليهما خلال الكتاب؛ الأولى: أن قصة التغييرات في الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الولايات المتحدة الأمريكية في القرن العشرين هي قضية سياسية («وليست ظاهرة اقتصادية»)،[86] والثانية: أن المحافظين لعبوا مرارًا وتكرارًا، برؤية متبصرة للمشهد المتغير للسياسة الأمريكية، على المخاوف الاجتماعية (مثل الخوف من الشيوعية)، والتقسيمات (خاصةً على أساس العرق)؛ ليسيطروا على الأمور ويكون بإمكانهم تطبيق سياساتهم. ويتعين على كروجمان، المنظِّر السياسي، أن يحاول فهم سبب استعداد الناخبين لانتخاب ساسة يعملون فقط لتحقيق مصالح النخبة المكونة من رجال الأعمال. لا توجد أي إشارة إلى أن شيئًا مثل الأيديولوجية يمكن أن يكون له دور؛ أي إن الناخبين قد يتصورون أنهم يتفقون مع الكثير من القيم والمعايير التي تتبناها حركة المحافظين، حتى لو انتهى بهم الأمر إلى دفع ثمن ذلك اقتصاديًّا في نهاية المطاف. وبدلًا من النظر إلى الصورة الكبيرة التي توضح سبب تصويت أي شخص لصالح الحزب الجمهوري الذي «استولى عليه المتطرفون»،[87] ينظر كروجمان في

سياسة تصويت الأغلبية، ويتساءل: «لماذا استطاع دعاة دولة الرفاهة الأصغر والسياسات الضريبية التنازلية الفوزَ في الانتخابات، بالرغم من أن تزايد عدم المساواة في الدخل كان ينبغي أن يجعل دولة الرفاهة أكثر شعبية؟»[88] وبما أنه ليس عليه سوى تحديد ذلك الجزء الصغير من الناخبين الذين يدفعون المحافظين إلى القمة، فقد أصبح من السهل التوصل إلى المشكلة المتمثلة في حدوث تغيير في أنماط التصويت من قِبل الجنوبيين البيض. يقول كروجمان:

> تشير الأهمية القصوى للتحول الجنوبي إلى قصة مفرطة في البساطة للنجاح السياسي لحركة المحافظين، وهذه هي القصة: بفضل تنظيم المؤسسات المتشابكة التي تشكل المؤامرة اليمينية الواسعة، استطاعت حركة المحافظين أن تسيطر على الحزب الجمهوري، وأن تنقل سياساتها بقوة إلى اليمين السياسي. في معظم أنحاء البلاد، أدى هذا التحول نحو اليمين إلى نفور الناخبين، الذين تحولوا تدريجيًّا نحو الديمقراطيين. ومع ذلك، استطاع الجمهوريون أن يحرزوا فوزًا في الانتخابات الرئاسية؛ ومن ثم تمكنوا من السيطرة على الكونجرس؛ لأنهم كانوا قادرين على استغلال المسألة لكسب الهيمنة السياسية في الجنوب. وتلك هي القصة باختصار.[89]

إن عنصرية البيض الجنوبيين جعلتهم ينجذبون نحو «الحزب القديم الكبير». أما بالنسبة إلى ما يعتقدون أنهم سيحصلون عليه جراء التصويت ضد مصالحهم الاقتصادية الخاصة، فهو سؤال قد يكون كروجمان غير قادر أو غير راغب في الإجابة عنه.

وماذا عن حل المأزق السياسي الذي وجدت الولايات المتحدة الأمريكية نفسها فيه؟ إذا لم تكن النخبة الاقتصادية قد تلقت عقابها بالفعل جراء الأزمة المالية لعام ٢٠٠٨، فيبدو كروجمان واثقًا من أن التغيرات الديموغرافية ستقلل بالضرورة من شعبية حركة المحافظين، ويقول: «على المدى الأطول، ستساعد الهجرة على تقويض الاستراتيجية السياسية لحركة المحافظين ... فلا يمكن لحركة المحافظين أن تخاطب الناخبين البيض ضمنيًّا على أساس العرق، وفي الوقت نفسه تخطب ود العدد المتزايد من الناخبين من أصول لاتينية وآسيوية.»[90] قد تقودنا السياسات الصادرة عن حكومة ولاية أريزونا في عام ٢٠١٠ وانتخاب سكوت براون لمجلس الشيوخ الأمريكي عن ولاية ماساتشوستس في الانتخابات الفرعية لعام ٢٠١٠ للشك في الثقة التي يؤكد بها كروجمان على حدوث تغيير في المشهد السياسي.

قد يكون من الصعب أن نتوقع من مفكرٍ مؤسَّسِيٍّ مثل كروجمان أن يشكك في طبيعةِ ما يعنيه التصويت الديمقراطي من أنه تمثيل دقيق لآراء الناخبين أو آمالهم. إلا أن المرء قد يتوقع أكثر من هذا النقاش الذي عرضه في هذا السياق. يقوم تحديه لحركة المحافظين وكذا دعوته لرأسماليةٍ أكثر رحمة وعطفًا على نقد أخلاقي. وبدلًا من تقديم تحليل أيديولوجي يمكن أن يصف كل التطورات التي حدثت على مدى العقود الثلاثة الماضية بكل تعقيداتها — كل شيء بدءًا من الأخبار التي تقدم على مدار الساعة، إلى الاتجاه العالمي لعزوف الناس عن المشاركة السياسية، والتحديات والفرص التي أتيحت من خلال اقتصاد وسياسة العولمة، وما إلى ذلك — قدَّم كروجمان سردًا للأخيار والأشرار، الذين يستحقون الإدانة. من المستحيل بالنسبة إليه أن يتصور، على سبيل المثال، أن دوافع وضرورات الاقتصاد الرأسمالي ذاته قد تشكل المعايير والسلوكيات بطريقة جوهرية. ومن خلال تحويل التركيز إلى السياسة والأخلاق، يأخذ الاقتصاد (بالنسبة إلى كروجمان) وضعه المناسب في علم السوق. وإذ يتتبع كروجمان آثار ولادة حركة المحافظين، يلاحظ أن «النخبة الاقتصادية المحافظة ظهرت أولًا؛ لأن حقائق الاقتصاد الفعلية تتسبب في ظهور ميل طبيعي لدى الاقتصاديين للتوجه إلى أصولية السوق الحرة.»[91] لماذا لا تولِّد هذه الحقائق نفس الميل لدى كروجمان؟ لأن ضميره ينقذه، ويدفعه إلى تصور الحاجة ليس لنظام اقتصادي بديل، ولكن لنسخة أكثر رحمة وعطفًا من النظام الحالي لا تزال تَعتبر جني الأرباح والملكية الخاصة من بديهياتها الأساسية.

في مقدمة طبعة الكتاب الورقية الغلاف، يتحدث كروجمان بثقة عن فرصة باراك أوباما في تحقيق أجندة تقدمية، تعود بنا إلى الأحوال السائدة أيام طفولة كروجمان، ولكن مع إضافة الرعاية الصحية الشاملة؛ فمع وجود الأخيار الآن في موقع المسئولية، يمكن للاقتصاد أن يعمل كما يفترض به، ليس لزيادة ثراء الأغنياء فحسب، ولكن أن ينظَّم ويُدار بطريقة يمكنها أن تُنتج مجتمعًا تسوده الطبقة الوسطى من جديد. يقول: «إن الادعاء بأن أمريكا مستعدة لصفقة جديدة — الأمر الذي اعتبره بعض القراء غير عمليٍّ عند نشر الطبعة ذات الغلاف المقوى من الكتاب — أصبح الآن هو الرأي السائد بنحو أو آخر.»[92] وبعد عامين من رئاسة أوباما، يمكن للمرء أن يؤكد بثقة أن الرأي السائد يمكن أن يكون خاطئًا أحيانًا.

* * *

لم يكن أحد يظن أن شيئًا كهذا يمكن أن يحدث في العالم الحديث، ولكنه حدث، وكانت النتائج مذهلة.

بول كروجمان[93]

كان أحد الافتراضات الأساسية في كتاب «ضمير ليبرالي» هو أنه بوجود القادة المناسبين في المكان المناسب، ستكون الحكومات قادرة على اتخاذ القرارات المناسبة بالنسبة إلى الاقتصاد، وتشكيل تأثيره وآثاره على الناس. وهذا ليس افتراضًا جديدًا، بل هو من قبيل الحس العام. في كتاب «عودة اقتصاديات الكساد وأزمة عام ٢٠٠٨»، يعالج كروجمان مجموعة مختلفة تمامًا من الأسئلة. في كتاب «ضمير ليبرالي»، يُجري تحليلًا للسياسة الأمريكية في القرن الماضي من خلال مناقشة محدودة للظروف العالمية الأوسع نطاقًا، التي قد يكون لها تأثير على التوجهات الاقتصادية والسياسية التي اتخذتها البلاد. على الجانب الآخر، يتناول كتاب «عودة اقتصاديات الكساد وأزمة عام ٢٠٠٨» صراحةً النظام العالمي الجديد والتحديات التي يمثلها فيما يتعلق بعمل الاقتصادات. يقدم هذان الكتابان معًا النطاق الكامل لِلِيبرالية كروجمان: احتمالات تدخل الدولة في الاقتصاد على المستويين العالمي والقومي، وكذا حدوده الحقيقية الواضحة.

يبدأ كتاب «عودة اقتصاديات الكساد وأزمة عام ٢٠٠٨» بعرض ما يعتبره كروجمان الواقع الذي يجب أن تعمل من خلاله عملية صنع القرار الاقتصادي اليوم؛ فبعد عام ١٩٨٩، نعيش في عالم لم تعد فيه الاشتراكية «فكرة تستطيع أن تستحوذ على عقول الرجال»،[94] والذي جعلت فيه رأسمالية عالمية بنحوٍ كاملٍ العالمَ الناميَ ينخرط في عملية إنتاج (ومن ثم في الاقتصاد العالمي) بدرجة لم يسبق لها مثيل. بعبارة أخرى، «نحن نعيش في عالم يُنظر فيه إلى حقوق الملكية والأسواق الحرة بوصفهما مبادئ أساسية، وليس بوصفهما ذريعتين نلجأ إليهما على مضض، ونتقبل فيه الجوانب غير السارة لنظام السوق — عدم المساواة والبطالة والظلم — بوصفها حقائق حياتية.»[95] ومن الواضح حتى من هذا الاقتباس أن تحليل كروجمان للاقتصاد العالمي لن يشمل قضايا الأخلاق والضمير، أو حتى — بدرجةٍ ما — السياسة. هذا الكتاب معنيٌّ بالتحليل الاقتصادي الذي يهدف إلى محاولة فهم أسباب عدم استقرار النظام الاقتصادي العالمي. إن اقتصاديات «الكساد»، ونميزه هنا عن «الركود»، قد عادت في لحظة من المفترض أن

تكون لحظة انتصارِ رأسماليةٍ ما بعد عام ١٩٨٩. يحدد كروجمان كيفية حدوث ذلك، وأسبابه وما يمكن عمله حياله، بالنظر في أزمات العملة في أمريكا اللاتينية (المكسيك عام ١٩٩٤، والأرجنتين عام ٢٠٠٢) وآسيا (١٩٩٧–١٩٩٩)، وتقييم ما يسمى بالعقد الضائع في اليابان (تسعينيات القرن العشرين)، بالإضافة إلى تقديم تحليلات لفقاعات سوق الأوراق المالية في الولايات المتحدة (فقاعة الإنترنت في أواخر التسعينيات وفقاعة سوق العقارات الأخيرة)، وتقديم تعليق موجز على الأزمة العالمية التي حدثت عام ٢٠٠٨.

في كثير من الأوجه، تبدو تفاصيل النقاش أقل أهمية من الشكل والادعاءات الأكبر التي تنشأ من تحليل كروجمان؛ فبوصفه محللًا سياسيًّا، يرى كروجمان أن الأزمة المالية تقدم فرصة: فتمامًا كما أدى الكساد العظيم إلى الصفقة الجديدة، تهدد الأزمة الحالية بتقويض مكانة حركة المحافظين وتقدم إمكانية عمل صفقة جديدة قد تلغي عدم المساواة الناتجة عن التفاوت العظيم. وبوصفه خبيرًا اقتصاديًّا، يرى كروجمان أن عودة اقتصاديات الكساد تؤدي إلى فشل محتمل للنظام الذي يجب التعرف على سببه لتستمر الرأسمالية في عملها، سواء كانت عملياتها ونتائجها محمودة من الناحية الأخلاقية أم لا. إن الآلية الأساسية التي يمكن من خلالها منع حالات التراجع الاقتصادي والحفاظ على الملكية الخاصة وعملية اتخاذ القرار الخاصة معروفة؛ حيث وُضعت للتعامل مع الآثار الناجمة عن الكساد العظيم. ويطلق كروجمان على هذه الآلية اسم «الميثاق الكينزي»:

> لم يكن ما أعاد الثقة في الأسواق الحرة هو التعافي من الكساد فحسب، ولكن التأكيد على أن التدخل الاقتصادي الكلي، من خفض لأسعار الفائدة أو زيادة العجز في الموازنة لمحاربة حالات الركود، يمكنه أن يحافظ على اقتصاد السوق الحرة مستقرًّا إلى حدٍّ ما وبوضع توظيف كامل بنحو أو بآخر. في الواقع، عقدت الرأسمالية واقتصاديوها اتفاقًا مع الناس: من الآن فصاعدًا، سيكون وجود الأسواق الحرة لا غبار عليه لأننا نعرف ما يكفي لمنع حدوث أي حالات كساد عظيم أخرى.[96]

والسؤال الذي يدور حوله الكتاب، والذي غذَّى جزءًا كبيرًا من استجابة كروجمان إلى ما يُنظر إليها باعتبارها استجابة خجولة للغاية من قِبل إدارة أوباما فيما يتعلق بالأزمة الاقتصادية الحالية؛ هو: لماذا يبدو أن هذا الميثاق قد فشل أو انهار، مما سمح لاقتصاد الكساد بالعودة، ليس فقط إلى أطراف الرأسمالية بل إلى مركزها في الولايات المتحدة

الأمريكية؟ جدير بالذكر أنه على الرغم من أهمية هذا السؤال لتغذية النقاش الدائر في الكتاب، فإن كروجمان يقدم شرحًا ضئيلًا للغاية لما يشكل هذا الميثاق. يبدو هذا مقتصرًا على حقيقة أن الدولة ستتدخل من خلال خفض الضرائب وزيادة الإنفاق لتفادي حالات الركود، ولا يمتد ذلك ليشمل الديناميكيات الأوسع للصفقة الجديدة التي شملت آليات (على سبيل المثال) لتقليل الفجوة المتسعة في تقسيم الثروة خلال العصر المُذهب (الذي عدنا إليه في الوقت الحاضر)، أو لمحاولة ضمان وضع التوظيف الكامل والتخفيف من آثار نزوات السوق التي أحيانًا ما تكون قاسية.

وحتى في هذا الوضع المالي المقيَّد، لا يخلو الميثاق الكينزي من المشاكل. في حقبة حيث يأتي الجزء الأكبر من الإيرادات الحكومية من الأفراد وليس من المؤسسات، يثير استخدام الأموال العامة لدعم الشركات الخاصة انتقادات هائلة في جميع أنحاء العالم، بغض النظر عن الأساس المنطقي الاقتصادي الكلي المعني وفوائده المفترضة للنظام على المدى البعيد (كان كينز هو من قال التعليق الشهير بأنه على المدى البعيد سنكون جميعًا في عداد الأموات). ولعل الاتفاق الذي أُبرم يومًا ما مع الجماهير إزاء استمرار الأسواق الحرة — وهي إشارة كان الهدف منها في المقام الأول التخفيف من حدة التحديات السياسية لشرعية الرأسمالية الليبرالية — هو الذي يرغب الكثيرون الآن في إعادة النظر فيه. على أي حال، يظهر سببان لعودة اقتصاديات الكساد في تحليل كروجمان؛ السبب «الأول» هو التغيرات التي حدثت في الممارسات المالية في الولايات المتحدة الأمريكية، نتيجة لتخفيف القيود المفروضة على القطاع المصرفي في نهاية القرن العشرين وظهور نظام ظِل مصرفي «لم يُنظَّم على الإطلاق في المقام الأول.»[97] سيجد أي شخص تابَع باهتمامٍ المناقشاتِ المتعددةَ لمشاكل الاقتصاد الأمريكي، والتي أدت إلى الأزمة التي وقعت في خريف عام ٢٠٠٨، أن العناصر التي ألقى كروجمان باللوم عليها في حدوث الأزمة مألوفةً لديه؛ وهي: المستويات الزائدة من المخاطر، والمضاربة في نظام مالي أصبح بعيدًا تمامًا عن الاقتصاد الحقيقي، وإنشاء أدوات مالية جديدة مع وعود بعوائد مذهلة، ولكن عناصرها ومخاطرها كان من المستحيل على المستثمرين فهمها، والتغيرات في ممارسات الإقراض لأصحاب المنازل، التي أُدخلت مع إيمان مفرط وغير عقلاني بالزيادة التصاعدية المستمرة في قيمة العقارات، واستخدام صناديق التحوط للتحكم في السيولة المالية، خصوصًا مع العلم بأنه «بالنسبة إلى الكثير من الأصول غير السائلة، كانت هي السوق»،[98] والإثقال الزائد لجميع أنواع المؤسسات المالية بالديون، سواء كانت مؤسسات رسمية أو مؤسسات

ظِل. يدعو كروجمان لإدخال المزيد من التنظيم، بالإضافة إلى «التأميم المؤقت» لبعض عناصر النظام المالي، ما دامت «ستُعاد خصخصتها في أقرب وقت آمن للقيام بذلك.»[99] عندما يتعلق الأمر بإلقاء اللوم على أرض الوطن، فإن المشكلة تتمثل في اللامنطق، والإهمال، و«الوفرة اللاعقلانية» للأسواق، فضلًا عن فشل أهم صناع السياسات في اتخاذ قرارات صعبة، وعلى الأخص آلان جرينسبان خلال فترة توليه منصب رئيس مجلس محافظي الاحتياطي الفيدرالي (١٩٨٧–٢٠٠٦).

ترتبط فقاعات السوق والأزمات الاقتصادية التي تعاني منها الولايات المتحدة الأمريكية بالطبع بالسوق العالمية بصورة لم تحدث من قبل؛ ولهذا السبب، كما يمكن أن نتوقع، يقدم كروجمان تحليلات لأزمات العملة في أمريكا اللاتينية وآسيا، في شكل حالات اختبار استكشافية لفهم ما سيحدث بعد ذلك في الولايات المتحدة الأمريكية. ولكن في سياق التحليل، يظهر أن مشاكل الولايات المتحدة في الواقع قليلًا ما ترتبط (ربما حتى وقت قريب) بعودة اقتصاديات الكساد في مكان آخر. يؤكد الميثاق الكينزي على الثقة في الأسواق الحرة؛ ففي أمريكا، تتدخل الحكومات عادة في الأسواق لتحقيق الاستقرار فيها، سواء من خلال الإنفاق الحكومي الكبير عند الضرورة، أو من خلال التعديلات الأكثر انتظامًا من قِبل الاحتياطي الفيدرالي لسعر الفائدة الأساسي. لم تَعُد اقتصاديات الكساد بسبب فشل حكومات الولايات المتحدة في اتباع الأفكار الكينزية، سواء كانت الحكومة التي تتولى السلطة تدَّعي الإيمان بتلك الأفكار أو ترفضها. إن المشكلة الحقيقية هي في عمليات الميثاق الكينزي على الصعيد العالمي، وهو ما يشير إليه بوصفه السبب «الثاني»، الأكثر أهمية، لحدوث الأزمة المالية العالمية. ولهذا انعكاساته على النظرية المعرفية التي تحكم الاقتصاد — أي ادعاءاتها المعرفية؛ ومن ثَمَّ قدرتها على العمل بوصفها نظامًا منطقيًّا — وكذا على العمليات الفعلية للاقتصادات الفعلية. وعلى الرغم من أن كروجمان كان على صواب إذ لفت الانتباه إلى هذا الانهيار المعرفي، فإنه فشل في معرفةِ ما قد يعنيه هذا بالنسبة إلى الرأسمالية العالمية الجديدة، مفضلًا الاعتماد على مزيج من نقد السياسات والوعظ الأخلاقي (أشخاص أشرار يحكمون على نحو سيئ) عندما ينقل تحليله إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

كيف يمكن للمرء أن يتعامل مع اقتصاد يعاني من أزمة لتجنب الركود أو الكساد؟ يمكن للمرء أن يخفض أسعار الفائدة أو يقلل الضرائب أو يزيد الإنفاق، أو يطبق مزيجًا من هذه الإجراءات. هذا هو المطلوب بموجب بنود الميثاق الكينزي. ما يفاجئ

كروجمان في تأملاته حول الأزمات الاقتصادية العالمية (فيما بعد عام ١٩٨٩) هو أنه في جميع الحالات — المكسيك، والأرجنتين، والبرازيل، وتايلاند، وماليزيا، وإندونيسيا — دعا صندوق النقد الدولي ووزارة الخزانة الأمريكية إلى اتباع «سياسات منحرفة تمامًا لاقتصاد السوق الناشئ من منظور المذهب الاقتصادي القياسي.»[100] وبدلًا من خفض أسعار الفائدة، حدثت زيادة فيها؛ وبدلًا من زيادة الإنفاق الحكومي، فُرض التقشف المالي وضعفت العملات؛ وأدى ذلك إلى زيادة أعباء الديون بالنسبة إلى الحكومات والشركات والأفراد؛ وكانت النتيجة هي زيادة الضرائب. وهناك الرد المعتاد على هذا الانحراف في السياسات الذي يقوله الكثيرون ممن ينتمون لليسار؛ وهو: باختصار هذا مثال لتحقيق الربح الفاحش من جانب المصالح الحكومية والمالية الأجنبية في العالم المتقدم، على حساب الاقتصادات الجديدة في العالم النامي. ويقدم كروجمان سببًا مختلفًا لعدم عمل الميثاق الكينزي خارج العالم الغربي؛ ألا وهو: الخوف من المضاربين.

في كل دراسة من دراسات الحالة التي عرضها كروجمان، نجد أن الحكومات غير قادرة على إيقاف انهيار عملاتها وهروب رءوس الأموال الأجنبية، بغض النظر عما تفعله. وبمجرد أن يكون هناك فقدان للثقة في اقتصاد بلدٍ ما بسبب مشكلةٍ ماليةٍ ما، تبدأ عملية من الصعب التعافي من نتائجها. وسواء كانت مشكلة معينة تدل على قضايا أكبر كامنة متعلقة بالاقتصاد الكلي أم لا، يمكنها أن تتسبب في فقدان ثقة المستثمرين، وينتج عن هذا هبوط لقيمة العملة وارتفاع في أسعار الفائدة، في محاولة لجذب المستثمرين مرة أخرى، لكنه يؤدي لركود الاقتصاد بسبب ارتفاع أسعار العملات الأجنبية وزيادة تكلفة الديون؛ الأمر الذي يؤدي إلى مزيد من المشاكل المالية للمصارف والأسر والشركات في البلاد؛ ومن ثَمَّ إلى خسارة المزيد من الثقة، وهكذا دواليك. يقول كروجمان في هذا الشأن: «لأن هجمات المضاربة يمكن أن يكون لها تبرير، لا يكفي اتباع سياسة اقتصادية منطقية من حيث الأساسيات لضمان الثقة في السوق. في الواقع، يمكن للحاجة إلى كسب تلك الثقة أن تمنع الدولة من اتباع سياسات حكيمة أخرى، وتجبرها على اتباع سياسات تبدو في الظروف العادية منحرفة.»[101] إن ما ينطبق على الحكومات القومية ينطبق أيضًا على صندوق النقد الدولي:

> لأن الأزمات يمكن أن تكون محققة لذاتها، لا يكفي اتباع سياسة اقتصادية سليمة لكسب ثقة السوق؛ فلا بد من التوافق مع مفاهيم السوق وتحيزاتها

> وأهوائها، أو — بالأحرى — يجب على المرء أن يتوافق مع ما «يأمل» أن تكون عليه مفاهيم السوق …
>
> لقد أصبح الأمر بمنزلة ممارسة لعلم النفس للهواة؛ حيث حاول صندوق النقد الدولي ووزارة الخزانة إقناع الدول بأن تفعل أشياء تأمل أن تراها السوقُ ملائمة.[102]

هل كان على الحكومات الأجنبية وصندوق النقد الدولي أن تمارس هذه الألعاب؟ في كل حالة من الحالات التي يحللها كروجمان، يشير إلى المسارات الأخرى التي كان يمكن اللجوء إليها. ومع ذلك، يبقى استنتاجه واضحًا لا لبس فيه، وهو: «خلاصة القول هي أنه لم تكن هناك خيارات جيدة. يبدو أن قواعد النظام المالي الدولي لم تقدِّم أي مخرج للعديد من البلدان؛ ومن ثم، فلا يمكن الإلقاء باللائمة على أي أحد بسبب سير الأمور بنحو سيئ للغاية.»[103]

يبدو أن الميثاق الكينزي الذي يتوقف عليه مصير الأسواق يعمل فقط في حالة البلدان الغربية المتقدمة؛ أما في أي مكان آخر، فيصبح علم الاقتصاد لعبة لعلم نفس الهواة تعتمد على جانب مختلف من الفكر الكينزي: «الغرائز الحيوانية».[104] لكن في عصر الاقتصاد العالمي، أثبتت الأحداث الأخيرة أن هذه الغرائز الحيوانية أصابت الكوكب بأسره بعدواها. لقد استمر الحل الكينزي في مواجهة الكساد العظيم — وساعده في الظهور بسرعةٍ نشوبُ الحرب العالمية الثانية، بمتطلباتها الهائلة على خزينة الحكومة — في العمل بالدرجة التي يعمل بها فقط بسبب أن رأس المال في كل مكان يمكن أن يعود ليجثم قريبًا من الأمان النسبي للولايات المتحدة الأمريكية. لقد كانت الولايات المتحدة مكانًا معفًى من ألعاب الثقة؛ وكان هذا الاستثناء ضروريًّا لاستمرار النظام بأسره في العمل. لقد كان حجم وقوة الاقتصاد الأمريكي من أسباب الثقة الثابتة (نسبيًّا) فيه؛ وكان السبب الآخر هو اقتصاد الحرب الدائم لأمريكا (أي ما يشبه ما كانت عليه الحرب العالمية الثانية بالنسبة إلى الفكر الكينزي)، الذي يتعهد العملة الأمريكية (ما يدعوه روبرت كورتس «دولار الأسلحة»)[105] بوصفها وحدة للتبادل العالمي. ويبدو أن هذا المركز المستقر أيضًا كان مهمًّا لليقين الذاتي المعرفي للاقتصاد.

وماذا الآن بعد أن تم استبدال علم نفس الهواة وألعاب الثقة بالاقتصاد «في كل مكان»؟ إن حالات اللامنطقية الواضحة والانهيار السريع للأسواق والعملات (التي تليها حالات تعافٍ سريع مقابلة) تعود جزئيًّا إلى صناديق التحوط المتدنية وبنوك الظِّل التي

يلفت إليها كروجمان الانتباه (معجبًا، في بعض الأحيان). لقد كشف حجمُ الأسواق المالية ونطاقها، والسرعة التي يمكن بها اتخاذ القرارات عن طريق تكنولوجيا المعلومات، وحقائق نظام لم يَعُد هناك أي شيء خارجه — النظام الاشتراكي أو اقتصادات الدول النامية التي لم تندمج اندماجًا كاملًا في الأسواق الرأسمالية — الغرائزَ الحيوانية الكامنة داخل عملية صناعة القرار الاقتصادي من البداية. هل يمكن للسياسات والنظم الحكومية للدول القومية أن تكبح جماح تلك الغرائز إلى درجة من شأنها أن تُحدث فارقًا؟ ألا ينبغي علينا أن نراجع حقائق الميثاق الكينزي ونتخيل طرقًا أخرى لتنظيم أنفسنا على الصعيد العالمي؟ أو ألا يمكن أن نصرَّ على ميثاق أكثر كينزية مما يبدو أن كروجمان يريد أن يكون عليه (أي يتضمن أكثر من تدخلٍ للدولة على مستوى أسعار الفائدة، والضرائب، والإنفاق)؟ بالنسبة إلى كروجمان، هذا غير وارد. بدلًا من ذلك، يُسمح لأهواء السوق بالسيطرة على المشهد، وفي حالة عدم وجود أفكار أخرى، سيكون علينا فقط أن نتعايش مع «حقائق الحياة»؛ وهي: عدم المساواة والبطالة والظلم، التي ستتفاقم كلها بسبب اقتصاديات الكساد.

* * *

إذن، كيف تبدو ليبرالية بول كروجمان؟ هل يمكننا أن نعتمد عليها لتقدِّم لنا الطريق إلى المستقبل؛ مستقبل أفضل من الحاضر الذي نحيا فيه؟

تتطلب الليبرالية أن يتعايش الفرد مع عدة تناقضات، وأن يؤمن بنظرة للعالم أصبحت بالنسبة إلى الكثيرين تُعادل الواقع نفسه (ومن ثم لا تحتاج إلى تعليق إضافي). إن التناقضات — والأمور المحذوفة، والحجج المفقودة، والفجوات في المنطق — تبدو واضحة جدًّا في هذين الكتابين اللذين وضعهما كروجمان؛ ففي كتاب «عودة اقتصاديات الكساد وأزمة عام ٢٠٠٨»، يظهر لدينا اقتصاد افتراضي أصبح من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، السيطرة عليه؛ إن الآلية التي يمكن للحكومات أن تستخدمها لتحافظ على عمل الرأسمالية؛ ومن ثَمَّ تحافظ على أوقات الرخاء، كما نفترض؛ تتعرض لخطر التحول إلى مفارقة تاريخية. وفي نطاق مختلف يتعلق بالدولة القومية وليس بالاقتصاد العالمي، يَعرض كتاب «ضمير ليبرالي» تصورًا لاقتصاد شبه عادل يعتمد على التدخل الحكومي، مع تقديم حل يبدو بسيطًا (فرض ضرائب أعلى على الأغنياء!) ولكنه يخرج عن مساره، ليس بسبب جوانبه المعرفية، ولكن بسبب سوء النية السياسية والمصالح

الشخصية. ولدرجة غير متوقعة، في أعمال كروجمان، لا تعوق تطورات الاقتصاد العالمي التي ولدت الظروف لعودة اقتصاديات الكساد مثل هذه القرارات على مستوى الدول أو تؤثر بها. على سبيل المثال، لا يرتبط الفشل في رفع الضرائب مطلقًا بحاجة الدول إلى جذب الشركات والحفاظ على استثماراتها من خلال تقليل الضرائب نتيجة المنافسة بين الدول القومية، ولكنها مجرد مسرحية محلية تتعلق بصعود حركة المحافظين؛ فالقومية والعالمية لا تتقاطعان؛ وكذا السياسة والاقتصاد؛ حيث تحافظ كلٌّ منها على المجال الجغرافي لنفوذها.

أما ما هو مفقود أو محذوف في هذه الصورة، إلى جانب حقيقة العولمة وآثارها على صنع السياسات القومية والأسواق المالية، فهو شيء عادةً ما يكون في صميم الليبرالية: المستقبل. في المعتاد، لا تكون الرؤى السياسية الليبرالية مقيدة بحدود وقت معين. هناك دائمًا ما يتعين القيام به لجعل الأمور أفضل؛ المزيد من العدالة والمزيد من الإنصاف (السياسي والاقتصادي)؛ مما يتيح فرصًا حياتية أفضل للجميع. ولكن في ليبرالية كروجمان، يتوقف الزمن. وفي كتاب «عودة اقتصاديات الكساد وأزمة عام ٢٠٠٨»، تبدو رؤى كروجمان قريبة من أفكار مفكرين مثل روبرت كاجان أو فرانسيس فوكوياما إلى حد خطير من حيث التأكيد على حتمية الرأسمالية، مع كل عواقبها المصاحبة لها (البطالة) ومظالمها (التفاوتات في الدخل؛ ومن ثَمَّ في كل فرص الحياة). وبوصفه اقتصاديًّا، تبدو الرأسمالية بالنسبة إليه أكثر من مجرد نظام تاريخي لتنظيم الإنسان اجتماعيًّا؛ فهو ليس مجرد نظام في تاريخ، ولكنه نظام «عرضة» للتاريخ كذلك؛ أي إنه من المحتمل أن يكون منفتحًا على التغيير والتعديل من أجل توليد نتائج مختلفة وتقليل المظالم الاجتماعية. بالنسبة إلى هذا المفكر الليبرالي، الرأسمالية والاقتصاد لا يختلف كلٌّ منهما عن الآخر. تتضح صفة تبرير الذات للاقتصاد؛ أي ميله إلى وضع موضوع للدراسة والإبقاء عليه، ونسيان جذوره في الأيديولوجية والسياسة في طريقه ليصبح علمًا، بصورة صارخة عبر كتاباته.[106] لا يمكن لِكروجمان أن يؤطر تفكيره ضد الحقيقة القائلة بأن ظهور الرأسمالية على صعيد عالمي بعد نهاية الاشتراكية هو ظهور للاقتصاد السليم إلى حيز الوجود — ذلك الموضوع الذي يدرسه الاقتصاديون علميًّا — وهو ما أعاق تعبيره التاريخي العالمي عن ذاته على نحو كامل الهواةُ الذين أرادوا أن يمنعوا التقدم عن طريق إفساد الاقتصاد من خلال السياسة.

المشكلة هي أن هذا الاقتصاد اتضح أنه قاسٍ، إلا أن هذه المشكلة تظهر فقط إذا كان هناك مَن لديه ضمير، أو بالأحرى إذا كان أحد لديه ضمير «ليبرالي». ما يفتقر إليه

كتاب «ضمير ليبرالي» هو وجود أي عرض للمبادئ الأخلاقية أو رؤية للخير الاجتماعي. ألا يتطلب استدعاء الضمير ووصف وتسمية الأخيار (الليبراليين والتقدميين) والأشرار (حركة المحافظين) عرضًا للخطوط العريضة للمبادئ؛ بحيث يمكن تصورُ وقياسُ ما هو جيد (الحكومة الرشيدة والحكم الرشيد)؟ يمكن للمرء، على سبيل المثال، أن يؤكد على أن الجميع متساوون بالفعل من حيث المبدأ؛ ومن ثم، تحتاج النظم الاجتماعية إلى إعادة تصميم لتحقيق هذه الإمكانية. لا يقدم كروجمان مثل هذا السرد، لأنه يتعارض مع ما هو ممكن في ظل الرأسمالية. يتم التعامل مع الرأسمالية بوصفها المبدأ الذي يحكم المجتمع؛ فكل ما يمكن للسياسة أن تقوم به هو محاولة التخفيف من بعض نتائجها وآثارها السلبية. وفي غياب مجموعة من المبادئ لتقييم نوعية ووظيفة عمليات التخفيف هذه، فإن ما يقدمه كروجمان هو رؤية لمجتمع «سابق». لقد بُني ضميره اعتمادًا على صور من الأيام الذهبية لأمريكا: الأب يخرج إلى العمل، والأم في المطبخ، والأبناء قصار الشعر يلعبون البيسبول، والفتيات يرتدين الفساتين ويلعبن بالدُّمى. مرة أخرى، توقف الزمن عند مرحلة معينة: لا يوجد ما يمكن أن نفعله كي يصبح مجتمعنا أفضل — إذا كان المرء يعيش في الولايات المتحدة الأمريكية — سوى أن نضيف الرعاية الصحية لما كان لدينا بالفعل في الماضي. هذا الضمير يرتكز على نظرة انتقائية حتى فيما يتعلق بأيام مجد المجتمع الأمريكي. فلننظر إلى طريقة تعقيد وجهة النظر العالمية لحقبةِ ما بعد الحرب العالمية الثانية لهذا الحلم القومي بأمريكا المستقبلية حيث تسود الطبقة الوسطى:

> إن الحكاية الراسخة لعصر العوالم الثلاثة (١٩٤٥–١٩٨٩) هو أن هناك ثلاث قصص: الازدهار الطويل الذي شهده رأس المال الكينزي في الولايات المتحدة الأمريكية واليابان وألمانيا، الذي أنتج ثقافة جماهيرية فوردية عالمية قوامها الجنس والمخدرات وموسيقى الروك أند رول؛ والنضال الطويل وغير المتكافئ بين البيروقراطية الستالينية وقوى «معاداة سياسات ستالين» من جانب خروشوف و«الجلاسنوست» في العالمِ الذي يبدو منفصلًا، الخاصِّ بالديمقراطيات الشعبية المخططة مركزيًّا؛ والنهاية السريعة للاستعمار في العالم الثالث وما تلاها من مختلف أشكال التنمية والتحديث الذي تقوده الدول، سواء من خلال الإحلال الرأسمالي للمنتجات المحلية محل الواردات أو التخطيط المركزي على النمط السوفييتي.[107]

لقد أُسِّست الصفقة الجديدة الأولى بغية إنقاذ الرأسمالية من نفسها ومن التحدي المتمثل فيمن يعارضون ظلمها وتأثيرها، الذي غالبًا ما يكون عنيفًا، على المجتمعات البشرية. أما الصفقة الجديدة التي يدعو كروجمان إلى التوصل إليها (وهو ما يأمله الكثير منا)، أليست مجرد محاولة أخرى لإنقاذ الرأسمالية؟ أليست نظامًا لا يزال غير عادل ونعلم الآن أن آثاره لا تمس المجتمعات البشرية فحسب، ولكن الأرض نفسها كذلك؟ يستحق المستقبل ما هو أفضل من تكرار الحلم بتوفير حياة أفضل من خلال الرأسمالية، مهما كانت ادعاءات أنصاره مقنعة.

لقد قُدِّمت لنا ثلاث نسخ من نفس السرد تقريبًا للحاضر والمستقبل، للعولمة وما يليها. وهذه هي القصة. هناك تغييرات كبيرة (على سبيل المثال، في العمل، في المجتمع والتكنولوجيا، في طبيعة الاقتصاد) علينا (والمرجع هنا كالمعتاد يعود على الأمريكيين) أن ننتبه إليها حتى نضمن حصولنا على ما نريد، وتحسينًا لمجتمعاتنا والفرص المتاحة لنا كأفراد. إن الحاضر يشهد تحولًا، أما المستقبل، فمن المتوقع أن يبدو كثيرًا مثل الحاضر — أو حتى الماضي! — على الرغم من أن هذه الأعمال التوجيهية تخبرنا بأن هناك ما يجب إصلاحه في الوقت الحاضر. تنتج عن العولمة ظروف وسياقات جديدة، تتمثل الاستجابة لها في عدم تحديد الحاضر، وليس في إعادة النظر في النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي ثبت أن بها نقصًا أو إشكالية. ما تم تقديمه من إشارات كانت دائمًا براجماتية ووضعية؛ فهكذا يبدو العالم، لذا علينا أن نتعامل معه بعقلانية ودون أمل زائد عن الحد، إلا أن النتائج المتوقعة خيالية: يوتوبيا العمل بوصفه فنًّا ومحض تحقيق للذَّات (فلوريدا)، وظهور فردية حقيقية بمساعدة التكنولوجيا وسرعة العولمة (فريدمان)، ومجتمع رأسمالي ينتج مجتمعًا عادلًا على نطاق عالمي يصبح فيه الجميع من الطبقة الوسطى إذا لم يكونوا أغنياء (كروجمان). التعليم والأخلاق، والأمة، والمستقبل، والتاريخ، وبالتأكيد الرأسمالية: هذه هي الأشياء التي يعتقد هؤلاء المفكرون أنها ستنقذنا.

ما هي الأفكار المتعلقة بالحاضر والمستقبل التي قد نجدها لدى ناقدة أكثر راديكالية، تعارض أيديولوجيات العولمة التي أشرنا إليها، وتركز على حدود حسها العام؟

(٥) عقيدة اللاصدمة: ناعومي كلاين

جاءت كتابات ناعومي كلاين في توقيت دقيق للغاية؛ فقد بدأت البحث من أجل تأليف كتابها الأول «من دون شعار» (٢٠٠٠)، الذي يدور حول التحول في تركيز الشركات من إنتاج السلع إلى إنشاء علامات تجارية عالمية، بعد فترة ليست طويلة من انتفاضة زاباتيستا ضد اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية في عام ١٩٩٤، ونشرته مباشرة عقب ظهور الحركة المناهضة للعولمة في سياتل في عام ١٩٩٩.[108] وعلى نحو مماثل، كُتب كتاب كلاين الأكثر بيعًا «عقيدة الصدمة»، الذي كان عن صعودِ ما وصفته برأسمالية الكوارث، قبل الأزمة الاقتصادية الكبرى لعام ٢٠٠٨ بوقت قصير.[109]

بفصاحة، وفكر ثاقب، وتوازن، ولكن بنقد مستعر كذلك، تتقصى كلاين الفساد في العالم جراء التراكم الرأسمالي وآثاره السياسية المتمثلة في الحرب والتعذيب واستغلال العمالة، والقادة الشديدي الجشع. وفي مقابل كل صالة من صالات كبار الزوار في الفنادق التي زارها توماس فريدمان لِلِقاء النخبة العالمية، زارت كلاين مسارح الجرائم في المصانع المستغِلة للعمال، وأسرَّة ضحايا التعذيب في المستشفيات، وسيارات إيواء الوكالة الفيدرالية لإدارة الطوارئ في نيو أورليانز التي ينتشر فيها الأسبستوس، وسفن صيد الجمبري المحبطة في خليج المكسيك بعد التسرب النفطي الهائل الناجم عن انفجار جهاز حفار نفطي تابع لشركة بريتيش بتروليوم. ولكن مثل فريدمان، تعتمد كلاين أيضًا على تجاربها الخاصة ومجموعة من الحكايات الشخصية لسرد قصصها لعدد متزايد من القراء، من الفوضويين الشباب الذين يحتاجون إلى سرد واضح لتفسير سخطهم إلى الليبراليين الأكبر سنًّا الذين يحتاجون إلى التحرر من الوهم وهم يواجهون تناقضات الرأسمالية.

فلنأخذ، على سبيل المثال، بداية كتاب «عقيدة الصدمة». تصف كلاين وجودها في نيو أورليانز بعد إعصار كاترينا مباشرةً. لقد استمعت، بالإضافة إلى ضحايا الكارثة، إلى السياسيين وهم يتغنون بالمزايا التي نتجت عن الكارثة رغم كل ما حدث من الدمار، موضحين لجمهورهم كيف استطاع إعصار كاترينا أن يُنتج، بفاعليةٍ، ما عجز عنه العديد من السياسيين والمطورين العقاريين: «بداية جديدة» و«صفحة بيضاء» لإعادة بناء المدينة. شعرت كلاين بالفزع! سمعت كلاين واحدًا من الضحايا يقول: «هذه ليست فرصة. إنها مأساة بائسة، ألا يبصرون؟»[110] ويردُّ آخر قائلًا: «بلى، هم يبصرون، لكنهم أشرار. إنهم يبصرون جيدًا.»[111]

يقدم كتاب «عقيدة الصدمة» تأريخ كلاين لشر هؤلاء: طريقة انتظار شكل معين من التراكم الرأسمالي (الشكل الذي يمنح الحرية شبه الكاملة للشركات ويرفض دولة الرفاهة من خلال رفع القيود والخصخصة وتخفيضات الضرائب) للأحداث الكارثية، أو بالطبع التسبب بها، بغية فرض أسسها السوقية على السكان الضعفاء اجتماعيًّا والمصدومين نفسيًّا؛ فبدءًا من الإطاحة برئيس الوزراء الإيراني محمد مصدق عام ١٩٥٣، والانقلاب الذي تم تحت رعاية وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في جواتيمالا بعد ذلك بعام واحد، إلى تدريب طلاب الجامعات في أمريكا اللاتينية لتثبيت الأفكار الليبرالية الجديدة في جميع أنحاء المخروط الجنوبي في ستينيات القرن العشرين وسبعينياته، مرورًا بحربَي العراق، وإعصار كاترينا، وحتى الأزمة الاقتصادية عام ٢٠٠٨؛ تبدو فكرة كلاين واضحة: الرأسمالية الليبرالية الجديدة تتغذى على الكوارث، وتشحذ هذه الشراهة مجموعة صغيرة من الأفراد الأشرار، بدءًا من ميلتون فريدمان إلى آلان جرينسبان وَدونالد رامسفيلد.

إلا أن التاريخ الوارد في كتاب «عقيدة الصدمة» يختلف عن تاريخ الشر المعروض في كتاب كلاين الأول «من دون شعار»؛ ففي كتابها الأول، لا تبدي كلاين اهتمامًا كبيرًا بالرأسمالية الليبرالية الجديدة وقادتها السياسيين المثيرين للجدل، بل تهتم أكثر بتتبع أماكن الفساد والعدوان على الأفراد من قِبل المديرين التنفيذيين للشركات وأصحاب المصانع. في الواقع، تخفي الأولوية الجديدة الخاصة بإنشاء الشركات للعلامات التجارية للشركات ومراقبة صورتها التي عالجها كتاب «من دون شعار»؛ الممارساتِ الفعليةَ للشركات؛ فبما أن الإعلانات لم تَعُد تشير مباشرة إلى المنتجات نفسها، بل إلى نمط الحياة الخيالي والتأثير المرتبط بهذه المنتجات، فهناك فك ارتباط ليس فقط فيما بين ماهية المنتج (أي استخدامه) وما يدعيه (علامته التجارية)؛ ولكن، وأكثر من ذلك دهاءً، بين ما تقوله الشركة عن نفسها (تمثيلها لنفسها في صورة جيدة) وما هي عليه «بالفعل» (كيف تنتج، ومن تتعاقد معه للإنتاج، والآثار الفعلية لمنتجاتها على المستهلكين). إن هذا الكتاب ما هو إلا قصة بوليسية. في مسرح الجريمة، هناك أحذية نايكي، ولكن للقبض على المذنبين على كلاين أن تجمع القرائن معًا في طريقها لتحديد المجرمين الحقيقيين؛ أولًا الرئيس المحلي للمصانع المستغلة للعمال في الخارج، ثم الرئيس التنفيذي الشرير نفسه.

إن التاريخ الذي تعرضه كلاين في عملها «من دون شعار» هو تاريخ العدوان، تاريخ الفاسدين الذين ضُبطوا متلبسين. وهذا هو بالضبط ما قُدِّم باعتباره القوة

الأخلاقية للحركة المناهضة للعولمة في بدايتها. إذا عَرَفَ المستهلكون الشباب من أين جاءت ملابسهم، وإذا كانوا قادرين على رسم خريطة بكل الشبكات المتضمنة في تقديم قهوة ستاربكس التي يحصلون عليها، فسوف يشعرون بالاشمئزاز، وستنتهي رغبتهم في الحصول على السلع، وسيقاومون؛ ومن ثَمَّ سيغيرون العالم بفاعلية. هناك ثلاثة افتراضات رئيسية هنا؛ أولًا: أن معرفة كيفية عمل شيءٍ ما ستغير بالضرورة تصرف المرء إزاءه. ثانيًا: أن تغيير سلوك الفرد سيؤدي بالضرورة إلى إحداث تغيير اجتماعي منهجي. وثالثًا: أن جذور الفساد يمكن العثور عليها في فعل العدوان نفسه. لفهم ما هو على المحك في الكتاب وتسليط الضوء عليه في مقابل ما جاء به كتاب «عقيدة الصدمة»، يجب أن نتناول هذه الافتراضات واحدًا تلو الآخر.

ينص الافتراض الأول على أن معرفة كيفية عمل شيءٍ ما ستغير بالضرورة تصرُّف المرء إزاءه. إذا كان علم النفس قد علَّمنا أي شيء، فهو أن مجرد فهم أعراضنا لا يقاطع بالضرورة رغبتنا القهرية في تكرارها. قد نعلم جيدًا أننا نصبح عدوانيين بنحوٍ غير عقلاني عندما ينتقدنا الآخرون، وقد نعلم جيدًا أن هذه عادةٌ متكررةٌ لدينا منذ الطفولة، إلا أن معرفة هذا التاريخ وفهم المحفزات لا يؤديان بالضرورة إلى إعادة تشكيل سلوكنا. في الواقع، غالبًا ما تكون معرفتنا وفهمنا لمثل هذه الأعراض هي تحديدًا ما يعيد تحفيزها ويبقي عليها. إن الرعب الأكبر ليس في وجود سجون وعمليات تعذيب غير قانونية في سجن جوانتانامو، ولكن أن هذه السجون والممارسات موجودة مع كامل علمنا بها. إن الوعد القائل «فقط إذا علموا، فسوف يغيرون الأمر» لَهُو وعد كاذب؛ «فقط إذا كانوا يعرفون بالانتهاكات في سجن أبو غُريب، وأن صدام حسين لا يمتلك أسلحة دمار شامل، وأن إهمال بريتيش بتروليوم مدبر، وكيف تصنع أحذية التنس التي يرتدونها، وكيف يشنون هجومًا عندما يتعرضون للانتقاد؛ لو كانوا يعرفون حقيقة الوضع، فسوف يغيرون كل هذا.» وقد اتضح أن هذا الوعد كان خاطئًا تمامًا ومضللًا أيديولوجيًّا، وخاصة في المحيط الإعلامي المشبع اليوم؛ حيث يمكن إحراج الساسة باستخدام مقاطع اليوتيوب التي عمل مونتاج لها، التي تعرض تناقضاتهم ونفاقهم. في الواقع، إن الانتشار الكبير لهذه الفضائح لا يضاهيه سوى الانتشار الكبير للتناقضات نفسها. لا يبدو أن هناك من يشعر بالدهشة، كما لا يبدو أن أحدًا يهتم كثيرًا.

يقودنا هذا إلى الافتراض الثاني القائل بأن تغيير سلوك المستهلك سوف يؤدي بالضرورة إلى تغيير اجتماعي منهجي. عند فحص هذا الافتراض، نحن لا نجادل ضد

عمليات المقاطعة أو تحركات المستهلكين الجماعية. صحيح أن رأسمالية السلع لا يمكن أن تستمر إذا لم يَعُد هناك شراء للسلع، إلا أن السلع الأكثر ربحية (التي تدفع النظام) هي تلك التي لا يمتلك الكثير من الناس أي خيار إزاء استهلاكها. نحن هنا نشير إلى الأسلحة والدواء والغذاء، هذه الصناعات الثلاث التي يبلغ قدر الإنفاق عليها حوالي ثلاثة تريليونات دولار سنويًّا؛ أي ما يوازي حوالي ٦ في المائة من الناتج المحلي الإجمالي العالمي. هذا يعني أن قدرًا كبيرًا من إنتاج السلع لا يحدث بسبب خيارات المستهلكين الفردية؛ ومن ثم سلوك المستهلك. إذا تغير سلوك المستهلك (أي إن الفرد يصوِّت عن طريق خياراته الاستهلاكية) حتى مع تزايد أعداد الناس الذين لا يمكنهم أحيانًا أن يكونوا في حال يسمح لهم بالاستهلاك (بسبب الفقر والعوز)، ولكن نظام السلع استمر على ما هو عليه؛ إذن فكيف سيغير هذا من الوضع؟ كيف سيصبح الوضع في عالم تستمر فيه الرأسمالية حتى وإن لم يَعُد أحد يستثمر فيها، وهذا النقص في الاستثمار يكون أكثر على المستوى الأيديولوجي وليس على المستوى المالي؟ هناك طريقة أخرى لطرح هذه الأسئلة؛ وهي التأكيد على أن الأيديولوجية الرأسمالية المهيمنة لا تعمل عن طريق توليد نوعٍ من الوعي الزائف تجاه مشاكل الرأسمالية (بحيث يتم خداع الفرد ليعتقد أن الرأسمالية شيء مقدس)، وإنما تعمل تحديدًا من خلال الكشف عن مشاكل الرأسمالية نفسها، ولكن بطريقة تجعل هذه المشاكل تبدو دائمة ولا يمكن حلها.

في الواقع، نميل إلى القول بأن هناك أيديولوجية جديدة مهيمنة (من واقع رأسمالي قديم) قادمة إلى حيز الوجود، هذه الأيديولوجية التي يُفهَم من خلالها العالم ويُمثَّل بطريقة أقرب إلى عمل العالم الفعلي. يبدو أن سكان العالم يعرفون بالضبط طريقة عمل الرأسمالية (من خلال الحصول على فائض القيمة من أولئك الذين يكدحون في الحقول والمصانع وصناعة الخدمات) وآثارها الاجتماعية (الصراع الطبقي، وعدم المساواة بين الجنسين، والعنف الاستعماري، ونزع الملكية الوحشي، وتدمير البيئة، والمعاناة النفسية). لا يعني هذا أننا قد وصلنا إلى نهاية الأيديولوجية، ولكنه يعني فقط أن «الأيديولوجية السائدة اليوم هي حقيقة النظام الرأسمالي نفسه.» ولكن، من جديد، لا تغيِّر معرفةُ نظامٍ ما وتعديلُ السلوك وفق هذه المعرفة بالضرورة النظامَ نفسه، إلا أنها تؤدي إلى نضال سياسي أكثر انفتاحًا وصدقًا (إن لم يكن بالضرورة أكثر عنفًا): فالخط الذي يفصل بين الرابحين والخاسرين، الأقليات والأغلبيات، الأغنياء والفقراء، الرأسماليين والمناهضين للرأسمالية؛ واضح للجميع. هذه الخطوط كانت موجودة بالتأكيد عند كتابة

كلاين كتابها «من دون شعار»؛ إلا أنها كانت تظهر بطريقة أقل صراحة ومباشرة: إن المنطق المضطرب لنظرية التحديث («سنرتفع جميعًا ... البعض بعد الآخرين بقليل») وأيديولوجيات الحرب الباردة («وجود التقسيمات الاقتصادية تضحية سياسية مؤقتة من أجل الحصول على الحرية») ما زالا هما السائدَين. بعبارة أخرى، في وقت صدور الكتاب كنا لا نزال نشعر بالصدمة لمعرفة أنه قبل وصول الإفطار إلى موائدنا يمر من خلال شبكة منحطة من أعمال السخرة، وبقايا الاستعمار، واستغلال الأيدي العاملة من خلال التقنية العالية. ولكن بحلول وقت صدور كتاب «عقيدة الصدمة»، لم يَعُد هناك أحد متفاجئًا (إلا الذين تَفَاجئوا منذ وقت طويل).

ردًّا على الافتراض الثالث، والمتمثل في أنه يمكن العثور على جذور الفساد في فعل العدوان نفسه، نقول إنه تحدث تجاوزات في الرأسمالية، ليس لأن الرأسمالية قد سارت على الدرب الخاطئ، ولكن لأنها سارت على الدرب الصحيح؛ أي إنها أصبحت تعمل وفق تصميمها. لقد أشرنا إلى هذا من قبل، ولكن من الضروري أن ندرك كيف يحدث هذا. في الواقع، من دون إدراك هذا المنطق الأكبر للرأسمالية (المنطق الذي يعمل في الخفاء ونحن منشغلون بأحدث فضيحة أو حالة فساد)، يتخلى الفرد عمليًّا عن السياسة على ما هي عليه. إن انتقاد الرأسمالية بسبب أعمالها المتجاوزة (على سبيل المثال، احتراق المصانع وعدم تنفيذ بنود العقود وعمالة الأطفال) هو بمنزلة التخلي عن تحليل كيفية إنتاج الرأسمالية لعدم المساواة، حتى عندما تعمل بنحو سليم (على سبيل المثال، عندما تكون المصانع نظيفة، ويتم الالتزام ببنود العقود، وعندما يستطيع العمال أن يضعوا قدراتهم الإبداعية موضع التنفيذ وفق ما يريد ريتشارد فلوريدا). هل يحتاج المرء حقًّا إلى أن يكون ماركسيًّا اليوم ليدرك أن النظام قائم على الهيمنة، ومُنظَّم لإنتاج ثروة كبيرة لأقلية مميزة؟ هل يحتاج المرء حقًّا إلى أن يكون أحد أعضاء ما يسمى بائتلاف الحُمْر والخُضْر ليدرك أن ثقافة السلع تدمر البيئة؟ هل يحتاج المرء حقًّا إلى أن يتعرف على المادية الجدلية ليدرك أن الحرب والسجون ليست صناعات مربحة للغاية فحسب، ولكن أيضًا لا غنى عنها لإعادة إنتاج الرأسمالية؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة الثلاثة هي «لا!» مدوية، كما توضح كلاين في كتابها «عقيدة الصدمة». إذا كان كتاب «من دون شعار» قد لجأ إلى تاريخ العدوان (باحثًا عن لحظات الكشف عن المعتدين)، فإن كتاب «عقيدة الصدمة» يعرض تاريخ الأزمات (حيث يقل اهتمامه بالأفعال الشريرة ويركز أكثر على الخطايا العاملة للرأسمالية

الليبرالية الجديدة). في الحقيقة، كان ميلتون فريدمان نفسه هو من قدَّم لكلاين شعار الأزمة خاصتها؛ فتكتب كلاين قائلة: «لقد لاحظ أن «الأزمة فقط، سواء فعلية أو مدركة، يمكن أن تُنتج تغييرًا حقيقيًّا. عندما تَحْدث تلك الأزمة، تعتمد الإجراءات التي يتم اتخاذها على الأفكار المحيطة. إن هذه، على ما أعتقد، هي وظيفتنا الأساسية: تطوير بدائل للسياسات القائمة، وإبقاؤها في حيز الوجود ومتاحةً حتى يصبح المستحيل سياسيًّا لا مفر منه سياسيًّا.»»[112] وتضع كلاين في نهاية هذا الاقتباس علامة تعجب: «بعض الناس يخزنون السلع المعلبة والمياه استعدادًا للكوارث الكبرى؛ أما أتباع فريدمان، فيخزنون أفكار السوق الحرة!»[113]

بالنسبة إلى كلاين، تقوم رأسمالية الكوارث بتثبيت دعائمها الاقتصادية بينما الناس في أضعف حالاتهم. أما الليبراليون الجدد، فيذهبون لأبعد من ذلك؛ فهم يستغلون حاجتهم وضعفهم قبل أن يكونوا في أضعف حالاتهم. فهم يخططون للانقلابات ويمولونها، ويعملون على تفاقم الكوارث الطبيعية، ويسعون لإحداث حالات ركود، حتى يتمكنوا من تحقيق مآربهم بأقل قدر ممكن من المعارضة. ليس من الصعب تأكيد كل هذا من خلال استعراض سجلات التاريخ، (كما فعل فريدمان في الاقتباس أعلاه) مع اعتراف الليبراليين الجدد أنفسهم بأساليبهم دون خجل أو ندم. ولكن الليبراليين الجدد لديهم ردَّانِ بسيطان وقويان، وهما ردَّان عجزت كلاين عن معارضتهما على نحو كافٍ في مناظرة مع آلان جرينسبان. يتمثل الرد الأول في الآتي: «اذكري لي اسم نظام أفضل؛ نظامٍ أنتج المزيد من الثروة لمزيد من الناس أكثر من الرأسمالية»؛ ويكمل جرينسبان بالرد الثاني الذي كان يعتبره الضربة القاضية: «إن الفساد أمر إنساني، ولكن الرأسمالية هي أفضل النظم تحديدًا في طريقة إبقائها الفساد تحت السيطرة النسبية.» ويطرح جرينسبان السؤال التالي: «ما الذي تحاولين قوله ... إن السوفييت لم يكونوا فاسدين؟»[114]

قبل أن تنهي كلامها، تجيب كلاين على السؤال الأول حول النظام البديل بعبارة «الاقتصاد المختلط». وفي كتابها «عقيدة الصدمة»، تستفيض كلاين في شرح هذا الأمر قائلة:

> لا أزعم أن جميع أشكال أنظمة السوق عنيفة بطبيعتها؛ فمن الممكن جدًّا أن يكون هناك اقتصاد سوق لا يتطلب مثل هذه الوحشية أو مثل هذا النقاء الأيديولوجي. يمكن للسوق الحرة في مجال المنتجات الاستهلاكية أن توجد

> مع الرعاية الصحية العامة المجانية، والمدارس الحكومية، وامتلاك الحكومة لشريحة واسعة من الاقتصاد، مثل شركة نفط قومية ... لا يتعين على الأسواق أن تكون أصولية.[115]

بهذه الكلمات، عادت بنا كلاين إلى الجدل الدائر بين كينز وهايك، ووجدنا أنفسنا محاصَرين في نفس الزاوية التي وجدناها مع كروجمان. في نهاية المطاف، ولكن عن غير قصد، تتفق كلاين وكروجمان مع جرينسبان، في الاعتقاد بأن الرأسمالية أفضل من جميع النظم، وعلى الرغم من كل الوحشية التي سُجلت عنها، لا تزال تسبق سائر الأنظمة في الحاضر والمستقبل. وبالطبع، هذا هو سبب عدم تقديم كلاين لإجابة مناسبة عن النقطة الثانية التي أثارها جرينسبان عن الفساد.

إن مشكلة الفساد هذه تحديدًا هي التي تحتاج إلى توضيح. هناك نقطتان رئيسيتان: دائمًا ما يجذب الحديث عن الفساد، إما بطريقة اتهامية واسعة النطاق ضد كل الرأسماليين، وإما بطريقة أكثر انتقائية ضد الليبراليين الجدد؛ الانتباهَ بعيدًا عن النقد المنهجي للأشخاص السيئين الأشرار في النظام. بالطبع، هناك «أناس أشرار»، ويجب أن يحاسبوا، ولكن تفضيلهم عن سائر المناهج النقدية خطأ استراتيجي. في الواقع، نحن ننادي بنهج نقدي يمكن تسميته نقدًا للرأسمالية لا يعتمد على الجانب الأخلاقي، ذلك النقد الذي يهتم بالهياكل والقيود الخاصة بحس الرأسمالية العام، ويركز على نجاح النظام بدلًا من فشله. ولكن ماذا يمكن لمبادئ مثل هذا النقد أن تكون؟[116]

أولًا: «لن يكون الدافع إليه شخصيًّا.» بطبيعة الحال، هناك دافع شخصي وراء كل عمل حيث إنه يصدر من فرد بعينه، كما أنه بالضرورة مشكَّل عن طريق الرغبة الواعية وغير الواعية. في هذه الحالة، يعني النقد غير الشخصي للرأسمالية أن يدرك الشخص أولًا أنه «بالضرورة» جزء من الرأسمالية، ملتحف بالضرورة بأيديولوجياتها، وأنه يتشارك في هذا التواطؤ مع الآخرين، سواء الأصدقاء أو الأعداء. لا يوجد مهرب من الرأسمالية؛ حيث إنها ليست إنتاجًا واستهلاكًا للسلع فحسب، ولكنها وضع له أشكال خاصة من التبادل، وصناعة المعنى، والعلاقات الاجتماعية، والرغبة، والاتصالات، والفكر، تغرس نفسها بالضرورة في ذواتنا لدرجة أن محاولة تجنبها هي أشبه بمحاولة تجنب أعمق عاداتنا. هذه العلاقة التي لا تنفصم مع الرأسمالية (التي تؤثر على طريقة فهمنا وتمثيلنا لها) تؤدي إلى إدراك أن أي نقد للرأسمالية اجتماعي بالضرورة، وبالضرورة جزء من شيء يتجاوز الإنتاج الفردي للنقد.

ثانيًا: «هذا النقد غير موجه إلى أشخاص بعينهم.» بدلًا من ذلك، هو موجه إلى هيكل، ونظام، ومنطق الرأسمالية؛ الأمر الذي يتطلب خطابًا أقل تركيزًا على الأفراد، وفهمًا تحليليًّا أكثر لكيفية عمل الرأسمالية. وكما ذكر أعلاه، لا تحدث الأزمة في الرأسمالية لأنها سارت في الدرب الخاطئ، ولكن لأنها سارت على الدرب السليم؛ فقد أدت الدور المطلوب منها. في الواقع، ودون إدراك المنطق الأكبر هذا للرأسمالية، ذلك المنطق الذي يتوارى ويختبئ عندما تستحوذ علينا أحدث فضيحة أو واقعة فساد، يتخلى المرء عمليًّا عن السياسة على ما هي عليه.

يقودنا ذلك إلى المعيار الثالث لهذا النقد للرأسمالية؛ وهو: لأن هناك دائمًا شيئًا داخل النظام يخرج عن المنطق المنهجي ذاته ولا يستطيع أي نقد أن يجسده بالكامل، «يجب على المرء أن يكون منفتحًا إزاء تناقضات الرأسمالية، ويحاول أن يدركها، بدلًا من محاولة إدارتها، أو حلها، أو قمعها على الفور.» يعني هذا أن الرأسمالية يمكن أن تُنتج أشياءَ رائعة، وفي نفس الوقت تتسبب في دمار يَفْطُر القلبَ. إن إدراك هذا ما هو إلا إدراك أيضًا لتاريخ الرأسمالية، وخاصة الآثار التحريرية التي لا مراء فيها، التي يسرتها ثورة تأسيسها. ولكن إدراك ظهور الرأسمالية التاريخي إلى حيز الوجود هو أيضًا إدراك بأنها يمكن أن تخرج من الوجود تاريخيًّا. تعمل هذه الحقيقة البسيطة على دعم النقد الخالي من الجوانب الأخلاقية؛ حيث إنها تغيِّر التصور المأخوذ عن الرأسمالية، وتَفتح الطريق أمام عمل تحليل مقارن لها مع سائر التشكيلات الاجتماعية.

لا يستند هذا التحليل المقارن (الذي يعني أيضًا مقارنة الرأسمالية بسائر أشكال الأنظمة التي لم تظهر بعد) إلى الرغبات والادعاءات الأيديولوجية لمختلف الأنظمة (الديمقراطية والحرية، على سبيل المثال)، ولكن إلى ما يقدمه كل نظام؛ مثل: الرعاية الصحية والبيئة الطبيعية الصحية، وفرص تجربة المتع المتنوعة، والمساواة الاجتماعية والعدالة الفردية، والطعام المغذي، والمأوى الآمن. ومن ثم، «يعطي النقد الخالي عن الجوانب الأخلاقية النتائج الأولوية، ويبقى غير مقتنع بالمبررات والحجج غير الاجتماعية وغير التاريخية؛ مثل الرضا بالتذرع بندرة الموارد الطبيعية، أو الطمع والخير المتأصل في البشر.» ويوحي هذا الدافع المقارن كذلك بالقيام بتجارب رسمية للبدائل، من وضع النماذج الاجتماعية حتى روايات الخيال العلمي. في الواقع، ينبغي عدم اللجوء لتبرير هذه التدريبات نفسها اعتمادًا على أي نقد مستند إلى الجوانب الأخلاقية، وكذا لا ينبغي أن تثبطها قيود العملية أو الاستحالة. قد يكون الإتيان بالمستحيل أمرًا مستحيلًا، إلا أن مجرد تصوره يمكن أن يغير نطاق الاحتمالية.

ويفضي هذا إلى المعيار النهائي لنقد الرأسمالية الخالي من الجوانب الأخلاقية؛ ألا وهو: إذا تحدثنا من منظور الشر أو الخير، فينبغي أن يُنظر إلى هذه الصفات والأفعال بوصفها الأعراض وليست الأسباب التي أدت إلى النظام موضع البحث. لا تسبب الأفعال الشريرة أزمات الرأسمالية ثم تحل هذه الأزمات من خلال تجريد الأفراد من ثرواتهم وكرامتهم. لقد بُنيت هذه العملية من الأزمات وانتزاع الحقوق داخل النظام نفسه، ومثل أي آلة، يمكنها أن تؤدي بعض الأفعال دون غيرها. وبدلًا من إضفاء الصفة البشرية على الرأسمالية مع الادعاءات التمثيلية بمدى شرها أو صلاحها، يراها النقد الخالي من الجوانب الأخلاقية على ما هي عليه؛ آلة بناها الإنسان لتؤدي وظائف مختلفة استنادًا إلى قواعد ومبادئ أساسية معينة. في الواقع، يولد مثل هذا النقد درجة معينة من احترام الرأسمالية على أساس مدى قدرتها على أداء هذه المهام، حتى ولو كانت هذه المهام قاسية مثل تدمير الأعمال التجارية المملوكة لأسرةٍ ما، أو مصادرة الأراضي من أصحابها. وبدلًا من التشكك والغضب الذي يفضي إلى نتائج عكسية، يُنتج هذا النقد صوتًا واضحًا (ولكنه غاضب) واستجابة محددة (سواء كانت موضوعية بشدة أو عقلانية، أو شعرية) لا ترجع للجوانب الأكثر إيلامًا وجمالًا في الحياة اليومية للرأسمالية.

ويعود هذا بنا إلى التمييز بين الصحافة والكتابة الأكاديمية الذي عرضنا له في مناقشتنا لتوماس فريدمان. هل أكبر نقطة قوة تميِّز عمل كلاين — أسلوبها النثري الصحفي الواضح والمقنع — هي أيضًا أكبر نقاط ضعفها؟ كي تحقق أعمالها الأغراض المنشودة بفاعلية، أي لكي تحافظ كلاين على جاذبية عملها وتأثيره على الناس، هل هي مضطرة إلى اللجوء إلى الخطاب الأخلاقي؟ هل يفترض بها أن تقود المتظاهرين في هتافاتهم التي لا مفر منها «اللعنة، اللعنة، اللعنة» على النخبة الحاكمة؟ نحن لا نعتقد ذلك. ولكن ما دامت تركز كلاين جهودها على الأفراد المدانين المشينين الأشرار، فلن يحظى نقدها أبدًا بالقوة الكاملة التي يستحقها. لا تعود هذه المشكلة إلى ميلها الشخصي لتوجيه أصابع الاتهام إلى الآخرين أو حمية المعارضة المميزة للشباب (في الواقع، هذا هو السبب الأقوى لعدم انجذاب البعض لمثال أعمال كلاين وبعض الصحفيين الاستقصائيين الآخرين المؤثرين من جيلها، مثل مات تايبي وَجيريمي سكاهيل، الذي يتكرر من واشنطن وحتى أوتاوا).[117] بدلًا من ذلك، ترجع هذه المشكلة إلى نظرية الأزمة التي يعتمد عليها عملها.

تتطلب مقاومة النقد المبني على الجوانب الأخلاقية فهمًا للأزمة بطريقة تبتعد عن الانشغال بالأحداث الفعلية أو الصفقات «المخزية» التي تَوسَّطَ فيها تلاميذ

ميلتون فريدمان، فضلًا عن بيل كلينتون (الذي ربما يُعَد أكبر تلاميذ فريدمان على الإطلاق) أو باراك أوباما (الذي أفصح اختياره لورانس سامرز كبيرًا لمستشاريه الاقتصاديين في بداية ولايته الأولى عن مدى قربه من فكر فريدمان). يدرك النقد الخالي من الجوانب الأخلاقية أن الأزمات مبنية في قلب النظام نفسه، وتكشف عن نفسها يوميًّا فيما بين الكوارث الكبيرة والأزمات الكبرى التي تستحوذ بكثافة على اهتمام وسائل الإعلام وكذلك وعي الأفراد. في الواقع، لا تستنفد الأزماتُ الأقل حدة، تلك التي تشكِّل تفاهات حياتنا اليومية (التي لا تبدو حتى مثل الأزمات، ولكنها تحافظ على سير النظام بأَسْره)، حياتَنا الخاصة فحسب، بل وعقلَنا الباطن أيضًا؛ مما يضاعف حجم الكارثة.

ومع ذلك، نحتاج هنا إلى أن نميز بين الكوارث والأزمات؛ فعلى الرغم من أن كلاين تتتبع مجموعة من الكوارث التي تلت الحرب العالمية الثانية وتُرجع أسبابها إلى الرأسمالية الليبرالية الجديدة، فإن تأريخها متأسس حول نظرية الأزمة، وهاتان الفئتان (الكوارث والأزمات) مختلفتان، فالكارثة هي لحظة فشل تكوين العلاقات المستدام؛ أي عندما تنقطع العلاقة بين شيء وآخر.[118] في الاقتصاد الرأسمالي، تظهر الكارثة عندما تنقطع الصلة بين البضائع والأسواق، أو بين رأس المال المتعطل والعمالة المتعطلة، أو عندما تظهر فقاعة عملة، مستبدلة بالكثير من المال النقدي الكثير من الهراء. في علم البيئة، تبدأ كارثة الاحترار العالمي عندما يزيد انبعاث ثاني أكسيد الكربون عن القدرة الطبيعية لكوكب الأرض على استيعابه. بالنسبة إلى مرضى فيروس نقص المناعة البشرية أو السرطان، تأتي الكارثة عندما يتكاثر منطق الخلايا بحيث يصبح منفصلًا عن منطق الجسم الحي، أو تظهر الكارثة عندما يُحْرَم المرء من العقاقير المضادة للفيروسات الرجعية أو العلاج الكيميائي بسبب عدم قدرته على دفع ثمنها. في الفلسفة، تُعرَّف الكارثة بأنها تلك اللحظة حين ينفصل التفكير عن التاريخ، بينما يعاني الأفراد من كارثة نفسية عندما لا يعودون قادرين على التواصل مع العالم. أما بالنسبة إلى الكارثة السياسية، فتأتي من العلاقة المقطوعة بين من يرغبون في التمثيل ومن هم منوط بهم مَنْح هذا التمثيل.

هناك شيء واحد نتعلمه دائمًا عند وقوع الكوارث الطبيعية (مثل تسونامي جنوب شرق آسيا أو الزلزال الذي ضرب هايتي)؛ وهو أن مثل هذه الأحداث ليست طبيعية، أو على الأقل أن آثار هذه الأحداث ليست طبيعية؛ فتداعياتها اجتماعية، كما هو واضح تمامًا؛ ولذا فهي نتيجة خيارات الإنسان، والنظم السياسية، وحتى الافتراضات الثقافية.

ومع ذلك، فإن توسيع هذا الفهم إلى الحد الأقصى يلغي فئة الكارثة نفسها، ويعود ذلك إلى أنه على الرغم من أن الكارثة طارئة وغير متوقعة، يمكن دائمًا التنبؤ بآثارها التي تكون منطقية إلى حد بعيد. كان معظم من يتبوءون مواقع في السلطة يعرفون على وجه التحديد ماذا سيحدث إذا تحطمت السدود المائية في نيو أورليانز، تمامًا كما يمكن لأي عالم في علم الأوبئة أن يتنبأ بعدد من سيَلْقَون حتفهم إثر إصابتهم بالإيدز إذا تُركوا دون علاج. إلا أن من هم في السلطة يَكْتَفون ببساطة بالتضرع والأمل في أن مثل هذه الأحداث لن تقع. وعند وقوع هذه الحوادث ومواجهة عواقبها المأساوية المترتبة عليها، يَصِفُون إياها بالكوارث تمامًا مثل وصف الرجل المحتضر بأنه مصاب بوسواس المرض.

مهما كان من الممكن التنبؤ بآثار الكوارث، فإن الطبيعة الطارئة للكوارث هي ما تميزها عن الأزمة؛ فعلى عكس الكارثة، هناك شيء ضروري في الأزمة، وهو أمر مرتبط بالشكل المنهجي الأكبر. بعبارة أخرى، تتم هيكلة النظم بحيث تحدث الأزمات، ما من شأنه أن يعزز تلك النظم ذاتها ويعيد إنتاجها. إن دورة ازدهار الرأسمالية وكسادها ما هي إلا أحد الأمثلة الأكثر وضوحًا لهذه الضرورة المنطقية؛ ومن ثم، ترتبط كلٌّ من الكوارث الطارئة والأزمات الضرورية بحيث تُبنى علاقاتها المنقطعة مرة أخرى من خلال مجموعة مختلفة من العلاقات داخل النظام نفسه.

في المقابل، فإن الثورة هي تلك اللحظة حين تتولى مجموعة جديدة من العلاقات زمام الأمور ضمن نظام مختلف. ويفسر على نحو أفضل هذا التمييزُ الصريحُ الاستدعاءَ الجديدَ والكبيرَ لمسألتَي الكوارث والأزمات على مدى السنوات العشرين الماضية، في حين أن الثورة لم يتم استدعاؤها، ليس فقط من خلال الامتناع عن التحدث عنها، ولكن الأهم من خلال عدم التفكير فيها. ويتعلق هذا الاتجاه بشدة بالوضع الاقتصادي والسياسي في حقبةِ ما بعد الحرب الباردة، وهو من أعراض تكويننا التاريخي، الذي يطلق عليه حاليًّا، خيرًا كان ذلك أم شرًّا، اسم العولمة.

لطالما كانت الكوارث والأزمات سريعًا ما تجد نفسها على ألسنة أولئك الذين يرغبون في تبرير الحوادث والمصائب؛ على سبيل المثال، لو لم يقع هذا الزلزال، لَمَا كانت المدينة ستكون على هذا القدر من الخراب؛ لولا المسئولون الفاسدون، أو أتباع رأسمالية المحسوبية، لكان النقل العام أفضل والرعاية الصحية أحسن، ولكان هناك توزيع أفضل للثروة؛ لولا الإرهابيون الجدد، لكُنَّا سنحيا دون قلق، ونننام باسترخاء على الوسائد التي اشتريناها بالعوائد التي تحققت بسبب انتشار السلام. إن الأزمات والكوارث هي

التبريرات التي نلجأ إليها عندما تفقد كل التفسيرات الأخرى قوتها العملية أو لا يمكن التحدث عنها.

ومع نهاية الحرب الباردة أصبحت الكوارث والأزمات غير المألوفة وغير المنتظمة (أي الأحداث الخارجية، مثل نيزك أو شخص مجنون) أكثر عرضة للاستدعاء لتفسير عدم المساواة والظلم. أثناء الحرب الباردة، على سبيل المثال، كان استخدام لغة الكوارث والأزمات هي استخدام لِلُغة الثورة؛ فيمكن لأحد الخطابين أن يتحول بسهولة إلى الخطاب الآخر. لقد كانت الكوارث والأزمات خطيرة بالفعل. ومع شعار «الدمار المتبادل المؤكد»، كان يمكن للأزمة أن تتراكم وتتحول إلى كثير من الأزمات حتى يتحول الكم إلى كيف وينهار النظام. علينا فقط أن نتذكر أزمة الصواريخ الكوبية أو أزمات النفط في سبعينيات القرن العشرين لنعرف أن الأزمات والكوارث كانت على مرمى حجر من التحول إلى ثورة. ولكن مع تحول الوضع الجيوسياسي بعد الحرب الباردة، حيث أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية هي القوة العظمى الوحيدة وأصبحت «نهاية الأيديولوجية» هي الأيديولوجية الحاكمة؛ أصبح استدعاء الكوارث والأزمات يبدو لا خطر منه (فضلًا عن كونه دون مقابل تمامًا). في تلك اللحظة، أصبحت الأزمات والكوارث بعيدة عن الثورة بقدر بُعد السماء عن الأرض. أما ما يحتاج إلى النظر فيه في المرحلة الحالية لما بعد الحرب الباردة، وهي تلك اللحظة التي تأتي بعد العولمة حيث لا يمكن أن نفكر فيما سيكون فيما بعد، هو إن كان هذا ما زال هو الوضع القائم. هل هناك شيء يتغير بحيث تصبح الأزمات والكوارث خطيرة مرة أخرى، ولم تَعُدْ أوراقًا رابحة في أيدي من يتولون زمام السلطة؟ هل هناك شيء يتغير بحيث يزحف الخطاب الثوري مرة أخرى إلى الوعي اليومي، إلى طريقة فهمنا للتغيير الاجتماعي الجذري، ليس هذا فحسب ولكن للوسائل الأكثر ابتذالًا التي نفهم بها أنفسنا ونفكر في المستقبل من خلالها؟

نحن نعتقد أن شيئًا ما يتغير، إلا أننا لن نفهم ذلك إلا عندما نفهم أن الأزمات والكوارث لا تدعو للاندهاش وأنها من قبيل المعتاد. لا تتعافى الرأسمالية ويُعاد إنتاجها من خلال الكوارث والأزمات، ولكن عن طريق كلِّ ما يحدث في الفترة التي تفصل بين الكوارث والأزمات؛ ولذا، فإن كتاب كلاين سيكون هو الأبرع عندما نعكس شكله الداخلي، ونفهم أن عقيدة الصدمة تتعلق بصعود الرأسمالية غير المعتمدة على الكوارث. ولكن كيف يمكن للمرء تأليف كتاب لا يتحدث عن كوارث؟ عن أزمة منتشرة؟ كيف نكتب كتابًا عنوانه قد يكون شيئًا من قبيل: «الصدمة المعتادة: الرأسمالية بوصفها عقيدة وكارثة؟»

كتب موقع ويكيليكس مثل هذا الكتاب عندما أصدر أكثر من ٢٠٠ ألف صفحة من السجلات العسكرية السرية حول الأحداث اليومية للحرب في أفغانستان من عام ٢٠٠٤ إلى يناير عام ٢٠٠٩.[119] كان هذا أكبر تسريب للوثائق في التاريخ العسكري للولايات المتحدة الأمريكية، وهو أرشيف موثَّق باللغة العسكرية المباشرة لآلاف الحالات غير المبلغ عنها لقتل المدنيين، والتعاون المريب بين الجيش الأمريكي وطالبان، وطريقة استهداف العمليات السرية للقوات الخاصة للأعداء بغرض اغتيالهم أو اعتقالهم دون محاكمة. ويُعرِّف ويكيليكس نفسه بأنه «خدمة عامة متعددة الولايات القضائية مصمَّمة لحماية المبلغين عن الأعمال غير القانونية والصحفيين والناشطين الذين لديهم مواد مهمة يرغبون في توصيلها للجماهير.»[120] وقد لفتت تسريبات ويكيليكس الكبيرة عن الحرب في أفغانستان الانتباهَ لابتذال هذه الحرب. في الواقع، كانت هذه تحديدًا هي طريقة أصحاب السلطة في التعامل مع أي ضرر قد تتسبب به التسريبات.

أكدت إدارة أوباما أنه ليس هناك أي شيء جديد في هذه الوثائق كلها، ولا توجد أي معلومة لم يعلمها بالفعل كل شخص لديه كمبيوتر أو يملك من المال ما يكفي لشراء صحيفة.[121] بالإضافة إلى ذلك، أكد أوباما أن مثل هذه المعلومات التي كشفت عنها ويكيليكس تحديدًا هي التي يضعها في الاعتبار من أجل تغيير استراتيجية الحرب في أفغانستان. وفي كلمته أمام لجنة القوات المسلحة بمجلس الشيوخ في جلسة تأكيد رئاسته للقيادة المركزية الأمريكية، وصف الجنرال جيمس ماتيس عملية التسريب بأنها «غير مسئولة على نحو مروع.»[122] وفي الوقت نفسه، أصر قائلًا: «لم تخبرنا هذه التسريبات بأي شيء، حتى الآن، لم نكن على علم به بالفعل. لا أستطيع أن أرى أي كشف كبير. كان أحد عناوين الصحف يقول إن الحرب شيء محموم وخطير. حسنًا، إذا كان هذا هو الخبر، فأنا لا أعرف من يمكن أن يعتبره خبرًا على هذا الكوكب.»[123]

لقد كان الجنرال محقًّا تمامًا، ويتفق معه مؤسس موقع ويكيليكس، جوليان أسانج. وعندما سُئل عما يرى أنه الكشف الأكثر أهمية في الوثائق البالغ عددها ٩١ ألف، أجاب أسانج:

> يطالب الجميع بكشف معين يُعد هو الأهم؛ مثل قتل ٥٠٠ شخص في نقطةٍ ما من الزمان. ولكن، بالنسبة إليَّ، الأمر الأكثر أهمية هو العدد الهائل للانتهاكات التي وقعت خلال السنوات الست الماضية، والقدر الهائل من حالات البؤس والمجازر اليومية التي تخلِّفها الحرب. وإذا ما جمعنا كل ذلك معًا، فسنرى

> أن معظم الخسائر في الأرواح تَحْدث في الواقع في صفوف المدنيين من خلال حوادث يُسعى فيها لقتل شخص أو اثنين، أو عشرة أو عشرين. كما أن هذه الأمور تأتي عدديًّا في مقدمة قائمة الأحداث؛ ولذا فمن الصعب بالنسبة إلينا أن نتصور ذلك، بطبيعة الحال؛ فالأمر مادي أكثر من اللازم، ولكن هذه هي وسيلة فهم حقيقة هذه الحرب؛ من خلال رؤية أن هناك نوعًا من حالات القتل التي تقع الواحدة تلو الأخرى التي تحدث يوميًّا وباستمرار في جميع أنواع الظروف المختلفة.[124]

في واقع الأمر، هذا هو ما جعل التسريبات محبطة للغاية بالنسبة إلى القادة السياسيين وكبار الصحفيين؛ فلا يوجد ما يمكن تسليط الضوء عليه إلا الحرب نفسها، ونحن نعرف بالفعل أن الحرب جحيم. من دون سجن أبو غُريب أو جوانتانامو، لا يوجد ما يستدعي الاعتذار عنه أو طلب الصفح منه؛ لا يوجد ما يمكن أن يستحوذ على الاهتمام قبل دفن مثل هذا الحدث المثير في حواشي التاريخ.

في واقع الأمر، إن أرشيف ويكيليكس هو تراكم للحواشي دون نص رئيسي؛ تراكُم هو نفسه النص الرئيسي، بل هو التاريخ نفسه؛ ولذلك، فإن ما انكشف حقًّا هو «منطق» الحرب في أفغانستان، و«الهيكل» الجيوسياسي في جنوب ووسط آسيا، و«نظام» الرأسمالية العالمية. المنطق، والهيكل، والنظام: لا تُعد هذه هي موضوعات التحقيق التي تشجع على بيع الصحف أو الكتب الأدبية غير القصصية الأكثر بيعًا. وعلى رأس هذه المجموعة المملة من التجريدات، تأتي الأحداث الملموسة بالكامل التي تشكل التسريبات، ليس الإقحامات المثيرة الخيالية الفريدة التي تبعدنا عن الواقع القاسي للعالم، بل الواقع القاسي للعالم نفسه، الذي يستخدم الكثير منه في القانون العسكري في العديد من العمليات المجمعة. علاوة على ذلك، فإن الجانب الذي لم تركز عليه وسائل الإعلام في الوثائق (الذي يوثق ما يقرب من ٢٠ ألف حالة وفاة بين المدنيين) هو الذي يزيد من قوة الكشف.[125] لم نُضْبَط متلبسين، ولكننا ضُبِطْنا على ما نحن حقًّا عليه. وأعمق من ذلك أننا لا نعرف ما يجب القيام به إزاء هذا الكشف إلا أن نتظاهر بأننا لم نعلم شيئًا جديدًا، ونقمع مرة أخرى صدمة النظر لأنفسنا في المرآة.

إن هذا التحول من الجانب الاجتماعي إلى الجانب الفردي (مِن كشف التجريدات النظرية للمنطق والهيكل والنظام، إلى كشف ذواتنا الخاصة) لا يحدث عن طريق الخطأ، ولكنه انزلاق يجب تفسيره. ويعود بنا هذا إلى ناعومي كلاين؛ حيث إن المبدأ المنظم

لكتابها «عقيدة الصدمة» هو تحديدًا المقارنة بين تجارب الصدمة الكهربائية القاسية الشريرة التي يتعرض لها مرضى الأمراض النفسية، وتجارب الصدمة الاقتصادية القاسية الشريرة التي يتعرض لها الشعب بأسره. يبدأ الفصل الأول من الكتاب بزيارة كلاين لجيل كاستنر، الضحية المأساوية للصعق ٦٣ مرة بالكهرباء ضمن عملية سرِّية لوكالة الاستخبارات المركزية في خمسينيات القرن العشرين. وتكتب كلاين قائلة: «على غرار اقتصاديي السوق الحرة المقتنعين بأن حدوث كارثة واسعة النطاق، أيْ تدمير كبير، هو الذي يمكنه فقط أن يمهِّد الطريق لتنفيذ «إصلاحاتهم»؛ يعتقد كاميرون أنه من خلال تعريض الدماغ البشري لمجموعة من الصدمات يمكنه تدمير ومحو العقول الخاطئة، ثم إعادة بناء شخصيات جديدة على هذه الصفحة البيضاء المراوغة.»[126]

كان إيوان كاميرون هو الطبيب النفسي الذي نفذ الصدمات الكهربائية على كاستنر، وكان العقلَ المدبرَ لنظرية «القيادة النفسية» (أي إن التعذيب يحفز إعادة تشكيل العقل) التي تطبقها كلاين على «العلاج بالصدمة الاقتصادية» الليبرالي الجديد الذي يؤمن به أتباع فريدمان. ما نحصل عليه مع كاميرون هو غسيلُ عقلٍ شيطانيٌّ وتركيز على الجريمة النكراء، كما أن الاستثناء المفجع الذي يمكن أن يتفق حوله الجميع لَهُو أمر حقير تمامًا. من خلال التركيز على كاميرون، تقلل كلاين من أهمية فكرة إمكانية تغيير تشكيل العقل من خلال الثقافة اليومية. إن التشبيه الأكثر إثارة للاهتمام هو ذلك الذي يلفت الانتباه إلى طريقة عمل أيديولوجية الرأسمالية المهيمنة عن طريق كل الأشياء الصغيرة المستخدمة لإنتاج مواطنين متعاونين ومطيعين (من التنظيم المكاني لمنزل الأسرة إلى التنظيم الزمني للمدارس وأماكن العمل)، وطريقة عمل استراتيجيات التراكم الرأسمالي المهيمنة من أجل إنتاج عدم المساواة من خلال إنشاء مجموعة مماثلة من التقنيات التي تبدو محايدة (من تنظيم قوة العمل حتى الإنتاج المتواصل للسلع).

إن التصوُّر الخياليَّ الذي يشير إلى إعطاء الأيديولوجية الرأسمالية في جرعات قاتلة بإبرة حقن تحت الجلد (نموذج «المرشح المنشوري») غيرُ صحيح شأنه شأن التصور الخيالي القائل بأن الاقتصاد الرأسمالي يعاد إنتاجه في مجالس الإدارات من قِبل رأسماليي الكوارث (نموذج «عقيدة الصدمة»). أو ربما ينبغي أن نقول إنه ليس خاطئًا تمامًا، ولكنَّ هناك خطأً تكتيكيًّا في التعامل معه بهذه الطريقة. في الواقع، يعمل النظام الرأسمالي لإنتاج رأسماليين جشعين وفاسدين (الذين يستحقون الإدانة بلا ريب)، إلا أن البدء بانتقادهم له نتائج عكسية، ليس فقط بسبب استناد نظام التمثيل السائد

(وسائل الإعلام، والثقافة الجماهيرية، والتربية) إلى دفاع معقد عن هؤلاء الأفراد أنفسهم وممارساتهم (حيث إن الدخول في مشادة كلامية في الوسط الإعلامي المعاصر يمثل مخاطرة تحييد كل النقد)، ولكن لأن ملاحقة الرأسماليين الناجحين يعني تقويض المهارات التحليلية اللازمة لفهم النظام الأكبر. إن الرأسمالية نظام معقد للغاية، الأمر الذي ثبت مرة أخرى خلال الأزمة المالية عام ٢٠٠٨، عندما كانت الخططُ الفرعيةُ التي دفعت بالأمور إلى الحافة معقدةً للغاية؛ بحيث أصبح الأشخاص الوحيدون القادرون على التعامل معها هم نفس الأشخاص الذين وضعوها في المقام الأول. وأخيرًا، إن توجيه النقد للنظام، وليس للأفراد الذين يديرونه ويدافعون عنه، هو إعادة تأكيد الإيمان بالنظام نفسه على ما هو عليه. عندما نحاجج بأن الأزمة تكمن في الرأسمالية، ليس لأنها سارت على نهج خاطئ ولكن لأنها سارت على الدرب الصحيح، فنحن نحاجج بأن هناك منطقًا معينًا يقوم على السبب والنتيجة يمكنه أن يفسر بعض الأحداث مثل الحرب والفقر والفساد. وبطبيعة الحال، هذه الآثار تَنتج كذلك عن الأنظمة الأخرى، إلا أن التكوين المحدد للحرب والفقر والفساد داخل الرأسمالية يختلف نوعيًّا عن هذه التكوينات في إطار نظم أخرى؛ ولهذا السبب فإن ملاحظة جرينسبان عن الفساد السوفييتي بمنزلة ذر الرماد في العيون.

هناك مشكلة أخرى في ربط كلاين بين الجانب الفردي والاجتماعي؛ وهي اختلاف الأفراد عن الكيانات الاجتماعية أو الاقتصادية. ومع ذلك، فإننا كثيرًا ما نرى هذا الربط مُستخدمًا؛ على سبيل المثال، إذا ما تم تشخيص إصابة الأمة بعرض من الأعراض مثل «أزمة الهوية» (مثل فرنسا ردًّا على قضايا الهجرة)، أو القمع وفقدان الذاكرة (مثل اليابان ردًّا على الجرائم التي ارتُكبت خلال الحرب العالمية الثانية). في الواقع، غالبًا ما نتعامل مع الدول وكأنها مرضى مُسْتَلقون على أريكة. وعلى الرغم من ذلك، منذ عمل جيه إيه هوبسون الكلاسيكي الذي صدر عام ١٩٠٢ حول الإمبريالية، علمنا أن الدول لا تنهض أو تنهار بنحو جماعي، إلا أن بعض شرائح السكان على الصعيد القومي تنهض وتنهار بنحو لا يتساوى إطلاقًا مع سائر الشرائح.[127] وهو ما يشير إلى أن التحرك بسرعة بالغة من الفرد إلى الأمة يمثل خطر نسيان أن هناك طبقة من رأسماليي الكوارث القوميين (الذين يُعَد الكثير منهم مصدرًا للحكايات لتوماس فريدمان!) الذين يلعبون دورًا أساسيًّا في تثبيت الأسس الاقتصادية التي تتطلبها الرأسمالية العالمية (والاستفادة منها). قد يكون الأفراد مختلفين (لديهم سلسلة من الصفات الشخصية المختلفة وحتى المتناقضة)، ولكن هذا الاختلاف مختلف نوعيًّا عن الاختلافات داخل شرائح سكان الدول.

إن فيلم «المؤسسة» الذي ظهر عام ٢٠٠٣ (الذي أجرت كلاين مقابلة حوله) هو أحد الأمثلة الأكثر إقناعًا حول ربط المخاوف النفسية بكيان اجتماعي، في هذه الحالة هو المؤسسة الرأسمالية. وبعد التطرق إلى ناعوم تشومسكي، الذي يزعم أن المؤسسات هي «أشخاص بلا ضمير أخلاقي»، يكشف الفيلم (المبني على الكتاب الذي كتبه أستاذ القانون جويل باكان، «المؤسسة: السعي المَرَضي وراء الربح والسلطة») عن كيفية إظهار المؤسسات والشركات لنفس أعراض حالة المرضى النفسيين المشخصة سريريًّا، مثل عدم القدرة على إظهار الندم، والقسوة وانعدام التعاطف، وعدم تحمل مسئولية الأفعال الشخصية، والشعور المتكلف بالقيمة الذاتية.[128] ولهذا أهمية خاصة حيث تَمَّت شخصنة المؤسسة بعد قرار المحكمة العليا الأمريكية لعام ١٨٨٦ الذي مَنَحَ المؤسسات الحماية بموجب التعديل الرابع عشر للدستور الأمريكي. تلك الشخصنة للمؤسسات قد لا تكون لتقديم المواعظ، ولكنها لتوجيهنا بعيدًا عن المنطق الأساسي للمؤسسة الرأسمالية. من خلال المغالاة في التأكيد على المؤسسة المحمية بنحوٍ غير عادل (وهي الحماية التي تعززها المادة رقم ١١ من اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية التي تسمح للمؤسسات والشركات بمقاضاة حكومات المكسيك أو كندا أو الولايات المتحدة الأمريكية إذا كانت الإجراءات التي اتخذتها تلك الحكومات قد أثرت سلبًا على استثماراتها)، يتجاهل فيلم «المؤسسة» تقديم تحليل اقتصادي ويقدم تحليلًا سياسيًّا ضيِّق التكوين (أو ربما ينبغي لنا أن نقول تحليلًا ما بعد سياسي) ينظر إلى المشكلة في المقام الأول من حيث رفع القيود والحماية غير العادلة. هناك افتراض قاتل بأن المؤسسة الرأسمالية تصبح أليفة عندما تخضع للرقابة وتصبح بلا حماية؛ وهو افتراض يمكن أن يكون هناك اتفاق عليه على نطاق أوسع عندما يتخيل المرء أن الرأسمالية الأكثر عطفًا ورحمة يمكن أن تستمر من خلال التدخل المساند من قِبل الدولة.

إن ضعف هذه الحجة لَهو أمر مؤسف، لا سيما بالنظر إلى أن فيلم «المؤسسة» يبدأ بانتقاد دقيق لدفاع «التفاح الفاسد» عن الرأسمالية؛ فمِن فضيحة إنرون وحتى الدمار الشامل للعديد من الاقتصادات القومية (روسيا عام ١٩٩٨، والأرجنتين فيما بين عامَي ١٩٩٩ و٢٠٠٢)، يهاجم هذا الدفاعُ الأفرادَ المتجاوزين، واصفًا إياهم بـ «التفاح الفاسد» قبل التضحية بهم، مع عدم المساس في أي وقت من الأوقات بالمؤسسات والمنطق الذي أدى إلى إمكانية وقوع مثل هذا الدمار في المقام الأول. وحتى نَفِي مخرجِي الفيلم حقهم، نشير إلى أنهم رفضوا هذا التصور وهذا التفسير الأعوج؛ مما يؤدي إلى فحص

المؤسسة نفسها. ولكن عندما يصل الفيلم إلى «المؤسسة» بوصفها فئة عامة (وليست مجرد حالة خاصة)، فإنه يشرع في فحصها بنفس الخصائص الخاصة بالصحة العقلية التي قدمها «التفاح الفاسد»: فهو ينتقد المؤسسة بوصفها شخصًا مريضًا؛ ما يعود بنا إلى الاستراتيجية الخاطئة التي وعد الفيلم بتجنبها في المقام الأول. وبالمثل، عندما تتناول كلاين الليبراليين الجدد بوصفهم رأسماليي أوقات الكوارث، فهي تقدِّم تحليلها الخاص الفعال إلى فيلم هوليوود المنهك الذي يلوم السيد بوتر على زوال البلدة كلها، فيما يحتفي بجورج بيلي الذي يلعب دوره جيمي ستيوارت بوصفه المنقذ العاطفي والمدير الناجح لأزمةٍ كانت، في الواقع، نتيجةً منطقيةً للرأسمالية.[129]

بدلًا من معاملة المؤسسة بوصفها فردًا، نقترح معاملة الأفراد باعتبارهم مؤسسة؛ وليست مؤسسةً رأسماليةً لا تستطيع أن تعلق العمل بقاعدتها الأساسية المتمثلة في التوسع وتوليد الأرباح، ولكن مؤسسة غير رأسمالية؛ أي تلك التي تقترب من الجذر اللاتيني corpus للمقابل الإنجليزي لكلمة المؤسسة؛ أي «كيان الشعب». إن هذه المجموعة المكونة من العديد من الأفراد المتَّحدين في كيان واحد الذين يحيون لفترة أطول من أي عضو من أعضائها، والتي ينظمها المنطق والقِيَم والمعتقدات وليس الربح والتوسع؛ ليست وسيلة لإعادة التفكير في مجموع الناس اليوم فحسب، ولكنها أيضًا وسيلة لمقاومة رواية بوتر وبيلي. إذا كان لا يمكن للرأسمالية أن تستمر إذا ما سادت مثل هذه المؤسسات غير الرأسمالية، فتلك حقيقة مُرة تستحق النظر فيها بجدية. وبدلًا من أن نسمح لهذه الحقيقة بأن تَحُدَّ من آمالنا ورغباتنا بحدودِ ما هو ممكن فقط، نعتقد أن التفكير في المستحيل (أي أن نفكر في المؤسسات غير الرأسمالية والأفراد غير الرأسماليين في إطار الرأسمالية) هو جوهر السياسة. وبدلًا من العودة إلى اقتصاد مختلط للمؤسسات الرأسمالية المنظمة تنظيمًا سليمًا (تلك التي يديرها مديرون عادلون وعلى خلق مثل هؤلاء الذين تحتفي بهم كلاين، ويشرف عليها ساسة عادلون وعلى خلق وضمائرهم يقظة مثل من يَنْشُدهم كروجمان)، نحن نفضل أن نترك مساحة لتشكيل اجتماعي بديل لا يعتمد على منطق رأسمالي. ربما يتناول كلُّ هذا كيفيةَ تحوُّل المستحيل (الآخر الراديكالي) إلى الممكن؛ أو، كيف يشكِّل المستحيلُ (بوصفه مستحيلًا) احتمالاتِ الحاضر. ومع ذلك، فإننا عندما ننظم تحليلاتنا النقدية حول فساد اللاعبين الرئيسيين في المشهد، فإننا بذلك نكون قد تخلينا عن المشروع الراديكالي لمحاولة تحقيق المستحيل؛ أي تجاوُز الحس العام (على سبيل المثال، أن نعتقد أن الليبرالية هي أفضلُ ما يمكن أن نطمح إليه)

إلى حسٍّ عامٍّ جديدٍ. ولا غنى عن وجود صوت قوي وواضح مثل ناعومي كلاين لمثل هذا المشروع، على الرغم من أن أعمالها في كثير من الأحيان تميل إلى تقديم تنازلات. إن فكرة اختلاف كلاين عن كُتاب مثل فلوريدا، وفريدمان، وحتى كروجمان في القوى الراديكالية لانتقاداتها للعولمة وحدود النظم السياسية والاقتصادية الحالية، يحدها الميل المؤسف للسماح للنظام ككل بالاستمرار. بالنسبة إليها، لا يوجد ما هو «بعد» العولمة، فلا يوجد شيء يليها. إن طريقة التعامل مع الأنظمة السيئة ليست من خلال مَلئها بالأخيار، ولكن بالأحرى عن طريق وضع نظم جديدة. للأسف، قد لا يكون من المحتمل أن تتفق مع أطروحاتنا، مثلها مثل الآخرين الذين عرضنا أفكارهم هنا.

(٦) حدود هوليوود: فيلم «مايكل كلايتون»

أصبح إحراج مشاهير هوليوود لسذاجتهم السياسية ممارسة ممتعة. عندما يتحدث أحد نجوم هوليوود الشديدي الثراء بِاسم العدالة والمحرومين اليوم، فلا يمكن أن ينظر إلى ذلك إلا بوصفه نوعًا من النفاق، إن لم يكن عملًا غير أخلاقي إلى حدٍّ ما. يهدد النفاق الواضح ملايين الدولارات التي يجمعها هؤلاء والوعي الاجتماعي الذي ينتجونه. وحتى الأعمال التي تبدو بطولية، مثل إنقاذ شون بن للأطفال من مياه الفيضانات التي نتجت عن إعصار كاترينا، أو نقل جون ترافولتا إمدادات الإغاثة إلى مدينة بورت أو برنس بطائرته طراز بوينج ٧٠٧؛ من السهل أن تكون عرضةً للسخرية وعدم الاهتمام. ولكن لماذا؟ هل لأن هؤلاء النجوم يجهلون السياقات المعقدة والتاريخ الخلافي للقضايا التي يدافعون عنها؟ هل لأن هذا السلوك الخيري يتحول إلى مجرد وسيلة من وسائل الدعاية؟ ليس بالضرورة. إن ما يثير استياء اليسار واليمين على حدٍّ سواء هو أن مِثل هذه الأفعال التي يقوم بها المشاهير تبدو مملوءة بالنفاق. يدفع ذلك الساخطين إلى أحد أعمق الفخاخ الأيديولوجية في المجتمع المعاصر؛ وهي: فخ النقاء، أو الاعتقاد بأن الأفعال الصالحة (الخيرية أو النقدية) هي تلك التي يقوم بها الأفراد الذين يتمتعون بالصلاح. يقول منطق هؤلاء: إذا كان شخصٌ ما غيرَ صالح، فإنَّ فعله لا يزيد عن كونه ببساطةٍ تعويضًا عن إيمانه الضعيف، إن لم يكن تنصلًا منه. وعلى الرغم من ذلك، في ثقافة لا يمكن للمرء فيها إلا أن يكون غير صالح — أي أنْ يتشبع بمنطق عدم المساواة الرأسمالية — تصبح حجة النقاء تلك منجم ذهب رجعيًّا، فضلًا عن إضعافها لأي نوع من أنواع النضال الديمقراطي، الذي سيحتاج بالضرورة لمواجهة تناقضاته.

وحتى إذا كان الشخص ناجحًا نسبيًّا في التهرب من المنطق الدنس للاقتصاد الرأسمالي (إما عن طريق تجنُّب وسواسه القهري وإما عن طريق اللجوء لمعارضته)، فهناك القوة النفسية للرأسمالية التي يتعيَّن عليه أن يتعامل معها، التي يمكن أن تجعل المرء يشعر بعدم الصلاح على الرغم من كونه صالحًا (مثلما يصبح الشخص البريء عصبيًّا دون مبرر عندما يستجوبه ضابط شرطة). في الواقع، إن أيديولوجية النقاء تلك هي محور أطروحاتنا السبع. هذا الإصرار على النقاء يعمل إما لتأكيد الحس العام وإما لتعطيل النقد، وهما نفس الشيء في نهاية المطاف. لقد تَسبَّبَ اختبارٌ للنقاء في سوداوية اليسار التي تَحدَّث عنها جاك رانسيير وغيره: الاعتراف بأن «جميع رغباتنا للهدم ما زالت تطيع قانون السوق، وأننا ببساطةٍ مشتركون في اللعبة الجديدة للسوق العالمية، والمتعلقة بالتجريب دون حدودٍ حتى فيما يتعلق بحياتنا ذاتها.»[130]

يشير هذا أيضًا إلى أن النقد السهل لنخبة هوليوود يبدو أكثر خبثًا من أكثر أفعال هذه النخبة نفسها خداعًا. ونستدعي هنا نظرية مناهضة معاداة الشيوعية لِجان بول سارتر؛ حيث يرى المرء، على الرغم من أنه قد يكون له مآخذ شديدة على الشيوعيين، أن مُعَادِي الشيوعية الانتهازيين هم من يستحقون إدانتنا الشديدة.[131] وبالمثل، بدلًا من انتقاد الأفلام المعيبة لِسبيلبرج وَساراندون، فإن المتفاخرين بمهاجمتهم لنخبة هوليوود هم من ينبغي أن نضعهم نُصب أعيننا. أو يمكن أن نصل إلى هذه النقطة من الاتجاه الآخر: إذا كانت ملاحقة نخبة هوليوود لِنِفاقهم رخيصةً وتأتي بنتائج عكسية، ينبغي علينا أن نوجه تحليلنا إلى الحدود الهيكلية لهوليوود، تلك التي لا تتعلق بالأخطاء الشخصية للَّاعبين الرئيسيين فيها (الممثلين والمخرجين والكتَّاب والمنتجين) بقدرِ ما تتعلق بالوضع الاجتماعي الأوسع. وكما هو الحال فيما يتعلق بتناولنا لأعمال فلوريدا، وَفريدمان، وَكروجمان، وَكلاين؛ فنحن لا نهتم بمهاجمة ليبراليي هوليوود بقدرِ ما نهتم بالكشف عن طريقة عمل سياساتهم داخل حدود خطاب العولمة، فضلًا عن طريقة عمل سياساتهم في إعادة إنتاج وتعزيز خطاب العولمة ذاته، الذي يَحُدُّ من تلك السياسات في المقام الأول؛ ومن ثم، يجب ألا نتفاجأ أنه في قلب هذا الحد الخطابي تأتي الافتراضات السبعة التي تعوق التفكير في «ما بعد» العولمة. إن أفضل مكان لدراسة هذا في هوليوود، على ما أظن، هو أن نتحول إلى الأفلام ذاتها. ولخدمة أهدافنا وربط الموضوعات التي برزت في هذا الفصل معًا، نفضل أن نتوجه مباشرة إلى ما يجب أن يُعد أحد أهم الأفلام السياسية التي خرجت من هوليوود على مدى السنوات العشر الماضية؛ وهو: «مايكل كلايتون»، من بطولة جورج كلوني.

على الرغم من أن فيلم «مايكل كلايتون» (٢٠٠٧) هو الإخراج الأول لتوني جيلروي، فقد شارك في تقديمه نخبة من نجوم هوليوود؛ فقد كان ستيفن سودربرج وَأنطوني مينجيلا، المنتجَين المنفذَين له، في حين أنتجه سيدني بولاك وكان أحد شخصيات الفيلم الرئيسية، كما كان روبرت إلسويت مدير التصوير. عمل كلٌّ من كلوني وَسودربرج وَإلسويت معًا في فيلمَي «ليلة سعيدة، وحظًا سعيدًا» (٢٠٠٥) و«سريانا» (٢٠٠٥)، وهما اثنان من الأفلام التي أشاد بها النقاد، والتي وجهت انتقادات لاذعة لأمريكا في عهد جورج دبليو بوش عن طريق تناول مكارثية خمسينيات القرن العشرين وعمليات وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية في إيران، على التوالي. ومع ذلك، يُعد فيلم «مايكل كلايتون» فيلمًا سياسيًّا أكثر منه فيلمًا عن السياسة (على الرغم من أنه لا يصل إلى الفئة العظيمة لـ «الفيلم المسيس» إذا كنا ما زلنا نستطيع أن نلمح إلى هذا التمييز الذي أشار إليه لأول مرة جان لوك جودار).

يعمل كلايتون محاميًا في شركة قانونية كبيرة في نيويورك تدافِع عن شركة كيماويات زراعية عالمية (يو-نورث، والتي يقصد بها صناع الفيلم شركة مونسانتو) ضد دعوى جماعية قد تكلفها مليارات الدولارات. وُجِّهت إلى الشركة تهمة تلويث المياه الجوفية في بلدة بويسكونسن؛ مما يؤدي إلى إصابة المئات من سكانها بمرض خطير. وتَرأَّسَت القسم القانوني لشركة يو-نورث كارين كراودر، التي لعبت دورها باحتراف تيلدا سوينتون، بأدائها اللافت لدور سيدة تبذل جهدًا مضنيًا لتحقيق النجاح في ثقافة الشركات التي يهيمن عليها الفكر الذكوري. يسند القسم القانوني بالشركة الدعوى الجماعية المرفوعة ضدها إلى شركة محاماة كلوني؛ حيث يعمل آرثر إدنس (الذي يلعب دوره توم ويلكنسون) مقيم الدعوى القضائية البارع الذي ظل يعمل دون كلل أو ملل على القضية على مدى السنوات الست الماضية. إلا أن آرثر كان يتهاوى، ليس فقط لتوقفه عن تناول أدويته، ولكن أيضًا لأنه وجد أنه من المستحيل أن يواصل النضال من أجل هذا العميل المثير للاشمئزاز. في الواقع، كان آرثر يعمل سرًّا لصالح المدَّعين وكان يحتفظ بوثائق إدانة بحوزته يمكنها أن تهدم القضية بكل تأكيد. كلايتون، الذي يقوم بدوره كلوني، لم يكن مقيمًا للدعوى القضائية، ولكنه كان مصلحًا؛ أي شخصًا لديه مهارة فريدة من نوعها في إنهاء أي نوع من أنواع الفوضى؛ بدءًا من جرائم القيادة في حالة سكر، مرورًا بقضايا الطلاق الصعبة، وحتى الفوضى الأخيرة التي حدثت بين آرثر وشركة يو-نورث.

تتميز شخصية المصلح بأنها غنية سينمائيًّا؛ فمن هارفي كيتل في فيلم «خيال رخيص»، حتى جان رينو في فيلم «نيكيتا»، هذا هو الشخص الذي تريده إلى جانبك في خضم أي أزمة، الشخص الذين تستسلم له بكل سرور إذا كنتَ ترى أنك إذا خطوت خطوة خاطئة فيمكنها أن تكلفك حياتك أو، على الأقل، بضع سنوات في السجن. ويناسب مايكل القيام بهذا الدور بنحو خاص؛ فهو هادئ وواثق من نفسه، ويعرف كيف يواجهك ويحافظ على ثباته بينما تفقد أنت أعصابك، وهو يعلم الشخص المناسب لإنجاز كل مهمة من المهام. وحتى يكرِّس شخصٌ نفسَه لمثل هذا العمل المشابه لأعمال الحراسة (والذي عادة ما يتطلب العمل ليلًا وخلال عطلات نهاية الأسبوع)، يجب أن يكون قد مر بعدد من الأزمات وانخرط فيها بنفسه ويحيا الآن حياة منعزلة. في الواقع، إن قدرات المصلح هي التي تبدو جذابة للغاية؛ فهي تتعامل مع الجوانب السياسية والاجتماعية والقانونية والعاطفية والنفسية للأزمة بدقة، وحتى مع مرور الوقت. يبدو مايكل مثل أحد المحققين المخضرمين في رواية لِرايموند تشاندلر، الذين ينتقلون دون جهد من حفل عشاء فاخر إلى بارٍ رثٍّ ثم إلى غرفة نوم سيدة. هذا التحرك الحر من أعلى السلم الطبقي إلى أسفله هو تحديدًا سبب أن المحقق يبدو كشخصية يوتوبية في الأدب الحديث؛ إذ يتم توظيف المحقق لإثارة رغبة القارئ في تجاوز البنية الثابتة للطبقات الاجتماعية، وفي نفس الوقت، التلويح بالوعد الكاذب بإمكانية حدوث هذا التجاوز.

إلا أن مايكل ليس الشخصية الوحيدة القديرة في الفيلم. يلعب سيدني بولاك دور مارتي باخ، أحد كبار الشركاء في شركة المحاماة، الذي يشرف على عملية اندماج ضخمة على وشك الانهيار بالإضافة إلى كارثة يو-نورث من خلال نبرة صوته العالية الواثقة والمتسلطة. يحقن القتلة آرثر بحرفية شديدة بسمٍّ بين أصابع قدميه بحيث يبدو الأمر وكأنه انتحار. وتُدار لعبة البوكر الموجودة في مكان خلفي، والتي يعود إليها مايكل بعد عام على ترك القمار، بنظام تشغيل دقيق مثل الباليه، وعبر الصمت السلس بين التجار الصينيين، ومشغلي المصاعد، ونقاط المراقبة. وحتى كارين، التي تقوم ببعض التحركات الخاطئة، محامية على درجة عالية من الكفاءة، والتي تتمرن على خطاباتها بنفس الاهتمام بأدق التفاصيل الذي كانت ترتدي به جوربها الطويل قبل جلسة حاسمة للمساهمين الرئيسيين في يو-نورث. وعندما تضطر إلى «إصلاح» تغير موقف آرثر المدمر لحياته، تلتقي في أحد الشوارع بأحد القتلة الذين من المفترض أن يقتلوا آرثر. لا تعرف كارين كيف تعطي الأمر بقتل آرثر، فتستمع إلى القاتل (السيد فيرن) إذ يشرح أن لديه

بعض «الأفكار الجيدة» للتعامل مع الأمر. تجيب كارين: «حسنا»، فيسألها السيد فيرن: «هل «حسنًا» هذه تعني أنك تفهمين ما أقول أم أنكِ توافقين على بدء تنفيذه؟» مرة أخرى، يلفت هذا الاهتمام بالتفاصيل النظر ويبدو جذابًا للغاية.

بالإضافة إلى ذلك، فإن فيلم «مايكل كلايتون» قدير بدوره؛ فبدءًا من التمثيل (الجهد الكبير المبذول في تمثيل شخصية آرثر وغير الكافي في حالة شخصية مايكل)، إلى التصوير السينمائي (حيث تم تصوير الفيلم تقريبًا بالكامل بخلفيات من اللونين الأزرق الفولاذي والرمادي) والمونتاج (الذي يرسم تقاطعًا بين الشخصيات بحيث يكمل كلٌّ منها الآخر بطريقة تصل إلى الشيء الذي يتجاوز الشخصيات نفسها، وهو النظام)، يرتفع الفيلم إلى قمة هذا النوع من الأفلام، ولا نعني بالنوع هنا أفلام جرائم الشركات بقدرِ ما نعني أفلام هوليوود نفسها. ومن المناسب أن نقيِّم حدود هوليوود بنحوٍ أفضل من هذه القمة، وبالتبعية، حدود الرأسمالية العالمية؛ ويعني هذا أن سبب نجاح هذا الفيلم يتمثل تحديدًا في فشله في التغلب على حدوده الهيكلية.

الحد الأول هو حد الكفاءة. يتمتع المصلح بالجاذبية لأنه يثير الوهم القائل بأن الرأسمالية يمكن أن يتم التحكم بها؛ أي من خلال المجموعة المناسبة من المهارات والإعداد والاتصالات، يمكنها أن تتجنب أي أزمة. من البذور المعدلة وراثيًّا التي يمكنها التغلب على الجفاف قبل أن يحدث، إلى العلاج بالعقاقير التي تحوِّل الأمراض التي كانت أمراضًا قاتلة في وقت سابق (مثل السرطان وفيروس نقص المناعة البشرية) إلى أمراض مزمنة، هناك كم هائل من الرغبة المستثمرة في احتمالات التحكم، إن لم يكن التحكم الكامل. إلا أن الرأسمالية الحقيقية لا يمكن أن يتم التحكم بها، وهذه الضرورة الجذرية على وجه التحديد لمنطقها الثائر، هي الأكثر رعبًا وجمالًا. سينمائيًّا، لا يستطيع هذا الفيلم أن يعلق اعتماده الخاص على الكفاءة الشكلية. إذا فعل ذلك، أي إذا خرج خطه السردي عن مساره أو كان الممثلون أقل كفاءة، فلن يكون هذا أحد أفلام هوليوود. وبالمثل، لا تستطيع الرأسمالية أن توقف اعتمادها على الفئات الشكلية التي تحدد منطقها، مثل التوسع في السلع ومنطق الربح، الذي هو في حد ذاته نوع من أنواع الكفاءة السياسية والاقتصادية. إذا حدث ذلك، أي إذا لم تقم شركاتها بإجراء تحليلات موسعة عن التكاليف والفوائد عند اتخاذ قرار بشأنِ إن كان ينبغي أن تسحب منتجًا به عيوب وببساطة «تقوم بالشيء الصحيح»، فلن تكون هي الرأسمالية.

أما الحد الهيكلي الثاني للفيلم والرأسمالية فهو الذاتية. يلمح الفيلم إلى الصحة النفسية في مواضع مختلفة، أكثرها مباشرة هي «النوبات» التي يتعرض لها آرثر. عندما

أُرسل مايكل إلى ولاية ويسكونسن لإحضار آرثر، فقد أثره بعد هروب آرثر من غرفة الفندق حيث كانا يقضيان ليلتهما. على جدار حمام الغرفة، كتب آرثر ملاحظة لمايكل بخط مضطرب: «لا تعتقد أنني مصاب بالجنون.» وعندما يدرك مايكل آرثر في نيويورك، يحاول استمالته من خلال المونولوج التالي:

> إذا كنتَ ترغب في هذا [ادِّعاء أن هناك شيئًا كيميائيًّا يحدث لك]، فأنا على استعداد لمقابلتك في منتصف الطريق، وأن أقول لك: «نعم، هذا الوضع مُزْرٍ، ويو-نورث مزرية.» يمكننا أن نبدأ من هنا. أنا أقول لك إنك مجنون، وإن سلوكك خارج عن السيطرة، ولكنني أقول لك إنك على حق. ما قلته صحيح، نحن حراس عقارات. لقد فهمتُ الآن. ولكننا نحن من أوصلْنا أنفسنا إلى هذا، يا آرثر، نحن من اتخذ هذا القرار، ولم يحدث هذا بين ليلة وضحاها. لا يمكنك أن تتخلى عن الأمر بكل بساطة. لتَقُلْ إن اللعبة قد انتهت، وأنا أُومِنُ بالمعجزات. هيا يا آرثر.

هل كان آرثر «على حق» فيما يتصل بيو-نورث والنظام المتشابك لسلطة الشركات بسبب مرضه العقلي أم على الرغم منه؟ هل هناك شيء في الذاتية الرأسمالية المتأخرة يتطلب وجود بعض البقع العمياء لتكون فعالة؟ وإذا كان الشخص يرى بوضوح، فهل ستكون الحقيقة قاسية جدًّا بحيث لا يمكن احتمالها، بحيث تجعله يمرض بالفعل؟ مرة أخرى، هناك قياس على هوليوود. إذا كان لفيلم «مايكل كلايتون» أن يكشف عن نفسه تمامًا حتى يتسنى لجميع مكوناته الشكلية أن تظهر للجميع، فلن نكون في هوليوود؛ فحتى ينجح فيلم هوليوود، يجب ألا يرى المشاهد أجزاءه وهي تعمل بوضوح شديد، وإلا فسيكون من المستحيل الانغماس في الفيلم بما فيه الكفاية ليتمكن من تحريك مشاعرنا. بالطبع، هناك العديد من أفلام هوليوود التي تدفع هذا الحد إلى آخر حد، ولكن في نهاية المطاف، هذه الأفلام، من خلال براعتها الشديدة وتمكُّنها الفني، تعيد إنتاج نظام هوليوود نفسه. وبالمثل، تتطلب الرأسمالية ضرورة مماثلة من التقييد: ضرورة إعادة إنتاج الأعراض الأيديولوجية التي لا يمكن «علاجها»؛ لأنها إذا عُولجت، فسيختلف الفرد اختلافًا جذريًّا حتى إنه لن يستطيع البقاء على قيد الحياة، أو للتحول إلى نطاق سياسي أكبر، يمكن أن نقول: لا يستطيع الثوري أن يتغلب تمامًا على النظام الأيديولوجي القائم، وإلا فسيفقد الاتصال المطلوب بغالبية الآخرين، الاتصال ذاته (ومن ثم المجموع) الذي تعتمد عليه أي ثورة. ويعود بنا هذا إلى النقاء، والأطروحات السبع، والعولمة.

يعرض كلٌّ من كروجمان وَفريدمان وَفلوريدا وَكلاين عيوب الرأسمالية العالمية المعاصرة؛ فهناك ما يحتاج إلى التغيير في هذا النظام ليعمل على نحو أكثر فاعلية. وبغض النظر عن الجدل بشأن ضرورة زيادة التنظيم أو تقليله، وزيادة الهيمنة الأمريكية على العالم أو تقليلها، وزيادة التجارة أو تقليلها؛ هناك افتراض يقول بأنه مع مزيد من الحس العام والتعليم يمكننا تنقيح الرأسمالية بطريقة تسمح باستمرار التاريخ، وحماية المستقبل، وسيادة الأمم، وانتصار الأخيار بفعل الأشياء الصحيحة. هذا الافتراض، الذي يشكل الجوهر الإيجابي للأطروحات السبع، يجبر الرغبة السياسية على اللجوء إلى زاوية تحد الخيال بفاعلية. إلا أن التحرك في الاتجاه المقابل يؤدي بنا للوقوع في فخ النقاء، إلى اتهام الشخص بأنه منافق وكاذب، إلى الحلول المتفق عليها التي يقال لنا حاليًّا إنها المهرب الوحيد من الواقع الصارخ للعالم. نحن نجادل بخلاف ذلك، ونبحث عن مسار مختلف تمامًا. فقط من خلال العمل في ضوء هذه الأطروحات السبع، وليس عن طريق الخضوع للآمال الحالية المعقودة على التعليم، والأمة، وما إلى ذلك، من الممكن لنا أن نقترب من هذا الواقع. ويبدأ هذا المسار الغريب من خلال تخيُّل ما يأتي بعد العولمة. في الفصل التالي، لم يهتم الطلاب الذين أجرينا معهم المقابلات كثيرًا بالأطروحات السبع. ولكن يبدو أنهم كانوا غير مهتمين كذلك بتخيل ما سيأتي بعد العولمة. إن كيفية تخيل ما سيأتي بعد العولمة دون أن نحتاج إلى اعتناق الأطروحات السبع هذه هو حبل البهلوان المشدود الذين أصبحنا مجبرين على السير عليه.

الفصل الثالث

الجيل العالمي

(١) الجيل القادم

على الأرجح، نحن لا نحتاج إلى ذكر ما هو واضح بالفعل: هناك كمٌّ هائل من الكتب والأبحاث وما شابه، التي كُتبت عن العولمة خلال العقدين الماضيين. يشتمل الكثير منها على مناقشات بين الأكاديميين حول عناصر العولمة؛ فيما كان الباقي محاولة يقوم بها السياسيون وصانعو السياسات والنخب السياسية والاقتصادية لاستغلال مفهوم العولمة بما يخدم أغراضهم الخاصة. من المهم رؤية العولمة بوصفها مشروعًا أيديولوجيًّا ونظامَ اعتقادٍ يَزعم، كما قلنا من قبل، حتميةَ الحاضرِ، وعلى النحو ذاته، أيضًا حتمية المستقبل. هناك نقطة بسيطة نحتاج إلى طرحها، وهي إن كان لنظام الاعتقاد هذا تأثيره المقصود، بما يشكل الأساليب التي نفكر بها في اليوم والغد؛ أي إن كان في مقدوره إقناعنا بأن مشاكل الحاضر يمكن حلها باستخدام حلول الماضي؛ أو أن ما بعد العولمة جاء … في شكل مزيد من العولمة، سواء تصورناها في شكل نظام، أو قدر، أو أيديولوجية.

حتى نفهم بوضوح كيف وإلى أي درجة وَجَدَت الأفكارُ والمُثُلُ المرتبطةُ بالعولمة طريقَها إلى الخطاب المعاصر، قمنا بإجراء سلسلة من المقابلات مع طلاب الجامعات في جميع أنحاء العالم. لقد عقدنا ٦٠ مقابلة في ستة بلدان؛ هي: كولومبيا، وكرواتيا، وألمانيا، والمجر، وروسيا، وتايوان. وكان هدفنا هو أن نرى ما تعنيه العولمة بالنسبة إلى من بلغوا سن الرشد في حقبة العولمة: أولئك الذين لم يشهدوا سوى فترة ما بعد الحرب الباردة، الفترة التي هيمنت الولايات المتحدة الأمريكية عليها سياسيًّا، وتسودها الرأسمالية اقتصاديًّا دون منازع.

لماذا وقع اختيارنا على طلاب؟ ولماذا اخترنا هذه البلدان؟ إن طلاب الجامعات هم الأكثر عرضة للاحتكاك بخطاب العولمة، كما أنهم يشكلون قطاعًا من أكبر القطاعات

بين سكان الدول؛ حيث يرسمون إحداثيات العالم الذي يعيشون فيه ويحددون مدى قدرتهم على التحرك داخله. وفي الدول التي أجرينا بها مقابلاتنا، وكذا في معظم بلدان العالم بلا شك، ما زال يَتصور المجتمع أن التعليم الجامعي وسيلة للتقدم الطبقي. وسواء يقبل طلاب الجيل العالمي دون مناقشةٍ أيديولوجية العولمة بالكامل، أم يتحدون ألغازها الاقتصادية والسياسية، يجب عليهم أن يفكروا في الآثار المترتبة على خطابات العولمة. وينطبق هذا على الطلاب الذين يدرسون مجموعة واسعة من التخصصات في العلوم الإنسانية؛ من اللغات إلى علم الاجتماع، ومن العلوم السياسية إلى إدارة الأعمال. وعلى الرغم من أننا وجدنا درجات متفاوتة من الاهتمام ببعض الأسئلة التي طرحناها، فإن كل طالب كان له رأي حول العولمة؛ حول ما تعنيه وأهميتها بالنسبة إليهم وإلى بلدانهم.

أما بالنسبة إلى الدول، فبمجرد أن يتقدم المرء، ليس فقط لإجراء مسح حول العولمة، بل والقيام به من منظور عالمي مقارن، تظهر على الفور مسألة أي البلدان نختار؛ أي لماذا نختار بعضها دون البعض الآخر. إذا كان هدفنا هو التعرف على أفكار الناس حول العولمة عبر العالم، فلماذا لا نستفيد بأداة مثل مسح بيو لدراسة المواقف العالمية؛ وهو المسح الذي طالما أشارت إليه وسائل الإعلام في السنوات التي تلت أحداث ١١ / ٩ لقياس التحولات في الآراء حول الولايات المتحدة الأمريكية وتصرفاتها في العالم؟ لماذا لا نجري دراسة تتناول أكثر من ست دول، أو نجري مقابلات في البلدان التي يُعتقد أن تكون قد تأثرت بالعولمة بنحو مباشر أكثر، مثل البرازيل والهند والصين ودول الشرق الأوسط وأفريقيا، أو حتى الولايات المتحدة الأمريكية نفسها؟ هذه أسئلة مشروعة. لقد أردنا أن نتجنب البدء من افتراضات حول أكثر البلدان تأثرًا بالعولمة بنحو مباشر لتكون دليلًا لنا لتحديد الدول التي سنجري فيها مقابلاتنا. في النهاية، يقول أحد الافتراضات المسبقة لخطاب العولمة بأنه بمجرد أن تبدأ حقبة العولمة، سينتمي «جميع الناس في كل مكان» إليها؛ إذ ستختفي جميع الأفكار القديمة حول البلدان المتطورة والمتأخرة، المتقدمة والمتخلفة. وتشمل البلدان التي اخترناها لإجراء المقابلات فيها دولًا صديقة للولايات المتحدة الأمريكية (كولومبيا)، وقوة عظمى سابقة، وقوة عظمى ناشئة مرة أخرى (روسيا)، وقوة متوسطة لها احترامها في وسط الحرب الباردة (ألمانيا)، وعددًا من البلدان الأصغر التي تكافح من أجل تحديد هويتها القومية، وبناء اقتصاداتها، مع تحول التكافؤ الجيوسياسي للعالم من حولها (المجر، وكرواتيا، وتايوان). نحن لا ندعي

الشمولية، أو وجود نظرة كاملة على الكوكب؛ وفي الوقت ذاته، فإن إجراء مقابلات عميقة في هذه الأماكن يفتح الطريق أمام وجهات نظرٍ نحن في أمسِّ الحاجة إليها حول العولمة باعتبارها أيديولوجية وواقعًا لم يتناوله معظمُ ما كتب حول هذا الموضوع.

(٢) من معاداة أمريكا إلى العولمة

أُجريت المقابلات فيما بين عامَي ٢٠٠٦ و٢٠٠٨، وكان متوسط مدة كل مقابلة ساعة واحدة. وقد استخدمنا مجموعة محددة من الأسئلة في كل مقابلة، بالرغم من أننا استطردنا في تناول القضايا التي برزت خلال سير مناقشاتنا وانحرفنا عن النظام الموضوع للأسئلة حسب ما تقتضي الضرورة. ولم تركز مقابلاتنا مباشرةً على العولمة بوصفها موضوعًا للنقاش، وإنما وضعنا إطارًا لعملنا ليكون دراسة حول معاداة أمريكا المعاصرة، وكذلك عددًا من القضايا المتعلقة باللحظة الراهنة: العولمة، والرأسمالية، والثقافة المعاصرة، ومشكلات وآفاق البلدان التي كنا نُجري فيها مقابلاتنا، هذا بالإضافة إلى توقعات كل طالب من الطلاب حول فرصهم المستقبلية.

وعلى الرغم من الدور الفعال الذي لعبَتْه هذه المقابلات في تشكيل هذا الكتاب، فإننا لا نعتبرها مادة غير قابلة للنقاش. وعلى الرغم من أننا بدأنا بمجموعة صارمة من الأمور المنهجية (المتعلقة بالسرِّية، واختيار الطلاب، والتوثيق)، فإننا ما نزال نتعامل مع المقابلات باعتبارها نصوصًا «أدبية» أكثر من كونها نصوصًا إثنوجرافية. ويعني هذا أن تعليقات الطلاب (مثل الأرقام الواردة في الفصل السابق وعرضنا الخاص) هي أعراض للعولمة، تعبِّر بسبل واعية وغير واعية (في الشكل والمحتوى على حدٍّ سواء) عن طرق متنوعة للتعايش مع العالم. ولا نقصد بكلمة «أدبية» أنْ نَصِفَ هذه المقابلات بأنها تنضم تحت لواء الأدب القصصي، أو أن نلطف من استجابات كل طالب لخدمة التحليل البنيوي للعديد من الأنواع والشخصيات. بدلًا من ذلك، نحن نقصد أن أشكال عملية السرد، واستخدام اللغة، والاهتمام بالزمان (الجوانب الزمنية وغير الزمنية لتمثيل الماضي والحاضر والمستقبل، على سبيل المثال) لها أهمية في تصويرهم للعالم تُماثِل أهمية حججهم الأكثر واقعية حول العالم.

لقد بدأنا مقابلاتنا في وقت كانت فيه المشاعر المعادية لأمريكا منتشرة على نحو كبير؛ وبحلول وقت إجرائنا لآخر المقابلات، في فبراير عام ٢٠٠٩، بدت هذه المشاعر كما لو كانت قد اختفت تمامًا. وقد كان السبب واضحًا: انتخاب باراك أوباما في نوفمبر

عام ٢٠٠٨، والذي تَوقَّعَه الطلاب في عام ٢٠٠٨، وذكروه مباشرة في المقابلات التي أجريت في كولومبيا في عام ٢٠٠٩. وهذا التغير مثير للقلق، على الأقل من ناحية السرعة التي يمكن أن تغيِّر بها مجموعةٌ من الميول العاطفية والإدراكية رؤيةَ الطلاب من الجانب السلبي إلى الجانب الإيجابي، دون دليل على أي تغيير مؤسسي موضوعي سوى تبديل المقاعد (أي تغيير المسئولين المنتخبين) داخل هيكل سياسي قائم. خلال فترة الولاية الثانية للرئيس جورج بوش (٢٠٠٥–٢٠٠٨)، بدا أن الولايات المتحدة الأمريكية يزداد ارتباطها بممارسات وسياسات العولمة — توسيع نطاق السلطة السياسية والاقتصادية والثقافية تحت غطاء قوة تاريخية — إلى درجة أن المشاعر المعادية للعولمة كانت تختلط بالمشاعر المعادية لأمريكا؛ لذلك كنا نريد الدخول إلى مناقشات العولمة من خلال اقتراح التحدث أولًا عن معاداة أمريكا، من أجل معرفةِ إن كان الربط بين الاثنين قويًّا كما استشعرناه.

هناك كم هائل من الأعمال التي كُتبت عن معاداة أمريكا، كتبها في الأساس كُتَّاب في تخصصات التاريخ وعلم الاجتماع والعلوم السياسية.[1] وكان الاتجاه نحو الدراسات التي تتناول معاداة أمريكا (أو على نطاق أوسع، المواقفَ تجاه الولايات المتحدة الأمريكية) من وجهة نظر أمة واحدة؛ فكانت الدراسات الفرنسية والكندية عن معاداة أمريكا، والتغير في المواقف تجاه أمريكا سواء داخل الولايات المتحدة الأمريكية أو في الوطن شائعة بنحو خاص، مع ظهور عدد من الأعمال الجديدة في أعقاب تحول المواقف تجاه الولايات المتحدة الأمريكية بعد أحداث ١١ / ٩.[2] وعلى خلفية العولمة، ظهرت أعمال جديدة تركز على معاداة أمريكا من منظور مقارن، عادة في صورة مجموعة من المقالات تتعامل مع مناطق وأمم مختلفة.[3] وقد قدم هذا التركيز على معاداة أمريكا عبر الأمم عمقًا جديدًا للظاهرة. ومع ذلك، فإن الرؤى الفعلية التي قُدمت حول هذه المشاعر تبدو وكأنها بقيت كما هي إلى حدٍّ كبير. هناك دراسات تحاول أن تشرح معاداة أمريكا وتبررها، ودراسات تعترف بوجودها، حتى لو كانت تعتقد أنها مشاعر في غير محلها أو مضللة، وتقدم طرقًا للتعامل معها لأغراض جيوسياسية. وقَدَّمَت دراساتٌ أخرى تقاريرَ حول التحولات في طبيعتها وتطورها عبر الزمن — وهي تقارير تكشف التغييرات المثيرة للاهتمام في طبيعة القوة الأمريكية في العالم — أو تصنيفًا لمستويات عمل معاداة أمريكا (المواقف تجاه الحكومة الأمريكية، والثقافة الجماهيرية الأمريكية، وما إلى ذلك). لا تبدو مشاعر المعارضة للقوة المهيمنة عالميًّا، مهما كانت طبيعتها، مفاجِئةً بنحو خاص؛ إن ما لم

تعرضه كل هذه الدراسات هو جانب آخر من جوانب معاداة أمريكا أردنا أن نستكشفه وأن نفهمه؛ وهو الطريقة التي يمكن بها فهم معاداة أمريكا (وعدم وجود معاداة لأمريكا) بوصفها اشتباكًا (مهما يكن بنحوٍ غير واعٍ) مع الحدود الأيديولوجية للعولمة. بعبارة أخرى، إننا إنْ وضعنا في الاعتبار «الحد الزمني» للعولمة، فسوف نفهم معاداة أمريكا بوصفها بديلًا، أو عَرَضًا من أعراض التفكير في «ما بعد» العولمة حين كان هذا التفكير تحديدًا ممنوعًا، إن لم يكن خارج نطاق التصور.

على الأقل منذ حرب فيتنام، وبالتأكيد في أعقاب حروبٍ ما بعد أحداث ١١ / ٩ في أفغانستان والعراق، أصبحت معاداة أمريكا شكلًا من أشكال الانتماء «السلبي»؛ صحيح أنه شكل ضعيف، ولكنه مع ذلك، وسيلة تؤكد مكان المرء في العالم عن طريق تحديدِ ما لا ينتمي إليه. نحن نعلم جيدًا كيف يكون تأكيد الهوية، وكيف تكون النتائج السلبية (الإقصاء والسلطة الأبوية) والإيجابية (مشاعر الارتباط والانتماء) المترتبة على مثل هذا التأكيد. لكن ماذا يعني «إنكار» مثل هذه الهوية؟ وما هو شكل ومضمون هذا الإنكار؟ هل يستطيع المرء، على سبيل المثال، أن يكون معاديًا لأمريكا دون أن يؤكد بهذا انتماءه القومي؟ (أو، فيما يتعلق بهذا الأمر، هل يستطيع المرء أن يكون أمريكيًّا ومعاديًا لأمريكا دون أن يكره ذاته؟) عندما طلبنا من المشاركين في المقابلات أن يتحدثوا عن معاداة أمريكا، كنا نحقق جزئيًّا في أنواع مشاعر الانتماء والارتباط التي كانوا يشعرون بها في هذا الوقت. وإن كنا سألنا فقط عن العولمة بنحو مباشر، وهو مفهوم ينطوي بالفعل بالنسبة إلى الكثيرين على نهاية لمثل هذه الانتماءات في مقابل بعض الأفكار العالمية المجردة، سواء كانت مرغوبًا فيها أو غير مطلوبة، كان من الممكن ألا تظهر هذه الأفكار والمُثُل.

تشكل معاداة أمريكا كذلك «خريطة» للأحوال السياسية الكبرى. في معظم الحالات، يكون مضمون معاداة أمريكا أقل أهمية بكثير من شكلها. عندما يُذكر شكل من أشكال التعبير عن معاداة أمريكا في شوارع مدينة أجنبية (أي غير أمريكية) في مقطع تبثُّه شبكة إخبارية تليفزيونية، يمكن أن يبدو غير منطقي، ومليئًا بالكراهية تجاه كيان موجود فقط بوصفه فكرة تجريدية: وهو أمريكا، وهي شيء آخر يخالف (ولكنه يشمل) حكومة الولايات المتحدة، وقادتها، ومواطنيها، وسياستها الخارجية، ومؤسساتها، وثقافتها، وحتى (ما بعد) الحداثة التي صارت مرتبطة بها مجازيًّا. لكن يمكن للمرء أن يرى الكثير من المعاني في مقطع إخباري، وبالتأكيد قد يراه بنحو غير صحيح. وكما

تُظهر ردود الطلاب في دراستنا، كان من النادر الشعور بمعاداة أمريكا بهذا الشكل العشوائي وغير المبرر (تلك المعارضة لأي شيء وكل شيء أمريكي). عوضًا عن ذلك، من الواضح أن معاداة أمريكا تشكِّل خريطة جاهزة للقوة في العالم المعاصر؛ أي تفسيرًا من الدرجة الأولى لشبكات القوة والنفوذ السياسيَّين. إنها خريطة تربط القوة المادية والاقتصادية بالقوى الثقافية. وتقدم العولمةُ الآن خريطة من نفس النوع: لقد صارت مصطلحًا مختصرًا للوضع الذي أصبح عليه العالم الآن، وكيف سيكون حاله على الأرجح في المستقبل القريب على الأقل. وعلى الرغم من ذلك، فإن عمليات العولمة لديها ميل نحو تحويل القوى السياسية إلى قوة تاريخية، أو حتى قوة طبيعة؛ فليس هناك فاعلون مهيمنون في العولمة؛ فلا تقودها أو تشكلها أي مجموعة أو دولة؛ إنها ببساطة تظهر هكذا. وهذا جزء من قوتها الأيديولوجية. قد تبدو معاداة أمريكا غير مسايرة إلى حد كبير للتحليلات اللاهثة للحاضر والمستقبل السياسيَّين التي تدفقت في السنوات الأخيرة، وهي سياسة شكَّلَتها المفاهيم والنظريات التي تصرُّ على ظهور نظام جديد. إنها تبدو قديمة مقارنة بما يرتبط بكل ما هو عالمي، وهو مصطلح ومشاعر تتصل بلحظة سابقة من القومية الثقافية والاقتصادية، والمسرحيات المالية التي تتناول التنمية من خلال إحلال المنتجات المحلية محل الواردات، وما إلى ذلك. وعلى الرغم من ذلك، إذا كان هناك من يريد أن يستوعب كيفية فهم السلطة، تساعد دراسة معاداة أمريكا على كشف تنظيم العالم خلال حقبة العولمة بطريقة لا يمكن أن يقدمها تناول موضوع العولمة مباشرة. على الأقل، تمنح معادة أمريكا العولمة توضيحًا جديدًا، ليس بمجرد تسليط الضوء على الوظيفة الأيديولوجية للعولمة، بل لدفعها الأفراد إلى تدبرِ ما تغير بالضبط (إن كان هناك شيء قد تغير) عن كثب في عام ١٩٨٩.

لنكن واضحين: من خلال دراسة العولمة عن طريق تحليل جوانب معاداة أمريكا، لم تكن نِيَّتنا الحكم المسبق على طرق فهم المشتركين في المقابلات للعولمة؛ لوصفها مقدمًا، بعبارة أخرى، بأنها حيلة من حيل القوة السياسية. عوضًا عن ذلك، كنا نريد أن نحثَّ الطلاب على إخبارنا بكيفية عمل العالم من وجهة نظرهم، وكيفية انسجام أفكار العولمة مع عمل الكوكب، وما يعنيه ذلك بالنسبة إلى مستقبل الكوكب ومستقبلهم الشخصي على حدٍّ سواء. وكما ناقشنا في الفصل الأول، أصبحت معاداة أمريكا في السنوات الأخيرة من إدارة بوش جزءًا من مناقشة العولمة بأساليب شَعَرْنا بأننا لا يمكننا أن نتجنبها. لم نكن نتوقع من الطلاب صدًى للتعليقات القاسية للكاتب المسرحي هارولد بينتر عن الولايات

المتحدة في خطاب قبوله جائزة نوبل في عام ٢٠٠٥، ولم نجد أي صدًى لها؛ حيث وصفها بأنها (ضمن أمور أخرى) «همجية، وأنانية، ومتكبرة، وقاسية ... وأيضًا ذكية جدًّا.»[4] كان اهتمامنا منصبًّا أكثر على فحص وجهات النظر — ما وصفناه بأنه نوع من «الحس العام» المهيمن — التي تدعم مقال جيمس تروب، الكاتب بمجلة «ذا نيويورك تايمز»، الذي «تَوقَّعَ» فيه تعليقات بينتر.[5] فتَحْتَ عنوان «كراهيتهم المترفعة لنا»، يصف المقالُ الرؤيةَ السياسيةَ لبينتر بأنها «متطرفة لدرجة أنه من المستحيل تقريبًا كتابة محاكاة ساخرة لها.»[6] يتخيل بينتر أن حرب العراق هدفها السيطرة على الموارد، وهو أحدث بند في قائمة طويلة من المغامرات (المصائب) الأجنبية الناجمة عن نزعات الهيمنة الأمريكية، ويصف القصف الأمريكي لكوسوفو بوصفه «عملًا إجراميًّا.» يقول تروب:

> هذه الآراء مألوفة في الولايات المتحدة؛ يمكنك سماعها في أي حرم جامعي كبير. ومع ذلك، فمِن بين المفكرين أو الأدباء المشهورين، من الصعب التفكير في أي شخص، سوى ناعوم تشومسكي وَجور فيدال، لن يصيبه الغثيان بسبب آراء بينتر. ولكن الوضع مختلف تمامًا في جميع أنحاء أوروبا؛ حيث اليسار المُعادي لأمريكا أكثر احترامًا بكثير على المستوى الفكري.

ويتابع قائلًا:

> إن كل هذا الحديث عن «المقاومة» و«معاداة الفاشية» يكشف أصول هذه السلالة الخبيثة من معاداة أمريكا: دعم نضالات «الحرية» في الصين وكوبا وفيتنام وزيمبابوي وأماكن أخرى. العراق، بعبارة أخرى، يُفرض على الشبكة القديمة «المعادية للإمبريالية» مع لعب البعثيين الساخطين دور الفيت كونج. قد يتبادر إلى ذهنك أن نهاية الحرب الباردة قد أنهت هذا الصراع المانوي، إلا أن أقصى اليسار لم يكن مستعدًّا للتخلي عن الوضوح الأخلاقي المبهج لتلك الحقبة.

يدرك تروب أنه «لا يمكن تقبُّل دولة مهيمنة مثل أمريكا الآن بوصفها فاعل خير؛ في الواقع، لا تستطيع دولة تضع مصالحها قبل كل شيء أن تعمل من منطلق الإحسان معظم الوقت.» وفي الواقع، يعترف تروب بأن الولايات المتحدة يمكن أن تحسِّن من صورتها بالالتزام بالقواعد الدولية والأسس التي وضعتها المؤسسات الدولية، مثل

المحكمة الجنائية الدولية، والتي صدقت عليها معظم بلدان العالم واعتبرتها ملزمة لها. وفي نفس الوقت، يشير تروب إلى أن هناك بعض المميزات للمشاعر المعادية للولايات المتحدة، ولكنه يحاول أيضًا بكل جهده أن يوضح أن وجهات نظر بينتر وَناعوم تشومسكي وَجور فيدال وآخرين، ليست فقط خاطئة، ولكن غير منطقية كذلك؛ مجرد مزحة؛ وجهات نظر يسارية مضلَّلة وغير واقعية يتوقع المرء أن يجدها في الجامعات، وجهات نظر استطاع الطلاب الذين تفهموا السياسة الواقعية العالمية أن يتغلبوا عليها، حتى وإن كان أساتذتهم يبدون غير قادرين على ذلك.

أفضل طريقة يمكن من خلالها للولايات المتحدة أن تواجه مثل هذه المشاعر، وفقًا لوجهة النظر هذه، هي أن تتصرف على نحو أفضل في العالم. مَن يمكن أن يختلف مع هذا؟ إن المشكلة الحقيقية هي، بطبيعة الحال، لماذا لا تفعل الولايات المتحدة ذلك؛ فهناك سبب لعدم حضور الأشخاص المهيمنين دورات في الأخلاق، ولكن يبدو أن تروب لم يكن يعرف هذا على الإطلاق. إن الأخلاق ليست بديلًا عن التحليل البنيوي، إلا أن هذا يُحجب دائمًا بما يقدمه الحس العام عن العالم كمكان مكون من فاعلين أخيار وأشرار، يمكن فهم دوافعهم ونجاحاتهم، وأخطائهم المؤسفة بسهولة. إن معاداة أمريكا أمر غير شرعي، كما يرى تروب، ثم يقول إنه أمر مشروع تمامًا، وهذا هو سبب احتياجنا إلى اتخاذ إجراءات للتصدي له. وفي قلب هذه التناقضات، نجد خريطة العالم التي نراها متكررة في الخطابات الرسمية للنخبة السياسة: إن العالم في أمسِّ الحاجة إلى تغيير، ولكن فقط بأن يصبح أكثر شبهًا بما هو عليه بالفعل، أو ما «يمكن» أن يكون عليه، إذا كان في وسعه الاقتراب من حالة من الكمال (فلنفكرْ هنا في رأسماليةِ ما بعد أمريكا لِزكريا، أو الرأسمالية الليبرالية لِكروجمان، أو الرأسمالية الخضراء لِفريدمان، أو الرأسمالية الشعبية لِفلوريدا، أو الرأسمالية المختلطة لِكلاين).

هل يرى الجيل القادم العالَمَ على هذا النحو كذلك، مع بقاء العالم أسيرًا لهذه التناقضات؛ التناقضات التي تجعل المنطق والتحليل النقدي أمرين سيئين أو نوعًا من التطرف اليساري، والتي يمكن رفضها لعدم تقيدها بقواعد الحس العام؟

(٣) وضع خريطة للعالم

أي دراسة تنظر إلى بلدان يفصل بينها التاريخ والجغرافيا والظروف الاقتصادية (وما هذه إلا البداية فقط) تُظهر اختلافات لا يمكن التغاضي عنها. كان انتباه الطلاب الذين

أجرينا مقابلات معهم في تايوان محولًا إلى الصين في الشمال؛ ليس بوصفها مكانًا يشهد توترًا جيوسياسيًّا، ولكن لأنها مكان قد يوفر لهم فرصة عمل بعد الانتهاء من دراستهم. ويرى الألمان أوروبا من وجهة نظر اللاقوميين الذين لديهم كامل مساحة القارة للتحرك خلاله؛ بالنسبة إليهم، تضاءلت الانتماءات القومية في كل مكان حتى أصبحت أوروبا أهم من البيت والوطن. بالنسبة إلى طلاب المجر وكرواتيا، توفر فكرة أوروبا فرصًا جديدة، على الرغم من أنها بالنسبة إليهم هي فرصة الأمن المالي والاستقرار، إذا كانوا محظوظين بما فيه الكفاية لمغادرة بلدانهم والذهاب إلى مكان ذي مناخ اقتصادي أفضل. ولا يثير دهشتنا أن طلاب كولومبيا وروسيا ما زالوا ينظرون إلى العالم من وجهة نظر أخرى حتى الآن. مثل هذه الاختلافات متوقعة.

ولعل ما يثير الدهشة أكثر هو «أوجه التشابه» التي وجدناها بين جميع الدول الست؛ فعبر الأنواع المختلفة من الجامعات (العامة والخاصة)، وحقول الدراسة المتمايزة (إدارة الأعمال، والفلسفة، والأنثروبولوجيا، وعلم الاجتماع، وما إلى ذلك)، والفئات العمرية (١٨–٣٠)، والحالة الاجتماعية والاقتصادية (من الطبقات الدنيا إلى الطبقات المتوسطة العليا)؛ ما أثار دهشتنا على نحو متكررٍ الاهتماماتُ المشتركة للطلاب ونظرتهم للعالم الذي كانوا على وشك أن يخرجوا إليه بوصفهم أعضاءً مشاركين فيه وصناعًا للقرار. إن أوجه التشابه ليست أكثر أهمية من الاختلافات، ولكننا اخترنا أن نركز على أوجه التشابه وننظم رؤيتنا حولها. تتطلب هذه الاستراتيجية بعض المقاومة لما يمكن أن يسمى بأسلوب دراسات المناطق أو الأسلوب الثقافي، الذي يكشف اهتمام الباحثين بالتفاصيل التاريخية كيف تتصل وجهات النظر القادمة من مكان معين بالماضي الفريد لهذا المكان أكثر من اتصالها بأي قوًى مشتركة أعم. بعبارة أخرى، إن التركيز على الاختلاف عادة ما يؤدي إلى دراسة رأسية تكشف في النهاية عن سبب الخطأ في تحديد مثل هذه التشابهات التي تبدو واضحة بين الظواهر المعاصرة. ومن ناحية أخرى، غالبًا ما يفضي التركيز على التشابه إلى دراسة أفقية تكشف في نهاية المطاف عن سبب الخطأ في تحديد مثل هذه الاختلافات التي تبدو بديهية. ليس من الصعب أن نتصور إلى أين يقودنا هذا: لكل دراسة للتشابهات العالمية، يقف المؤرخ التقليدي ليثبت خطأها، ولإظهار سبب أن عدم وجود أي اهتمام بالتاريخ العميق من شأنه أن يهدد مثل هذه الدراسة الأفقية. وبالمثل، لكل دراسة عن الاختلافات، يقف عالم الاجتماع التقليدي ليثبت خطأها، وإظهار سبب أن خصوصية الحاضر تهدد هذه الدراسة العمودية.

نحن لا نرى أن أحد الأسلوبين أفضل بالضرورة من الآخر؛ فنحن نعترف بأن لكلٍّ من الأسلوبين مزاياه وعيوبه، فضلًا عن أن كل أسلوب متداخل مع الآخر، وأن ثنائية التحليلات الرأسية والأفقية نفسها غير مستقرة. ومع ذلك، في هذه المرحلة من خطاب العولمة، نجد أن الأكثر فاعلية على المستوى الفكري والسياسي استخدام الأسلوب الأفقي؛ ويعني هذا أن التركيز على التشابه أو الاختلاف هو في حد ذاته جدلي ويتوقف على الضرورات التاريخية المحددة التي يتم خلالها التركيز. لقد كانت هناك أسباب سياسية قوية للتركيز على الاختلاف في لحظات سابقة. لنأخذْ مثالًا واحدًا فقط: في سبعينيات القرن العشرين وثمانينياته، بدأ بعض الباحثين الأدبيين في التركيز على الاختلاف باعتباره عملًا سياسيًّا استراتيجيًّا.[7] عند الجدل بأن السرد النثري غير الغربي لا ينبغي أن يرتبط بسرعة بالرواية الغربية (كما كان يحدث كثيرًا في الدراسات الآسيوية والأفريقية، وكما يتضح من النُّبذات المفروضة الموضوعة على ظهر الكثير من الكتب المترجمة غير الغربية؛ مثل «تمامًا مثل ديستويفسكي»، و«فوكنر القادم»)، ظهر أن دعوات العالمية ليست أكثر من مساعٍ مستترة للهيمنة؛ ومن ثم، داخل دراسات المناطق والدراسات الأدبية في ذلك الوقت، كان فصل الاختلافات والتركيز عليها أحد طرق فضح العنف المتضمن في نظرية التحديث. ومع ذلك، بحلول تسعينيات القرن العشرين، فَقَدَ التركيز على الاختلاف ميزته التقدمية، وتَحوَّلَ إلى شكل رجعي من الانتقادات القائمة على العلوم الإنسانية، وهو شكل يسعى وراء التفرد والاختلاف الجذري بطريقة تتشابه ليس مع تلك الخاصة بالأشكال الليبرالية الجديدة للتعددية الثقافية فحسب، بل ومع الخطابات الأكثر خبثًا لإحياء الثقافة القومية الجديدة أيضًا. أصبحت المشكلة الآن هي كيفية تناول نقاط التشابه دون أن ننسى التاريخ القذر لقسم كبير من الرغبة المتعلقة بالاتجاه العالمي.

في الواقع، كان التشابه الأعمق بين الطلاب الذين قابلناهم هو غياب التأثر عند تعبيرهم عن حالة الشلل التي يعانون منها على المستوى الفردي والقومي. كانوا، بكل بساطة، «هادئين» عندما تحدثوا عن الوضع العالمي وكيف كان يبدو معطوبًا. إلا أن هذا الهدوء لم تكن تغذِّيه السخرية أو التهكم، ولا يعني هذا أنهم كانوا سعداء أو راضين، ولكنهم فقط كانوا يفتقرون إلى التصنع الذي لاحظناه في النقاد الذين تم تحليلهم في الفصل الثاني. وبدلًا من تجاهل هذا التأثر الضعيف وإرجاعه في جانب كبير منه إلى اللامبالاة وآثار نزع الصفة السياسية عن الرأسمالية العالمية، لا يسعنا إلا أن نتساءل إن لم يكن هناك شيء راديكالي فيه؛ شيء ينبهنا ليس فقط إلى عيوبنا، ولكنه يحتوي أيضًا على بذور ذاتية راديكالية أكثر.

وأسفرت الأسئلة التي طرحناها على الطلاب عن مجموعة واسعة من الإجابات، كانت غنية وواسعة النطاق بحيث لا يمكن أن نلخصها بأي وسيلة سهلة، والتي كانت تستحق بالتأكيد التحليلَ المقارنَ الأوسعَ نطاقًا الذي نقدمه هنا. وقبل أن نمرَّ على مناقشة لبعض النقاط الرئيسية التي أثيرت في المقابلات، تجدر الإشارة إلى ثلاثة محاور رئيسية ظهرت من خلال هذه المناقشات الستين التي تتعلق على نحو مباشر بالقضايا التي نناقشها في هذا الكتاب؛ وهي:

(١) «الطريقة التي تبدو بها الأمور»: يبدو أن الطلاب لديهم القليل من الاهتمام «الصريح» بخطابات الرأسمالية الليبرالية التي ناقشناها وحللناها في الفصل الثاني من الكتاب. وعندما يُبدون بعض الاهتمام أو يعبِّرون عن معرفتهم بهذه الخطابات، يرون أنها خطابات نُخَب لا تعني لهم الكثير. كان جميع الطلاب الذين قابلناهم تقريبًا يجيدون مهارات اللغة الإنجليزية وكانوا يدرسون في المستوى الجامعي (بعضهم في الجامعات التي تُخرِّج عادةً الطبقة السياسية القومية، مثل جامعة تايوان القومية وجامعة لوس آنديز في كولومبيا). في الواقع، كنا على استعداد للتحدث إلى الطلاب بلغات غير الإنجليزية (مع وجود مترجم أو باستخدام مهاراتنا اللغوية ذات الصلة)، إلا أن هذا لم يكن في بعض الأحيان مطلوبًا؛ مما أثار خيبة أملنا، وهو ما يعد دون شك عَرضًا واضحًا من أعراض العولمة. لكن بدا أنه لم تكن لديهم معرفة كبيرة بأعمال توماس فريدمان أو بول كروجمان، التي كنا نتوقع أنهم مروا بها في مرحلةٍ ما أثناء دراساتهم، سواء بِلُغتها الأصلية أو مترجمة.

لكن هذا لا يعني أن الطلاب لا يجسِّدون الأيديولوجية المُعْرَب عنها في هذه الأعمال. كانت وجهات النظر القائمة على «الحس العام» الخاصة بالعالم، التي تشكل رؤى هؤلاء الطلاب وفهمهم وتوقعاتهم للعالم في واقع الأمر، إلى حد كبير، تلك التي نراها واضحة ومُعبَّرًا عنها في الخطاب الليبرالي الأمريكي. فبوصفهم مواطنين في عالمِ ما بعد الشيوعية، هم يعيشون في حقبةِ ما بعد الأيديولوجية. لم تكن قناعتهم بالطريقة المسيطرة على سير الأمور أمرًا مهمًّا؛ لأنه ليس هناك سوى الحاضر؛ فالاشتراكية بالنسبة إليهم فكرة غريبة بقدرِ غرابة عهد الملوك والملكات. وليست القضية هي الحاجة إلى إقناعهم بأن الرأسمالية هي أفضل شكل من أشكال التنظيم الاقتصادي؛ فهي ببساطة على ما هي عليه. مع الأسف، يدرك الطلاب أن الرأسمالية تؤدي إلى الظلم حتمًا، ويرون من وجهة نظرهم أنه على الدول أن تعالج جوانب الظلم هذه من خلال البرامج الاجتماعية، وهو أمر «أخلاقي»

أكثر منه سياسي، وهو أمل أكثر منه توقع بأن حكوماتهم ستعمل بالطريقة الملائمة، سواء كان ذلك بسبب الفساد وعدم كفاءة القادة، أو بسبب القيود والحدود — خاصةً المالية منها — التي وضعت على عاتق عملية صناعة القرار القومي بسبب الانتماء لنظام عالمي. وباستثناء الطلاب الذين تم إجراء مقابلات معهم في ألمانيا، يَعرف هؤلاء الطلاب أن هناك شيئًا ما خاطئًا في هذا الحس العام. وبما أنهم يعيشون في بلدان لا تمتلك أنظمة رعاية اجتماعية قوية، أو تمتلك نظمًا اجتماعية واقعة تحت التهديد نتيجة الضغوط الاقتصادية والتنافسية (التي تنادي بتخفيض الضرائب على الأغنياء)، فيبدو العالم مكانًا يسوده عدم اليقين والتهديد. يؤمن الطلاب بوهم النظام الرأسمالي الليبرالي الذي يمكن أن يفيد الجميع إذا تم تطبيقه بطريقة سليمة، ولا يؤمنون به على الإطلاق؛ فمع عدم وجود روايات بديلة، يبدو التكوين الجيوسياسي الحالي لهم كأنه التكوين الطبيعي للأمور.

(٢) «الطريقة التي تسير بها الأمور»: عندما طُلب من الطلاب وضع الخطوط العريضة لطريقة تنظيم العالم — أي تحديد من يمتلك السلطة والنفوذ اللازمَين لتوجيه التطورات وتشكيلها، ليس في بلدانهم فحسب، ولكن على نطاق عالمي — قدموا عمومًا صورة متبصرة للعالم. في كل حالة تقريبًا، رَفَضَ الطلاب تقبُّل معاداة أمريكا أو العولمة ببساطة بوصفها أسماءً دالة على النظام الحالي لسير الأمور. كانت معاداة أمريكا تنقسم إلى آراء حول السياسة الخارجية الأمريكية، والقيم الأمريكية والمجتمع الأمريكي، والمنتجات الثقافية الأمريكية، وما إلى ذلك. يبدو أن خيبة الأمل أو الاستياء من السياسة الخارجية الأمريكية، وهو موقف يبدو عالميًّا، لا يمتلك أي علاقة أو ارتباط بسائر طرق تصوُّر تشكيل الولايات المتحدة الأمريكية للعالم وتأثيرها فيه. كما أن القلق إزاء الإمبريالية الثقافية عبر انتشار الأعمال السينمائية، أو التليفزيونية، أو الموسيقية الأمريكية — الذي كان شعورًا قويًّا بين الأجيال السابقة من الطلاب — اختفى نسبيًّا، إن لم يختفِ تمامًا. يمكن فهم فكرة أن الثقافة يمكن أن تتحول إلى سياسة بوسائل أخرى، إلا أنها لم تؤخذ حقًّا على محمل الجد.

وماذا عن العولمة؟ لقد فوجئنا بربطها بالاقتصاد بنحو ضئيل؛ بمعنى أنها تدل على أن العالم تم دمجه الآن في نظام اقتصادي واحد. هذا ما عبَّر عنه الجميع وتقبلوه دون مناقشة بوصفه الكيفية الحالية لسير الأمور. كانت الإجابات المتعلقة بالعولمة من نوعِ تلك التي وردت ردًّا على أسئلتنا حول المفاهيم الأخرى الخاصة بالنظم الكبيرة، مثل الرأسمالية والديمقراطية ومعاداة أمريكا. كان الطلاب حريصين على إظهار أنهم عقلانيون، ولم يعبِّروا عن رؤًى حادة، ولكنهم لَجَئُوا لسرد الإيجابيات والسلبيات. تَجْمع العولمة العالم

معًا، ما يعني تقليل سيطرة دولهم على عملية صنع السياسات؛ ومن ناحية أخرى، فإن حقيقة كون العالم أصغر تعني أنه توجد احتمالية لاستغلال الفرص المتاحة في الخارج. وتعني العولمة أن هناك منافسة أكثر من أي وقت مضى؛ ومن ناحية أخرى، يعني ذلك أيضًا أننا نستطيع أن نرى المزيد، ونقرأ المزيد، ونجرب المزيد من أجزاء أخرى من العالم أكثر من أي وقت مضى. لم يكن هناك مؤيدون لأيديولوجية معينة في المجموعة المكونة من الـ ٦٠ طالبًا الذين أجرينا معهم المقابلات. ولكن هذا التوازن الدقيق بين الإيجابيات والسلبيات يعني أيضًا أنه لم تكن هناك أي آراء يعتنقونها بقوة. ومجددًا، كان لدينا شعور بأننا نتحدث مع طلاب أذكياء وأصحاب فكر ثاقب، كانوا حذرين إزاء اتخاذ موقف غير الذي يؤكده الحاضر وعملياته، حتى وإن كان ذلك يتم بطريقة نقدية بعض الشيء.

(٣) «الخطوات التي يمكن اتخاذها»: على الرغم من أن الطلاب استطاعوا تقديم لمحة عامة عن السلطة العالمية، وعلى الرغم من مواقفهم الخاصة بوصفهم النخب الوليدة، يبدو أنهم كانوا ينظرون إلى العالم كما لو كانوا خارجه؛ بوصفهم مراقبين أكثر منهم مشاركين نشطين. وكان الموقف العام الذي أعرب عنه معظمهم، إن لم يكن كلهم، هو أن النُّظُم التي يتم من خلالها إنتاج نشاط الحياة على كوكب الأرض أكبر كثيرًا من أن يكون لهم أي تأثير عليها. ومن المثير للدهشة أن الآراء السياسية لم يتم التعبير عنها؛ إذ كان ينظر إلى الطبقة السياسية على أنها تتألف من مجموعة منفصلة من الفاعلين الذين كانوا هناك في الأساس لمصلحتهم الخاصة. هذا أمر مؤسف، إلا أنه ما يمكن أن يتوقعه المرء من السياسة الرسمية، وهو جزء من سبب تجنب الطلاب للتعبير عن الآراء السياسية. ماذا عن المستقبل؟ بما أن الطلاب لا يعتقدون بأن هناك الكثير مما يمكن لأي شخص أن يقوم به لتعديل أو تحسين سير الأمور، فقد شعروا أن المستقبل سيكون مثل الحاضر من نواحٍ كثيرة، أو ربما أسوأ بعض الشيء. وفي ظل هذه الظروف، ما يمكن القيام به هو أن يحاول كل واحد منهم تحسين ظروفه الخاصة (وربما وضع أسرته) بأي درجة ممكنة. كان التعليم يُنظر إليه بوصفه وسيلة لتحقيق هذه الغاية، على الرغم من أنه لا يضمن تحقيق نتائج إيجابية في عالم يُتصور أنه قد قدَّم من قَبل مسارات محددة ومستقرة أكثر في الحياة الاجتماعية.

نحن ندرك أن سياق المقابلة واتجاه أسئلتنا قد يكون قد ولَّد بعض الردود التي تلقيناها. وكنا حريصين على عدم إصدار تعميمات حول الاختلافات بين الأجيال، وخاصة تلك التي قد ترى أن الجيل الأصغر سنًّا يفتقر إلى بعض الصفات الأساسية التي (يفترض

أن) تمتلكها الأجيال السابقة عليه؛ فمن الخطأ تحليليًّا توجيه الاتهام لجيل من الطلاب على أساس غياب بعض الجوانب لديهم، خاصة الأخلاقية أو السياسية منها. على الأقل، يمكن للمرء أن يطالب بتفسير وتعريف للأساس الذي يتم بمقتضاه تحديد هذا النقص أو الغياب، وهو ما سيؤكد على المطالبة بأن يكون البحث معياريًّا أكثر منه تحليليًّا.

بعد ذكر هذا كله، كيف بدا لنا الجيل العالمي؟ كان جيلًا ذكيًّا يفتقر إلى السوداوية، وعلى علم بمشاكل العالم، ولكن دون أن يمتلك أي رؤية لكيفية حلها، ولديه عدم يقين بشأن مستقبله؛ ومن ثَمَّ يعتمد على أيديولوجية الحس العام للِّيبرالية التي تقوم عليها العولمة لترسمه له. كما أنه مرتبط جدًّا بالحاضر، لدرجة أنه لا يستطيع حتى أن يتخيل أي مستقبل يحدده «ما بعد» الحاضر.

ومن أجل التعرف أكثر على شكل وهيكل وجْهات نظرهم، وخلافًا لموضوعات الشباب التي يتصورها فريدمان، أو فلوريدا، أو كروجمان، أو كلاين؛ نقدم هنا نقطتين كمدخل للمقابلات التي أجريناها؛ أولًا: نقدم بعض الأمثلة على الردود التي تلقيناها من الطلاب في بعض المجالات الرئيسية موضع الاهتمام من جانبنا؛ وهي: القومية، ومعاداة أمريكا، والجيوسياسة، والعولمة، والسياسة الثقافية المعاصرة، والرأسمالية، والمستقبل. ومن خلال هذه الأمثلة، نأمل أن نستطيع أن نصل إلى المشاعر العامة التي أعرب عنها الطلاب كمجموعة والسماح لبعض الاختلافات التي سمعناها بالظهور. ثانيًا: نقدم دراسات حالة «جغرافية حيوية» من مقابلات الطلاب الفردية؛ ثلاثة مواقف مختلفة للعالم تعطي مزيدًا من الشكل والمضمون للمزاعم التي نقدمها والنتائج التي عرضناها أعلاه.

(٣-١) المشاعر القومية

من المعروف أن العولمة تمثل نهاية الأمة، وربما هذا هو الحال إذا كان المرء يتصور أن الأمة هي السياق الوحيد الذي تُدرَّس وتُقدَّم القراراتُ السياسية والاقتصادية من خلاله. وفي إطار الانتماء الشخصي الذاتي لجماعةٍ ما، تظل الأمة، بالنسبة إلى الطلاب الذين أجرينا معهم المقابلات، هي المساحة التي ينتمي إليها الشخص وتعمل في إطارها حياته وتوقعاته. إن الجيل العالمي جيل قومي كذلك. إن تاريخ الأمة هو شكل سياسي قوي بنحو خاص لتحديد الهوية والانتماء؛ فبعد الأسرة، تبقى هي الطريقة الرئيسية التي نتصور من خلالها الانتماء الجماعي. إذا كانت الأمة هي «الجماعة المتصوَّرة» (كما يقول بنديكت أندرسون في تعبيره الشهير)،[8] فهي تلك التي حصلت على قوة

لا يمكن إنكارها من خلال المؤسسات والهياكل التي تعطيها شكلًا؛ وهي: المواطنة، والتعليم (من الترديد اليومي للنشيد القومي حتى التاريخ القومي في الكتب المدرسية)، ونظم الاستيراد/التصدير، ونظم الاتصالات (روايات أندرسون والصحف، بالإضافة إلى التليفزيون والإنترنت)، والأطر السياسية والقانونية، وجميع أنواع الممارسات اليومية المعتادة. (لا يجب أن نتفاجأ أن هذه القائمة تتشابه في بعض النقاط مع أجهزة الدولة الأيديولوجية لألتوسير.)[9] يقرأ الطلاب حياتهم داخل الأمة؛ ومن ثم فهُم يهتمون بمصير أمتهم أكثر من وضع العالم أو تصرفات الولايات المتحدة. وفي الوقت نفسه، فإن التمييز بين ما هو قومي وعالمي ليس محددًا تمامًا بالنسبة إلى الطلاب. في الواقع، إن صلابة الجانب القومي بالإضافة إلى القوة الراسخة للجانب العالمي فيما يتعلق بتشكيل الهوية هي تحديدًا ما نجد أنها مميزة بنحو خاص في اللحظة الراهنة. ويمثل هذا تناقضًا فقط في حالة توقع انخفاض قوة الجانب القومي في مقابل صعود قوة الجانب العالمي. ولكن تغيير «العلاقة نفسها» بين القومي والعالمي (وليس القوة النسبية لأحدهما في مقابل الآخر) هي الأهم. وفي هذه النقطة تحديدًا من هذه العلاقة المتغيرة يجد الطلاب أنفسهم، وقد تم التعبير عن ذلك بأكثر شكل معبر في ردودهم المختلفة.

مع وضع هذا في الاعتبار، ماذا عن شعورهم حيال أممهم؟ على الرغم من أن كلًّا منهم لديه أفكار مختلفة حول ما تعانيه أمته، فإن هذه الأفكار تندرج جميعًا ضمن مجموعة من النقاط المتصلة؛ عدم المساواة الاجتماعية، والفجوة بين الأغنياء والفقراء، وعدم وجود فرص محددة أمام الطلاب، وإساءة استخدام السلطة من قِبل السياسيين. ويُنظر إلى الأنظمة الرسمية بجميع أنواعها بأنها ترغب في الإصلاح وتحتاج إليه. وتقع بعض هذه المشكلات بسبب العلاقات الخارجية، ولكن بنحو عام، يرى الطلاب أن أممهم في حاجة إلى تحسين قومي (وليس عالميًّا، أو دوليًّا). يبدو أن أحد التنظيمات الاجتماعية الجديدة له قوة ومعنًى حقيقيان: أوروبا، وخاصة عندما يُنظر إليها بوصفها نمطًا جديدًا من التنظيم الاجتماعي يتنافس مع النموذج الذي صدرته الولايات المتحدة إلى العالم.[10] وفيما يلي مقتطفات مما قاله بعض الطلاب في هذا الشأن:

> أولًا كلنا مجريون. جميعنا مجريون أولًا ثم أوروبيون. لا تساعد وسائلُ الإعلام في هذا الصدد؛ لأنه في كثير من الأحيان نرى أن العناوين الرئيسية، وخاصة في الصحف الشعبية، تفصل المجر عن أوروبا. أعتقد أن هذا سيئ للغاية؛

فالهدف منه ليس تثقيف المجريين على الإطلاق؛ فنحن نرى جملًا من قبيل: «تتقدم أوروبا، ولكن هذا ليس حال المجر» (طالب مجري).

في الوقت الحاضر، من المعتاد التظاهر بأنه لا توجد مشاكل اجتماعية وسياسية ضاغطة تواجه بلادنا. بدلًا من ذلك، من المعتاد أن نقول إننا قد وصلنا إلى مستوًى معين من الاستقرار؛ ومن ثم، فإن استخراج أي معلومات عن المشكلات الفعلية مما يُصرح به رسميًّا صعب جدًّا؛ وإن كان على المستوى اليومي الشخصي والعملي لا يسعنا إلا أن نلاحظ أن هذه المشكلات موجودة بالفعل. وقد يفاجأ المرء كذلك بحقيقة أن هذه المشكلات لا تتم معالجتها.

ولإعطاء بعض الأمثلة على ذلك، يمكنني أن أذكر قضايا لديَّ احتكاك بها: قضايا متصلة ببرامج الإعانة والضمان الاجتماعية. بادئ ذي بدء، إن مجرد وجود مجموعات غير محمية اجتماعيًّا لَهُو في حد ذاته مشكلة. ثانيًا، إن هيكل خدمات الإعانة الاجتماعية معيب؛ ففي كثير من الأحيان يجد المرء أن هذه الخدمات، في الواقع، لا تساعد الناس، بل تفاقم أوضاعهم، وهذا دون الخوض في كثير من التفاصيل (طالب روسي).

في المجتمع التايواني، لا تزال بعض الأماكن تقليدية جدًّا. إذا أصبحتَ ناشطًا مجتمعيًّا، فسيلقي مَن حولك باللائمة عليك لأنهم يعتقدون أنك تتسبب في حالة من الفوضى. إنهم لا يريدون الاحتجاج، وفي بعض الأحيان يرون أن ذلك ليس ما ينبغي عليهم القيام به؛ إن ذلك عمل أشخاص آخرين (طالب تايواني).

أعتقد أن أكبر مشكلة هي البطالة وهبوط مستوى المعيشة بسرعة كبيرة في السنوات العشر الأخيرة، أعتقد أن هذه هي أكبر مشكلة. هناك عدد قليل من الأغنياء، والطبقة الوسطى تختفي ببطء، وأعتقد أن قضية البطالة هي أكبر مشكلة. وهناك أيضًا مشكلات مثل الفساد المستشري في أرجاء النظام القضائي، والمستشفيات، وكل شيء؛ لذا أعتقد أن هاتين هما أكبر مشكلتين (طالب كرواتي).

أعتقد أنه من الصعب أو العسير علاج المشكلة؛ لأننا نعيش فعليًّا في مجتمع متطرف، فالأغنياء شديدو الثراء حتى إنك تستطيع أن ترى العديد من

سيارات المرسيدس في الشوارع، ولكن الفقراء في الواقع شديدو الفقر. في ظل هذه الظروف، من الصعب حقًّا علاج هذه المشكلة، وخاصة في المجتمع التايواني. أعتقد أن معظم الناس يطمحون إلى الاستقرار؛ لأن تاريخ تايوان معقد للغاية. احتلت اليابان تايوان، وبعد الحرب العالمية الثانية جاءت حكومة الحزب القومي الصيني في الصين وتايوان، وخضعنا للاستعمار؛ لذلك أعتقد أن هذا هو أحد الأسباب التي تجعل الجميع يتوقون إلى الاستقرار، ولا يرغبون في التغيير أو إصلاح المشكلة (طالب تايواني).

بادئ ذي بدء، أعتقد أن هذه الحرب هراء. جماعات حرب العصابات في الوقت الحاضر ليست لديهم أيديولوجية؛ فهُم لا يبحثون عن عدالة أو سلام اجتماعي، بل يسعون فقط وراء المال. أعتقد أن أسلوب حرب العصابات هذا أصبح مجرد وسيلة لكسب العيش الآن: إنه مجرد عمل. أما عن الحرب، فأعتقد أنها ليست حقيقية كما قد تبدو؛ وأعني بذلك أن وسائل الإعلام، والرئيس، والأحزاب السياسية، والبيئة السياسية صنعوا منها شيئًا أكبر، فيربط الجميع نفسه بهذه الحرب حتى يستطيع استغلالها لمصلحته. يصنف الرئيس ووسائل الإعلام الناسَ إلى فئات: الأخيار والأشرار، الوطنيين وغير الوطنيين ... أظن أن الرئيس يقدم لنا معضلة أمنية، إنه يقول لنا إننا نتعرض للهجوم والتهديد، في حين أن الأمر ليس بهذا السوء. لا يزال بوسعنا أن نذهب إلى الشواطئ، وقيادة سياراتنا، ولا يبدو أن تلك الجماعات منتشرة في جميع أنحاء البلاد. وتتفق وسائل الإعلام مع الرئيس؛ تقول لنا إن علينا أن ندعمه، ويجب أن نكره هذه الجماعات. لا توجد وسيلة أخرى لإنهاء الحرب إلا من خلال محاربتها. وأعتقد أن كلا الجانبين يعقدان صفقات فيما بينهما. لا أعتقد أنهما عندما يفكران فيما يدور بينهما يقولان: «مهلًا، هل نسميه سلامًا، أم نسميه حربًا؟» لا، أعتقد أنهم يهدفان إلى الاستفادة مما نواجهه الآن (طالب كولومبي).

أظن أن هناك فجوة كبيرة جدًّا بين الطبقة العليا في المجتمع والطبقة الوسطى، التي أعتقد أنها في طريقها للاختفاء في المجر. لا يوجد من يحصلون على رواتب متوسطة، والتي يمكن أن تكون متوسطة حقًّا بين أعلى راتب وأقل راتب؛ لذلك أنا أعتقد أن هذه مشكلة كبيرة (طالب مجري).

أعتقد أن المشكلة لا تزال مشكلةَ بِطَالة، هذا أكثر ما نشعر إزاءه بالقلق في السنوات الأخيرة، على الرغم من أن الوضع يتحسن. الآن نحن متفائلون جدًّا؛ فالسوق جيدة جدًّا الآن، بحسب اعتقادي. ثانيًا، بالنسبة إلينا جميعًا كل ما يهمنا هو كيفية العثور على وظيفة، حتى مع حصولنا على درجة جامعية. ولن يكون هذا سهلًا، خاصةً مع ما يتوقع منك من انتقال إلى الخارج أو إلى جزء مختلف تمامًا من ألمانيا. على الأقل هذا مصدر قلق بالنسبة إليَّ. أنا لست متأكدًا تمامًا مما ستكون عليه الأمور فيما بعد (طالب ألماني).

(٣-٢) معاداة أمريكا والجيوسياسة

كيف يفهم الطلاب دور الولايات المتحدة في العالم؟ وكيف يرون طبيعة الجيوسياسة؟ من جهة، يتشكل الجيل العالمي من خلال سياسة واقعية خاصة بطبيعة القوة العالمية. تسعى الدول القوية إلى تحقيق مصالحها الخاصة (وخصوصًا عندما يتعلق الأمر بالحصول على موارد الطاقة)، كما هو متوقع، على الرغم من كل المبررات التي قد ينهالون بها علينا ليثبتوا عكس ذلك. إن الولايات المتحدة هي الدولة الأقوى في العالم؛ ولهذا فهي تعمل بما يخدم مصلحتها، وتتطلب فظاظة هذه الحقيقة مجموعةً من الدروع أو السُّتر الأيديولوجية التي تجعل السياسة الخارجية الأمريكية أقل عرضة للاعتراض عليها؛ أيْ مجموعةً من الإجراءات التي تقودها الأخلاق وليس تحقيق الأرباح والجشع والنظر إلى العالم بوصفه لعبة ذات مجموع صفري.

يعترض الطلاب على تصرفات الولايات المتحدة في العالم وتأثير هذه التصرفات على البلدان التي يعيشون فيها. أما بالنسبة إلى الأمريكيين «أنفسهم»؛ الشعب الأمريكي وليس الساسة، فهي جيدة في الأساس. يستطيع الطلاب الذين أجرينا معهم المقابلات أن يحللوا مشكلاتِ وحدودَ وأسبابَ المشاعر المعادية للولايات المتحدة في بلدانهم، التي تنشأ بنحو رئيسي بسبب الخلط بين السياسة الخارجية الأمريكية وأي شيء آخر قد يحمل الصفة «الأمريكية»؛ ومن ثم، فإن الولايات المتحدة أمة تعاني من انفصام في الشخصية — دولة شريرة وشعب طيب — بنفس الطريقة التي يرى بها معظم الطلاب حكومات بلادهم. «حكم الشعب، من جانب الشعب، ومن أجل الشعب» هو شيء يجب أن يحدث للشعب نتيجة للمرور بهذا الوضع. إن الأسس الفضلى التي تتوافق مع الفطرة التي قامت عليها الولايات المتحدة (العدالة والحرية للجميع) تضل طريقها بالمثل كلما تحركت الولايات

المتحدة خارج حدودها الأساسية. لا يبدو الطلاب قلقين إزاء هذه الألغاز؛ حيث يرونها أوضح من أن تُذكر: هناك دائمًا شعوب طيبة وحكومات سيئة، وسلوك حسن داخل الوطن وسلوك سيئ في أماكن أخرى. فيما يلي بعض المقتطفات من آراء الطلاب حول هذه النقطة:

لكنَّ كلَّ مَن قابلتهم من الأمريكيين كانوا حقًّا أشخاصًا رائعين. لقد سمعت عن الرأي المتحيز القائل بأن جميع الأمريكيين أغبياء وغير مثقفين، ولكنني لم أرَ ذلك من خلال تجربتي معهم ... ما الذي تمثله أمريكا؟ القوة، ونوعًا من الديكتاتورية حيال بقية العالم، وكونها شرطي العالم؛ هي ليست حتى شُرطيًّا؛ لأنه يفترض في الشرطي أن يكون عادلًا وخيِّرًا وما إلى ذلك، ولكنها مجرد ديكتاتور عالمي. هذه هي رؤيتي للأمر كله (طالب كرواتي).

أولًا، لا بد أن أقول إنني عشت في الولايات المتحدة لبضع سنوات، وقد وقعت في حبها لأنني عشت في الجنوب. إنها لا تشبه كولومبيا. أرى جدلية الجنوب والشمال وأرى انعكاسها في العلاقة بين أمريكا الجنوبية والولايات المتحدة. أشعر بالتعاطف مع الأمريكيين، ولكن ليس مع ما يفعلونه في النظام الدولي. لا بد لي أن أقول إنه عندما يتعلق الأمر بالسياسة، فإن الأمريكيين محترمون. إذا كنت في موقفهم، لكنت تصرفت بنفس الطريقة. ما فائدة السلطة إذا كنتَ لا تمارسها؟ كيف يمكنك ممارستها إلا عن طريق إخضاع الناس تحت إمرتك؟ أعتقد أنه عندما يتعلق الأمر بمجالات أخرى، يكون الأمريكيون لُطَفاء؛ فهم لديهم عقول متفتحة لفهم أن البلدان الأخرى ليست أمريكية ولديها طريقتها في التعامل مع الأمور. ولكن هناك شعورًا مستمرًّا بأن الأمريكيين يتعاملون مع الأمور على نحو أفضل (طالب كولومبي).

أقصد أن هناك بحسب اعتقادي رؤيتين أساسيتين في هذا الشأن؛ الأولى هي رؤية إيجابية للكونية والفردية والإنجاز الفردي. بالطبع، على الجانب الآخر، هناك الرؤية التي ترى أن الولايات المتحدة هي على الأقل نموذج الرأسمالية، وأنها القوة الإمبريالية الجديدة وما إلى ذلك. أعتقد أن الرؤية الثانية هي الأقوى في الوقت الراهن، وترتبط بالطبع بحكومة بوش. ولكنها كانت دائمًا موجودة،

بحسب اعتقادي. وربما يعود هذا إلى بداية القرن العشرين على الأقل (طالب ألماني).

إنه أمر معقد. في تايوان نظن أن أمريكا صديقة لنا. في الواقع، قبل دخولي الجامعة، كنت أعتقد دائمًا أن أمريكا أمة جيدة، وأن الشعب الأمريكي يرغب في مساعدة تايوان على التطور، أو أي شيء آخر. ولكن في الآونة الأخيرة، غيرت رأيي لأنه كان رأيًا خاطئًا. كل ما تفعله أمريكا لتايوان يهدف إلى الربح. لا يمكننا أن نلقي باللوم على أمريكا لهذا السبب؛ فنحن من أسأنا الفهم. ولكن أعتقد أننا إذا استطعنا أن نتعاون مع أمريكا، فلن يكون ذلك سيئًا؛ حيث إن الوضع الاقتصادي في أمريكا أفضل منه في تايوان. إن تايوان جزيرة صغيرة، ولا يمكننا أن نتطور بأنفسنا. علينا أن نتعاون مع الدول الكبرى (طالب تايواني).

إنهم يريدون السيطرة السياسية لتكون وسيلتهم للوصول إلى السيطرة الاقتصادية؛ فهُم يريدون الموارد. إن قضية الموارد ستتزايد حدتها بمرور الوقت. وهم يحاولون أن يتستروا على سعيهم للسيطرة على الموارد عن طريق بعض الهراء الأحمق الذي، بالمناسبة، يبدو أنه مقبول على نحو كبير داخل الولايات المتحدة نفسها. يبدو أن الشعب الأمريكي غير قادر على تحليلِ ما يجري (طالب روسي).

الأخ الأكبر. أو يمكن أن أقولها باللغة المجرية؛ لا أعرف معناها باللغة الإنجليزية — [يقول عبارة باللغة المجرية] — ولذلك أظن أن أمريكا هي الدولة التي تريد أن تؤثر في كل شيء، ليس بنحو مباشر ولكن بصورة أساسية باستخدام قوتها الاقتصادية، ويمكنها أن تفعل ذلك، ولكنني لست متأكدًا من أن الولايات المتحدة تقوم بذلك بطريقة جيدة. وأعتقد أن الأسباب الرئيسية لتأثير الولايات المتحدة في العالم ورغبتها في التأثير على سائر الدول هي نموها الاقتصادي وثروتها الكبيرة (طالب مجري).

أما بالنسبة إلى الوضع العالمي، فأعتقد أن الفجوة بين الأغنياء والفقراء موجودة كذلك. توجد دول فقيرة ودول غنية، والدول القوية تصبح أقوى وأقوى مثل

الولايات المتحدة أو القوة الكبرى الناشئة المتمثلة في الصين. في الواقع، تمثل هذه الدول بالنسبة إليَّ مصدر تهديد أو تخويف. وأنا لا أُومِنُ بما يسمى السلام العالمي (طالب تايواني).

لم أذهب إلى الولايات المتحدة قط، ولكنني أود أن أزورها. بوصفي طالب إعلام، كان عليَّ أن أتعامل مع العديد من الأحداث الإعلامية التي جرت في الولايات المتحدة، وكان رائعا حقًّا بالنسبة إليَّ باعتباري طالبًا أن أرى كيف تعمل الديمقراطية والحرية وحرية التعبير هناك. في البداية، اعتقدت أنها رائعة وأنني أود أن أعمل هناك، وأعتقد أن هناك اعتقادًا مبتذلًا وقديمًا يقول بأن الولايات المتحدة هي أرض الفرص للجميع. أعتقد أن هذا ليس صحيحًا في الوقت الحاضر (طالب مجري).

عندما كنتُ صغيرًا، كان عندي بعض الأفكار الخيالية عن أمريكا؛ ولهذا السبب، ضمن أسباب أخرى، اخترت دراسة اللغة الإنجليزية. اللغة الإنجليزية هي رمز الطبقة الاجتماعية. عندما التحقتُ بقسم اللغة الإنجليزية، أدركت أنني أنأى بنفسي عن أمريكا. وفي الوقت الراهن، أنا أعارضها. أشعر بالتناقض. قبل ذلك، كانت أمريكا إسقاطًا مهمًّا لرغبتي، والآن، أجد نفسي بمنأًى عنها؛ على سبيل المثال، عند السفر إلى الخارج، أشعر بأن هناك تمييزًا عنصريًّا ضدي؛ حيث أُصنف عنصريًّا بأنني آسيوي. في أقسام اللغة الإنجليزية، تكون هناك مسافة بين الطلاب الذين يتخصصون في اللغة الإنجليزية وسائر الطلاب، وخاصة أولئك الذين لا يتحدثون اللغة الإنجليزية، أو الذين ينتمون إلى الطبقة العاملة. فهم يشعرون بأنهم في مكانة أعلى، وأنا لا أحب هذا، هذا التفاوت الاجتماعي.

عندما قرأت عن تاريخ تايوان والعلاقة بين أمريكا وتايوان والصين واليابان، أدركت أن الأمر ليس بسيطًا كما يبدو. لديَّ بعض الاعتراضات، وخصوصًا عندما يتعلق الأمر بقضايا التجنيد العسكري التي تُثار في تايوان. لماذا ينبغي علينا أن ننفق دائمًا الكثير من الأموال لشراء أشياء لا نحتاج إليها؟ لقد قيل لنا إننا نحتاج إلى ذلك لحماية أنفسنا من الصين. ولكننا وجدنا أن هذا ليس صحيحًا، الحقيقة ليست كما يقولون؛ فالوضع صعب جدًّا بين

هذين البلدين. عندما قطعت أمريكا العلاقات مع تايوان، وأصبحت الآن لديها علاقات جيدة مع الصين، قد تظن أن الأمور ليست بهذه البساطة، فهناك مسافة منها. أعتقد أن الناس في مجتمعنا لا يزالون، باستثناء بعض المنظمات المناهضة للإمبريالية، يصدقون كل ما تقوله لهم أمريكا. ثقافيًّا وسياسيًّا، لا يزال معظم الناس مرتبطين بعلاقات قوية مع أمريكا ويعتقدون أن أمريكا سوف تحمينا من الصين. ثقافيًّا، نرى أن المزيد والمزيد من الناس في تايوان يتعلمون اللغة الإنجليزية، وهم يعتبرون الثقافات الأمريكية أمرًا مسلمًا به؛ فهي تسيطر على صناعة الثقافة عندنا (طالب تايواني).

لا أعتقد أنها سيئة أو جيدة، إنها لديها منطقها الخاص، وهي تعمل على تحقيق مصالحها، وفي بعض الأحيان تحاول إدخال الديمقراطية إلى العالم، ولكن دائمًا بما يخدم مصلحتها. يمكن أن يفعلوا ما يريدون؛ فهم يوقعون اتفاقات مع المكسيك والعراق، وآخرين لا أعرفهم، ولكن كل هذا يخدم مصالحهم الخاصة؛ مصالح الشعب الأمريكي. نحن جميعًا أمريكيون. أنا لا أحب أن أحكم عليهم، بل أفضِّل أن أحكم على موقفهم من أمريكا اللاتينية، والمملكة العربية السعودية. نحن لدينا مشكلة، أما هم، فلا (طالب كولومبي).

هل تختلف هذه الأفكار حول الولايات المتحدة اعتمادًا على وضع صاحبها في المجتمع؟ كان معظم الطلاب يرون ذلك، معتبرين أن الطبقات الدنيا وأولئك الذين يعيشون خارج المدن أظهروا أكبر قدر من العداء للولايات المتحدة، في حين توافقت مصالح النخب مع الأفكار والقيم الأمريكية. فيما يلي بعض الأمثلة:

يمكن للمرء، بالطبع، أن يفترض أن معاداة أمريكا في المناطق النائية أقوى، بينما تضعف في المدن الكبيرة، ولكن من الصعب التحقق من هذا. وبقدرٍ ما تسير بنا العلاقة بين معاداة أمريكا والطبقة الاجتماعية ... إذا نظرنا للطبقة ذات الدخل المنخفض من السكان، فسنجد أن عداءهم لأمريكا قوي، وكذلك كراهيتهم لكل ما هو أجنبي. وفيما يتعلق بالطبقة الوسطى، إذا كان لها وجود، وهو أمر محل جدل، فيبدو لي أن موقفهم أكثر عقلانية: صحيح أنه موقف حرج، ولكن من دون اتهامات نمطية تعميمية. أما بالنسبة إلى النخبة، فمن الصعب بالنسبة إليَّ أن أحكم على مواقف مجموعة لم يسبق لي أن أنتمي

إليها، ولا أملك حتى رفاهية الأمل في الانتماء إليها في أي وقت [يضحك]. أعتقد أن موقفهم متسامح، وكأنهم شركاء لهم (طالب روسي).

الجميع متأمركون! أعتقد أن من ينتمون إلى الطبقات المتوسطة والطبقات العليا خاصةً أكثر تأمركًا. في الواقع، نعرف كيفية تصنيف الناس لا شعوريًّا؛ كلما زادت الأمركة، زاد المستوى الاجتماعي، لا سيما بين طبقات الشباب (طالب كولومبي).

هل هناك أي إمكانية لحدوث تغيرات في الولايات المتحدة يمكنها أن ترأب الصدع بين الشعب الطيب والسياسة الخارجية السيئة لحكومتهم؟ هناك بعض الخلاف حول هذه النقطة. يبدو أن القليل من الناس (انظر قسم «المستقبل» أدناه) يعتقدون أن فوز مرشح ديمقراطي في انتخابات عام ٢٠٠٨ و/أو انتخاب باراك أوباما تحديدًا من شأنه أن يؤدي إلى حدوث تغييرات. ولم يكن البعض الآخر على يقين من ذلك. على أي حال، فإن رياح التاريخ والتغيرات التي أتى بها القرن الحادي والعشرون جاءت بتحديات جديدة تنتظر الولايات المتحدة، وكذا تحول في طبيعة القوة الجيوسياسية. فيما يلي بعض رؤى الطلاب حول هذه النقطة:

لقد أصبحتُ أتوقع نفس الشيء، حتى لو تغير من يرأس الحكومة. بالإضافة إلى ذلك، هذه الحكومة ليست حكومة الرجل الواحد، ولكنها أكبر من ذلك. حتى لو كانت هناك أفكار جديدة من المنتظر أن يأتي بها أوباما، فإن الهيكل المحيط سيحاول أن يمنع تلك الأشياء الجديدة من العمل. تلك الأشياء الجديدة التي من الممكن أن ينفذها في سياقات أخرى، لن تسمح بها الحكومة. لا أعتقد أن هذا سيغير العلاقات بين الولايات المتحدة وكولومبيا. أعتقد، أن التغيير إذا حدث، فإنه سيكون في القضايا الاقتصادية بدرجة أكبر (طالب كولومبي).

أعتقد أنهم قد شعروا بأن اقتصادهم عرضة في أي وقت للانهيار؛ علاوة على ذلك، ومثل أي بلد آخر، فبلدهم عرضة لنضوب موارده؛ لذا فقد استشعروا نوعًا من عدم اليقين، وعدم الاستقرار، وهو أمر لم يعتادوه. كان هناك عدم استقرار في النصف الأول من القرن العشرين، لكنهم تعاملوا معه، ويبدو أنهم ظنوا أنهم قد تعاملوا معه للأبد. ولكن الحياة أظهرت أنه ليس هناك شيء

دائم. وعلى الرغم من قدرتهم في الماضي على سحب الموارد من روسيا وغيرها من البلدان دون حسيب أو رقيب تقريبًا، فقد بدأت هذه الدول في الوقت الراهن في وضع شروطها الخاصة، والحد من هذه الصادرات. لا يرغب الأمريكيون في ذلك؛ لأنهم حسبوا مقدار ما يحتاجون إليه، وهم حاليًّا لا يحصلون على ما يكفي؛ ولذا فما لم يُقدَّم لهم طواعية، سيحصلون عليه بالقوة (طالب روسي).

ما الذي تمثله أمريكا في عالم اليوم؟ سياسيًّا، أعتقد أنها القوة العظمى الوحيدة الباقية، ولكنها ليست القوة الوحيدة الباقية؛ لذلك، أظن أنها في مرحلة انتقالية جديدة. بعد الحرب الباردة، كان من الواضح أن أمريكا منتصرة نظامًا وروايةً، ولكن أصبحت على الفور تحت ضغوط روايات وقوًى مختلفة، وأصبح عليها أن تلجأ إلى نوع من أنواع التلاعب. ما الذي سيأتي في المائة سنة القادمة؟ أعتقد أن هناك قوًى جديدة ستنشأ مثل الصين، وستظهر روايات جديدة مثل أوروبا، وسوف يتعين على الولايات المتحدة — أعني الشعب الأمريكي والثقافة الأمريكية والسياسة الأمريكية — الاختيار بين عزلة جديدة وحل وسط جديد؛ إلى أي مدًى سيشتركون في الروايات الأخرى ويتعاونون مع القوى الأخرى، وإلى أي مدًى سينسحبون من المجال السياسي لأنه ليست جميع المشاركات جيدة (طالب ألماني).

(٣-٣) العولمة

يشغل مصطلح العولمة عقولنا (بقدرِ ما نرغب في التخلص منه)، وهو مصطلح منتشر في كل مكان في الحياة الأكاديمية، وأيضًا، حتى لو بدرجة أقل، في وسائل الإعلام المطبوعة. لقد وجدنا اهتمامًا أقل بالعولمة في مقابلات طلابنا، سواء بوصفها عملية أو نظامًا أو أيديولوجية. وباعتبار هؤلاء الطلاب جزءًا من النخبة الناشئة، وبوصفهم مشاركين في المجتمعات الجامعية التي تضع هيكل الأجندة الأيديولوجية وتشارك به في كل منطقة وبلد، وخاصة فيما يتعلق بالعلاقات الخارجية والفهم المحلي للشئون الدولية، كنا نتوقع أن يبدو مصطلح العولمة مألوفًا لهم بنحو أو بآخر. ولكن ردود أفعالهم تجاهه كانت ضعيفة، فوجدنا أنفسنا فجأة نوقف المقابلات، ونبدأ مسابقة تطلب منهم وضع تعاريف دقيقة للمصطلح.

أشارت سلسلة الترابطات التي وجدت في هذه التدريبات التعريفية إلى أن العولمة هي عملية واحدة حتمية مُعَرِّفة لحقبةٍ ما. إنها تمحو الحدود، وتوحدها، وتبسطها، وتقضي عليها، وتولد خسارة: إنها تؤدي إلى شيء واحد مما كان ذات يوم أشياء متعددة. كيف ذلك؟ التكنولوجيا والاستهلاك والأسواق. إن العولمة هي الشيء الذي يتطلب تقييمًا معياريًّا: هل هي شيء جيد؟ أم سيئ؟ وعلى الرغم من ذلك، فهي في النهاية تدريب لا طائل منه: إنها تحدث سواء تَحرَّك أي شخص لفعل شيء حيالها أم لا. إنها ظاهرة خلفية ضبابية، الأساس الذي يقف كل شيء حياله كرقم، وهي تختلف عن الجيوسياسة، التي تُعَد الساحة التي تقع أحداثها عليها. يَعتبر هؤلاء الطلاب مفهوم العولمة بوصفه تدريبًا أكاديميًّا يُنظر إليه قليلًا بعين الارتياب. إذا كان هناك من يريد أن يفهم العالم، فعليه أن ينظر في لعبة السياسة بين القوى العظمى، والتي تعني للجيل العالمي أن الولايات المتحدة هي المسئولة عن الإدارة حتى يتمكن آخرون من اللحاق بها (الصين تلوح في الأفق). أما ما لا يلاحظونه دائمًا، أو على الأقل ما يبدو أنهم يتقبلونه، هو أن هذه اللعبة تُلعب الآن بنفس القواعد، في كل مكان وبجميع الأطراف المشاركة. فيما يلي بعض رؤى الطلاب حول هذا:

> إنها عملية عالمية لمحو الحدود الثقافية. إنها عملية تشكيل مجتمع مشترك موحد؛ على سبيل المثال، مثلما يحدث في الاتحاد الأوروبي. بقدرِ ما أفهم، لديهم معايير اقتصادية وقانونية مشتركة؛ وهناك اختلافات طفيفة، ولكنهم بنحو عام يحاولون توحيد هذه المعايير، ولا سيما الاقتصادية منها، بحيث تصبح الحياة أبسط: توحيد تأشيرات الدخول والرسوم الجمركية وغيرها من الأمور المماثلة من أجل إزالة الحدود التي تعوق النشاط والتبادل (طالب روسي).

> إن العولمة هي عملية توحيد تؤدي إلى فقدان التنوع الثقافي. وغالبًا ما يتم تناول العولمة بنحو إيجابي، وأنا أعتقد أنها ظاهرة سلبية؛ لأنها تقضى على تفرد الثقافات والبلدان والعقليات. وهي تشكل ثقافة ومجتمعًا متوسطَين، لا طابع مميز لهما، ورماديَّين (طالب روسي).

> هذه هي المشكلة. أعتقد أن الولايات المتحدة موجودة هنا في كولومبيا. مع العولمة، يريد الجميع المزيد والمزيد من التكنولوجيا والاستهلاك. أعتقد أن الناس لا تعي ذلك جيدًا. لقد عشت في لندن، ورأيت أن الناس ليس لديهم

أي أشياء طبيعية، فهم لا يهتمون كثيرًا بالنظام البيئي. هنا، لدينا كل شيء، ولكن لا أحد يهتم بذلك. في بلدان أخرى، ليس لديهم ذلك؛ ولذا فهم يهتمون كثيرًا بذلك. هذه المنظمات هي أفراد من الخارج يحاولون حماية هذا الأمر (طالب كولومبي).

نحن نتعلم تعريفات العولمة في دورات التسويق؛ لأنها تتناول ... منتجات عالمية، وشركات عالمية مهمة؛ على سبيل المثال، تبيع محالُّ ماكدونالدز الأسماك في فنلندا، ولا تقدم لحوم البقر في الهند (طالب مجري).

إنها عملية توحيد للثقافات والدول واختراق متبادل بينها، وإنشاء لحقل ثقافي واقتصادي وسياسي واحد، ما هي؟ (طالب روسي).

أعتقد أنها جزء من النظام الجديد هذا، إنها — لا أعرف — رابطة عالمية. أنا لا أعرف كيف أسميها. بها أجزاء جيدة وأجزاء سيئة. أعتقد أن الناس يخشون أنهم سيخسرون أنفسهم في هذا النهر الكبير من الناس، وأنا أعتقد أن هذا مصدر الخوف من العولمة. نحن الآن جميعًا مرتبطون بعضنا ببعض بالفعل، ويمكن أن نتصل بأي شخص في ثانية واحدة (طالب كرواتي).

أعتقد أن هذا المفهوم غامض في جوهره وغير محدد، ويستخدمه علماء الاجتماع والاقتصاد في وصف الأحداث الجارية. بعض العمليات، عمليات الدمج أو التمييز، تتم، وقد كانت موجودة من قبل. ولكن حتى يكونوا قادرين على التحدث عن هذه العمليات، وتعقبها ودراستها، وافقوا على استخدام مصطلح «العولمة».

يمكن أن يندرج أي شيء تقريبًا هنا: دمج الانتماءات العرقية المختلفة، ودمج الجماعات العرقية المختلفة في الدول المتعددة الأعراق (أي الدول التي تحتوي على عشرات الجماعات العرقية المختلفة)؛ وهي العملية التي تتم حاليًّا في الثقافة بنحوٍ عامٍّ وفي الثقافة الفنية على وجه الخصوص؛ أي اختلاط الثقافات الروسية والأوروبية والأمريكية، اختلاط التقاليد. يبدو لي أن هذه العمليات لم يتم استكشافها ودراستها بنحو جيد. وإذا استمر هذا الوضع، فإن مفهوم العولمة سيشوه سمعته بنفسه (طالب روسي).

نعتقد أن هذا الطالب ربما يكون على صواب.

(٣-٤) السياسة الثقافية المعاصرة

أشار أحد الطلاب المذكورين أعلاه إلى أن العولمة تؤدي إلى «ثقافة ومجتمع متوسطَين، لا طابع مميز لهما، ورماديَّين.» المعنى واضح: فالثقافة تصبح أقل إثارة للاهتمام بسبب العولمة. هل تقدم العولمة مفردات جديدة للمخاوف القديمة بشأن الإمبريالية الثقافية؛ إعادة تشكيل الثقافة باستخدام ثقافة أخرى، أكثر قوة، تكون على اتصال بها؟ هل الثقافة هي المكان الذي يكون الوجود الأمريكي فيه في أقوى صوره؟

عندما يتعلق الأمر بوصف الثقافة الجماهيرية ومنتجاتها والممارسات التي تولدها بأنها «أمريكية» تحديدًا، يمكن لهذا الخلط التحليلي أن يبدأ في الانتشار. صحيح أن الأفلام التي يتم إنتاجها في الولايات المتحدة تعد منتجًا تصديريًّا ثقافيًّا كبيرًا، ولكن ربما يكون من الخطأ وصف النزعة الاستهلاكية إجمالًا بأنها أمريكية بالكامل وبنحو نهائي. لقد بدا أن عددًا قليلًا فقط من الطلاب يشعرون بالقلق إزاء وجود منتجات أمريكية في دور السينما أو المحطات الإذاعية في دولهم، على الأقل عندما يتعلق الأمر بأي تأثير اجتماعي واسع النطاق قد يكون لهذه المنتجات. يعترف الجميع بوجود مستويات عالية من استهلاك المنتجات الثقافية الأمريكية؛ يرغب معظمهم في فصلٍ مثل هذا الاستهلاك عن السياسة، تمامًا مثلما يريدون إصدار حكم حول قيمة هذه المنتجات، والمنتجات الثقافية الجماعية بنحو عامٍّ أكثر. لقد استمعنا إلى مخاوف بشأن الهيمنة المستمرة للولايات المتحدة على الثقافة؛ تمامًا كما سمعنا كثيرًا أن هناك الكثير من الروايات الثقافية المحلية التي يمكن أن نعرف عنها ونستهلكها، حتى لو كان هذا الاحتمال يعوقه أحيانًا (على سبيل المثال) ضيق الوقت الممنوح لعرض الأفلام القومية على الشاشة أو اهتمام وسائل الإعلام بالفِرَق الموسيقية المحلية. فيما يلي نماذج من آراء الطلاب حول هذا:

> يُنظر إلى أمريكا ببساطة بوصفها المصدر الرئيسي للروايات الثقافية؛ هذا ما نعتقده، وهذا ما نعيش في إطاره، فنحن نشاهد قناة إم تي في وبرامج الواقع، ولكن لا يوجد علاقة لذلك بالسياسة، لأننا لا نرى في ذلك شيئًا سياسيًّا (طالب ألماني).

كل شيء مرتبط بوسائل الاتصال ووسائل الإعلام التليفزيونية الضخمة. استهلك، واستهلك، وَزِدْ من استهلاكك. إن موسيقى البوب فقيرة للغاية. يمكنك أن تستمع إلى موسيقى باسيفيك وما لها من معنًى حقيقي. الآن يؤلف الجميع الموسيقى لكسب الأموال. أنا أكره البرامج التليفزيونية الأمريكية، فهي غبية للغاية. ليس عليك القيام بذلك؛ على سبيل المثال، مع الأفلام الفنية، عليك أن تتفكر في الفيلم وتُنعم الفكر فيه؛ أما بالنسبة إلى الأفلام الأمريكية، فليس عليك أن تفكر، كل ما عليك فعله هو أن تضحك على الأشياء الغبية. هذه هي الثقافة التي يريدونها، أن يبقى الناس أغبياء ليبقوا عليهم تحت السيطرة (طالب كولومبي).

أعتقد أنها مختلفة. يمكننا أن نضحك أو نبكي عندما نشاهد الأفلام الأمريكية، ولكن هناك شيئًا ما في الأفلام المجرية يشير إلينا، ونحن نفهمه. هناك فيلم عن رجلين كبيرين في السن يصاب أحدهما بالجنون لأنه لا يستطيع أن يدفع فواتيره ويفلس. رجلان من كبار السن، ويقومان بسرقة البنوك. هذا نموذج للواقع المجري، وهذا ما نحن عليه. لا يكفي المعاش نفقات الحياة (طالب مجري).

نحن لا نصدق أي سياسي في تايوان؛ لذلك فنحن نشاهد برامج التليفزيون، خاصة البرامج الحوارية. وهناك العديد من البرامج الحوارية السياسية في تايوان؛ ولذا لا نهتم بذلك الآن كثيرًا (طالب تايواني).

إذا كنت تقرأ الصحف اليومية هنا في كرواتيا، فستجد أخبارًا عن باريس هيلتون أكثر من أخبار الفنانين الكروات الذين يمتلكون شهرة عالمية، وهذا ما يجعلني غاضبًا حقًّا، ولكن كما قلت لك ليس لديك خيار، وأعتقد أن الأمور تقريبًا متشابهة في سائر دول العالم، أو في أوروبا على الأقل (طالب كرواتي).

إنها تلعب دورًا ملموسًا إلى حد كبير، تخترق الثقافة الأمريكية على نحو نشط الثقافة الروسية، وتأثيرها واضح؛ المفاهيم والنماذج الأمريكية للتجارة والغذاء والأزياء والترفيه (معظم الأفلام المعروضة في دور السينما أمريكية). نحن مدعوون للذهاب للعمل في أمريكا، والذهاب لقضاء الإجازة في أمريكا، والانتقال للتعلم في أمريكا (طالب روسي).

لا أظن ذلك. إنها قَطعًا ليست مصدرًا للقلق. إنها مجرد ثقافة شعبية، كما تعلم. هناك بعض العناصر هنا، ربما يحاول الكثير من التقليديين صنع مثل هذه الروابط، وربما يهاجمونها. ولكن مرة أخرى، من وجهة النظر المناهضة للنزعة الاستهلاكية، هناك هذا الربط، وربما يشير إليه أحد الأشخاص في بعض الأحيان، ولكن لا أعتقد أن هذه قضية مهمة على النطاق الاجتماعي الأكبر؛ إنها ليست قضية (طالب كرواتي).

يريد الجميع أن يشتري أشياءَ جديدة، أشياءَ تتعلق بالموضة. كما هو الحال في الولايات المتحدة، تزداد شهرة بطاقات الائتمان. نحن لدينا أمريكان إكسبريس هنا أيضًا؛ لذا يمكننا أن ننفق المال بسهولة، ثم نفكر في الشهر التالي في كيفية دفعها. هذا هو تأثير العولمة، ولكنني لن أقول إنه تأثير الولايات المتحدة. يحدث هذا في كل مكان من اليابان إلى الولايات المتحدة. يريد الجميع أن يشتري أكثر وأكثر؛ لأن هناك خيارات أكثر عامًا بعد عام؛ فنحن نطور الكثير من الأشياء الجديدة عامًا بعد عام مثل أجهزة الكمبيوتر. وفي العام التالي تصبح هذه السلع لا تساوي شيئًا؛ لذا لدينا مشكلات مع النزعة الاستهلاكية (طالب مجري).

(٣-٥) الرأسمالية

على مدى السنوات الثلاث التي استغرقها هذا المشروع، في مختلف البلدان التي لها ماضٍ من الشيوعية (كرواتيا، والمجر، وروسيا)، وتلك التي شهدت نموًّا رأسماليًّا شديدًا (ألمانيا خلال خمسينيات القرن العشرين التي شهدت المعجزة الاقتصادية الألمانية، وتايوان النمر الآسيوي الكبير)، لم نسمع رؤية واحدة من دون تحفظ للرأسمالية بوصفها نظامًا اقتصاديًّا. أعرب الطلاب عن مشاعر عدم الارتياح تجاه الرأسمالية والرغبة في إقامة نظام اقتصادي (واجتماعي) مختلف، أو أعربوا عن ارتياحهم إزاء الفردية والمنافسة الناتجتين عن الرأسمالية، ولكن فقط مع اتباع آليات السياسات المناسبة لتعويض تأثيرها الذي يكون قاسيًا في بعض الأحيان على الأفراد والمجتمعات. كان يُنظر للرأسمالية بوصفها نظامًا عالميًّا، ولكنه نظام تختلف خصائصه من بلد إلى بلد، هذه الخصوصية التي تقاس بمقياس متدرج من «الرأسمالية الخالصة» إلى الرأسمالية الاسكندنافية. كانت الاشتراكية

أو الشيوعية خارج هذا النطاق الخاص؛ فهي مصدر للأفكار السياسية، الأنظمة السابقة التي يمكن للمرء أن يقترض منها المكونات، ولكنها ليست الشيء الذي قد يختار المرء أن يعيد تطبيقه بالكامل. وكان هناك تصور أن الولايات المتحدة أقرب إلى تطبيق الرأسمالية الخالصة؛ حيث أراد جميع الطلاب الذين قابلناهم أن يكونوا مع السويديين والفنلنديين.

لم يكن واقع الرأسمالية العالمية محل شك من قِبل أي أحد. وأصبح السؤال هو: هل هي واقع علينا أن نناضل ضده أم نستوعبه؟ كان بعض الطلاب راغبين في القتال، وإن كانوا متشائمين حول النتيجة المحتملة؛ إذ كانت الأغلبية ترى أن مهمتها ومهمة الأمم هي التعامل مع الواقع الحالي ومعرفة كيفية الحصول على أكبر استفادة من النظام الاقتصادي الوحيد المتاح لهم. «شئنا أم أبينا، علينا أن نوافق عليه لعدم وجود خيار آخر.»[11] ليس هذا كلام أحد طلابنا، ولكنه تقييم آلان باديو لكيفية فهمنا للرأسمالية في أعقاب «فشل» الاشتراكية، وهي عبارة تشير على نحو موجز لوجهة النظر فيما يتعلق بالرأسمالية التي سمعناها في أماكن مختلفة من العالم:

> ما لا أحبه في الرأسمالية القادمة إلى هنا هو رؤية الشباب الذين يعيشون تحت كم هائل من الضغط، ويضطرون إلى العمل لفترات طويلة جدًّا من أجل الحصول على المال. هناك أشخاص يتقاضون رواتب جيدة، مثل مديري الشركات الكبيرة، ولا يملكون الوقت الكافي لإنفاق أموالهم. أعتقد أن الأمر هنا أيضًا صار يشبه سباق الجرذان بدرجة متزايدة. حتى الشباب ليسوا مستعدين لذلك، ويبدو هذا نظامًا غير عادل تمامًا بالنسبة إليَّ. لقد أصبحت الحياة مجرد عمل، وعمل، وعمل، دون أي متعة، فيما تشاهد صورًا تأتي لنا من الغرب، تطالب بذهابنا لعطلة في كوبا أو في أي مكان آخر. القضية أنك لا تمتلك الوقت الكافي للقيام بذلك، بغض النظر عن حجم ما تكسبه؛ لذلك فقد أصبحت الأمور سلبية للغاية. كلما تحدثت إلى أصدقائي، نتطلع دائمًا لمجتمع يكون اشتراكيًّا أكثر. لقد كانت بعض الأشياء في الشيوعية جيدة حقًّا. أعتقد أننا يجب علينا أن نعيدها من جديد، ولم يكن من المفترض أن نتخلص منها بسهولة كما فعلنا (طالب كرواتي).

> أنا لا أريد تطبيق هذه الشيوعية — أبدًا، إطلاقًا — وعليه، أعتقد أن الرأسمالية هي النظام الطبيعي الذي لدينا ويبدو أنه يتماشى جيدًا مع الديمقراطية؛ لذلك علينا أن نعمل على تطبيقه (طالب ألماني).

ستكون عملية طويلة، ولكن بطريقةٍ ما، في يوم من الأيام، سيكون من الواجب تغيير الهياكل. الآن، في ظل الأزمة الاقتصادية، جوهر الرأسمالية أصبح محل شك. أعتقد أن الهيكل راسخ تمامًا بطريقة تمنع أي تغيير، على الأقل في المستقبل القريب (طالب كولومبي).

قد لا تكون الرأسمالية هي الشيء المثالي، ولكنها أفضل ما لدينا؛ يمكننا قول هذا مستخدمين كلمات تشرشل، على ما أعتقد. تستند الرأسمالية إلى رغبة الناس في تحقيق أهدافهم، والتنافس مع الآخرين. الرأسمالية الخالصة، بالطبع، ليست جذابة جدًّا؛ فلا توجد رعاية لكبار السن، أو أي استثمار في تطوير الرياضة، وما إلى ذلك، ولا أي برامج اجتماعية؛ لذا فالرأسمالية الخالصة شيء خطير: الفقير سيبقى دائمًا فقيرًا، والغني سيظل غنيًّا، وستظل هذه الفجوة قائمة، وسيظل عدد الأغنياء دائمًا منخفضًا. هناك قانون باريتو، كما أعتقد، الذي يقسم المجتمع إلى ٥ مقابل ٩٥ في المائة؛ لذلك، على سبيل المثال، في روسيا يمتلك ٥ في المائة من السكان ٩٥ في المائة من رأس المال، ويحصل باقي السكان على أموال تكفي معيشتهم بشق الأنفس. وهذا أمر خطير جدًّا. إذا نظرتم إلى البرازيل، على سبيل المثال، لنرى إلام يمكن أن يؤدي ذلك: مناطق بأكملها لا يمكن أن تترك فيها السيارة لحظة واحدة وإلا تعرضت للسرقة. يبدو أننا نسير في هذا الاتجاه، وسيكون هذا خطيرًا جدًّا (طالب روسي).

بطبيعة الحال نحن بلد رأسمالي أيضًا، ولكن يجب أن تسير الرأسمالية جنبًا إلى جنب مع هياكل اجتماعية معينة ومزايا اجتماعية للأفراد الخاسرين في أي نظام رأسمالي. هناك دائمًا رابحون وخاسرون، ولكنني أظن أن عليك أن تساعد الخاسرين بنحوٍ ما (طالب ألماني).

أعتقد أن الرأسمالية والشركات والعلامات التجارية ضرورة — عرض من أعراض عصرنا — وأنا حريص حقًّا على النظر في كيفية عملها. الآن أنا أتقدم بطلب للحصول على وظيفة وأحاول أن أتعلم قدرَ ما أستطيع عن طريقة عمل شركات الإعلام في المجر، على سبيل المثال، وهذا أمر مثير للاهتمام حقًّا بالنسبة إليَّ. علينا أن نبيع أكبر قدر ممكن من الإعلانات؛ ومن ثَمَّ علينا أن

نجد أفضل الطرق للقيام بذلك. هذه هي طريقة سير الأمور. يستند عالمنا إلى الأوهام؛ ومن ثَمَّ سيكون من الصعب عليك العيش في القرن العشرين لو كانت رؤيتك هي أن الإعلام والمال ليس لهما دور في كل شيء (طالب مجري).

يُلقى باللائمة فيما يتعلق بجميع الجوانب السلبية للرأسمالية على الولايات المتحدة، وإحدى تبعات ذلك أن الرأسماليين الأمريكيين سيئون، وأن الرأسماليين الألمان يعملون من أجل الصالح العام، ويتم هذا بطريقة مجردة ... أعتقد أنه من الخطورة أن نسلك هذا الطريق (طالب ألماني).

أعتقد أن المجر لا تحاول أن تصبح رأسمالية، ولكن الساسة يحاولون بناء اقتصاد سوق اجتماعي ملائم. ولكن بسبب عدم وجود تشريعات، بل فقط سيطرة فعالة على التعاملات غير المشروعة وغير القانونية تقريبًا، تتحول سوقنا إلى سوق أكثر عنفًا من اقتصادات السوق الاجتماعية العامة. هناك الكثير — ما لا يقل عن ٥٠ في المائة من الناخبين — ممن يعتقدون أنه لا يجب علينا أن نكون رأسماليين لننجح. إن السويد وفنلندا وأيرلندا، أمثلة جيدة يجدر بنا أن نحذو حذوها؛ فهي رأسمالية، ولكن ليست بقدر الولايات المتحدة. هذا هو ما يظن الموضوعيون أنه الطريق الصحيح لحل المشكلات الاجتماعية، فضلًا عن المشكلات الاقتصادية هنا (طالب مجري).

(٣-٦) المستقبل

هل هناك تلميح بوجود احتمالات جديدة؟ فرصة للتغيير؟ ماذا يحمل المستقبل لمن أجرينا معهم المقابلات؟ كما ذكرنا قبل ذلك، فإن رد الفعل العام كان هو التشاؤم. إذا كان الطلاب يأملون في «حل» ديمقراطي اجتماعي، على غرار الحل الاسكندنافي للرأسمالية العالمية، فلا يبدو أنهم يشعرون أنه من المرجح أن يتاح في المستقبل القريب؛ لذا، أصبح حتمًا عليهم أن يتحملوا المشكلات التي حَدَّدوها في بلدانهم (تزايد التفاوت بين الدخول، وعدم وجود حكومات فعالة، وندرة البرامج الاجتماعية) والحقائق القاسية للجيوسياسة؛ الأغنياء يزدادون ثراءً، وأصحاب السلطة يعملون على أن تسير الأمور وفق هواهم. إن وجود مثل هذه الروح النشطة من صفات الشباب، كما يؤكدون، والتي من المرجح أن

تختفي مع النضج والحاجة إلى التعامل مع واقع الحياة (رعاية أسرة، ومواجهة متطلبات الحياة العملية). ظهرت كلمة «التشاؤم» مرارًا وتكرارًا في مقابلاتنا مع هؤلاء الطلاب.

إن المستقبل ليس مشرقًا للغاية بالنسبة إلى هؤلاء الطلاب. ما يحتاجونه هو مصباح يدوي سياسي نقدي لإنارة الظلام الذي يواجهونه. لا يعني هذا أن ما ينتظرهم مستقبل رهيب؛ الأمر أنه ليس من الملهم أن نتصور مستقبلًا يشبه الحاضر، بل وأسوأ قليلًا. وفيما يلي بعض الأمثلة:

> أعتقد أنها تنتج وعيًا بتلك الأشياء، ولكن لا أعتقد أنها تدفع الطلاب للتصرف فقط لأنهم عاجزون عن فعل شيء. فعليهم أن يسعوا للحصول على قوت يومهم. أعتقد أنهم مدركون، ومستعدون لمشاهدة أفلام وثائقية حولها والقراءة عنها، ولكن دون أن يفعلوا شيئًا في الواقع، لأنك ترى كلَّ من حولك، من حاولوا أن يفعلوا شيئًا لكنهم فشلوا، لذلك فأنت تقول في نفسك: لِمَ أكبِّد نفسي عناء المحاولة؟ أنا أتحدث عن كلية واحدة، طلاب كلية الفلسفة المعروفين بأن تفكيرهم متفتح للغاية. إذن تحاول مجموعة صغيرة جدًّا من الناس أن يتثقفوا في هذه المنطقة (طالب كرواتي).

> يعتقد الكثيرون أن مستقبل تايوان لن يكون جيدًا؛ فهو لا يمكنه أن يتطور بحيث يصل إلى ما وصل إليه في سبعينيات القرن العشرين وثمانينياته. كثير من الأشخاص في مثل عمري، عندما كُنَّا أطفالًا صغارًا، اعتقدوا أننا إذا اجتهدنا في الدراسة ودخلنا الجامعة، فسنجد بعد التخرج وظيفة جيدة ونكسب الكثير من المال. ولكن بعد أن تخرجنا، يبدو كل شيء ميئوسًا منه. يظن الكثير من الشباب أنه ربما في يوم من الأيام علينا أن نعمل في الصين وليس في تايوان؛ لأن تايوان لا تمتلك فرصًا للتطور. لكننا نعتقد أننا لا نستطيع أن نتنافس مع الشباب في الصين. هناك العديد من الأسباب. الشباب في الصين أكثر اجتهادًا من الشباب في تايوان. في تايوان نعتقد أن وضعنا سيزداد خطورة بعد ١٠ أعوام ... بالنسبة إليَّ، لا أعرف ما يمكنني القيام به في المستقبل. عليَّ أن أتخيل حياتي بعد عشر سنوات، لأن كل شيء سيتغير. ولكن بعض الناس يقولون إنه في الفترة بين عامَي ٢٠٠٨ و٢٠١٢، ستكون الحالة الاقتصادية في تايوان أفضل، ولكن بعد عام ٢٠١٢، سيواجه الوضع الاقتصادي تغيرًا كبيرًا. لست

متأكدًا مما تقوله المجلات أو الصحف عن هذا الموضوع، ولكن الكثير من الناس يعتقدون ذلك (طالب تايواني).

حسنًا، أظن أن هناك مجموعة صغيرة من الناس في المجر لديها أموال كثيرة، وأنه من الصعب جدًّا الانضمام لتلك المجموعة. لا أعتقد حقًّا أن هذا مصدر تهديد لأنني أعرف أن هناك مثل هذه المجموعة التي تمتلك الحصة الأكبر من الأموال في جميع البلدان. ولكنني أعتقد أنه ليس من المستحب ألا تتسع هذه المجموعة. أنا شخصيًّا لا أشعر بالخوف على مستقبلي؛ فالصفة الجيدة في المجر هي أن أصحاب المهارات ومن يستطيعون توظيف قدراتهم يستطيعون أن يؤسسوا مشروعاتهم الخاصة. أعتقد أنه من الممكن أن أبني حياة طبيعية في المجر. بالطبع يتعين على المرء أن يعمل كثيرًا، وأعتقد أنه على المدى القصير لن يكون لدى الناس إمكانية الرفع من شأنهم، ولكن على المدى الطويل ومع الكثير من العمل سيصبح هذا في وسعهم. ما أجده ظلمًا هو، على سبيل المثال، أن يعمل الشخص لمدة سنتين أو ٣ سنوات ولا يصبح قادرًا على أن يشتري ولو شقة صغيرة جدًّا؛ لذا أشعر بالتفاؤل فقط على المدى الطويل جدًّا، وذلك بعد ١٠ أو ١٥ عامًا (طالب مجري).

في واقع الأمر، أشعر ببعض التشاؤم بالنسبة إلى تايوان وسائر دول العالم؛ لأنه يبدو أن الأسعار في ارتفاع كبير في الوقت الحاضر في تايوان. وأنا أعلم أن ارتفاع الأسعار يمثل مشكلة كذلك في جميع أنحاء العالم بسبب ارتفاع أسعار النفط؛ لأننا نعتمد كثيرًا عليه. لا يمكننا أن نحيا من دون النفط؛ ولذلك أشعر بأنني متشائم قليلًا فيما يتعلق بالمستقبل في خلال العشرة أو العشرين عامًا القادمة (طالب تايواني).

لا أعرف. آمل، ولكنني حقًّا لست متفائلًا. أنا حقًّا لا أعرف. في الواقع، أحاول أن أتجنب التفكير في ذلك. أحب أن أعيش هنا في الواقع، ولكنني أعتقد أنني أحب العيش هنا لأنني أيضًا لم أَعِشْ في أي مكان آخر. ولكنني لا أعرف. ربما في يوم من الأيام عندما يكون كل هذا ... لكنني لا أعرف، الوضع السياسي الموجود الآن هو كما كان من مائة سنة مضت، هناك أشياء متشابهة جدًّا؛ إذن فالأمر يتعلق بعقليتنا. لا يجيد الشعب الكرواتي تصور الصورة الأكبر؛

فنحن نرى فقط ما هو ماثل أمامنا، وهذه هي مشكلة السياسيين الكروات. إن نواياهم حسنة، ولكن بعضهم يقاتلون فقط من أجل أشياء غبية صغيرة ولكن لا يمكنهم رؤية الصورة الكبيرة. أنا لا أعرف ما سيأتي بعد ذلك. لا أعرف. أعتقد أن الجميع يسعى إلى تحويل عالمهم الصغير إلى عالم أفضل، وأنا أحاول أن أفعل ذلك. أحاول أن أفعل شيئًا يمكنني التمتع به أو شيء من هذا القبيل، ولكنني لا أتصور الصورة العامة المقبلة في عشر سنوات؛ ولذا فسوف نرى ذلك معًا، لا أعرف (طالب كرواتي).

يتوقع البعض أن أكبر نظامين من أنظمة القوة في العقد المقبل سيكونان الصين وأمريكا. هناك بعض الحركات المعادية للولايات المتحدة وبعض الحركات المناهضة للصين. ومع ذلك، تعتمد تايوان كثيرًا على هذين النظامين القويين. منذ عام ١٩٥٠ وحتى الآن، حقق اقتصاد تايوان بعض النتائج الجيدة. لقد حان وقت تفكير الشعب التايواني في بعض الطرق المستدامة أو البديلة للاستمرار في التقدم. ومع ذلك، حيث إن الصين انفتحت الآن، فلا تفكر تايوان في كيفية التحديث للحفاظ على اقتصادها أو بيئتها، بل تكتفي بالتحول نحو الصين فقط لأن لديها الأيدي العاملة الرخيصة؛ لذلك ليس عليهم التفكير في هذه المشكلة (طالب تايواني).

لن يكون جيلي قادرًا على إحداث أي تغيير يُذكر. لن تبقى ظروفنا الاجتماعية كما هي بالنسبة إليَّ بعد مرور عشرين عامًا. إذا كان لديَّ صديق غني، فسيزداد ثراءً بعد عشرين عامًا، وإذا كنت أنا فقيرًا، فسأكون أكثر فقرًا بعد مرور عشرين عامًا. سيُمنع عني الكثير من الأشياء التي أريد فعلها خلال العشرين عامًا، سواء كان ذلك جيدًا أو سيئًا. لن يكون الوضع أسوأ فحسب، بل أعتقد كذلك أنه سيكون تحت سيطرة عدد أقل. لست متفائلًا، ولكنني أعتقد أنه من الأفضل أن نفكر بهذه الطريقة، حتى لا نشعر بخيبة أمل عندما نضطر إلى مواجهة الأمر، بسبب اعتقادنا بأن المستقبل سيكون أفضل (طالب كولومبي).

ليس لديَّ أفكار إيجابية حول المستقبل، وخصوصًا عندما نواجه صعود الصين ووضع أمريكا، وعلاقة تايوان وأمريكا. الشيء الأكثر أهمية هو الانقسام

السياسي، والفارق الكبير بين الكتلتين السياسيتين الكبيرتين. يميل الناس إلى أحد طرفي النقيض، إما إلى الاستقلال، وإما إلى الانضمام إلى الصين ... بالنسبة إلى عامة الناس، ليس لديهم فرصة كبيرة أو خبرة كافية لفهمٍ أفضل للأمور (طالب تايواني).

في كولومبيا، أعتقد أن الأمور ستبقى على ما هي عليه. لا أعتقد أنها سوف تزداد سوءًا، وآمل ألا تزداد سوءًا. ولكنني لا أعتقد بالضرورة أن هناك أي اهتمام بالأمر؛ لأنني أظن أننا وصلنا إلى النقطة حيث يركز الناس اهتمامهم فقط على هذه القضية وحدها؛ ولذا فما هو ظاهر أمام عيون معظم الناس هو أن هناك تطورًا في هذا الجانب، في القضاء على جماعات حرب العصابات هذه. ولكن كما قلت، لا يتم التطرق إلى القضايا الاجتماعية. بهذا المعنى، أشعر أننا سنظل كما نحن. ربما لن يُعاد انتخاب هذا الرئيس، ولكن شخصًا مثله سيُنتخب؛ لأن الناس يحبون حقًّا ما يفعلونه. أشعر أننا سنبقى في نفس المنطقة؛ فالناس تركز اهتمامها على قضية واحدة، وينسون أن المجتمع ليس مجرد هذه القضية الواحدة. إن مصدر المشكلات في البلاد هو الهيكل الاجتماعي؛ فالأمور لا تنجح بسبب وجود الكثير من التمييز. هناك من يعملون باجتهاد حقيقي ولا يحصلون على أي شيء. يجب تغيير الهيكل الاجتماعي تغييرًا كبيرًا حقًّا ليكون بالإمكان أن نُحْدث حتى ولو تغييرًا بسيطًا (طالب كولومبي).

من خلال استطلاع آراء من يحيطون بي، أعتقد أننا متفائلون إلى حدٍّ ما. لا يعرف الجميع حتى الآن ما سيفعلونه بعد ذلك، ولكننا متأكدون من أننا سنعمل على شيءٍ ما (طالب ألماني).

أنا لا أعرف الجيل على نطاق واسع، بل أعرف فقط مَن هم على علاقة بي، وغالبيتهم لا يمتلكون رؤية متفائلة حول المستقبل. ولكن على الرغم من ذلك فهم لا يهتمون حقًّا بالمشكلات التي ستحدث خلال عشر سنوات أو شيء من هذا القبيل. حسنًا، يتساءل العديد من أصدقائي كيف سيمكنني شراء شقة؟ أو كيف أكوِّن أُسرة وأوفِّر لهم ما يكفيهم؟ ولكن في الحياة اليومية لا أرى

هذا التشاؤم، فقط عند التحدث عن بعض الأمور أرى أننا لسنا متفائلين جدًّا، لكن في الحياة اليومية لا يظهر ذلك (طالب مجري).

من ناحية، هناك بالتأكيد هذه الفكرة المتشائمة بأننا لا نملك أن نفعل الكثير. الفكرة التي تقول بأن الازدهار الاجتماعي الذي ميز الخمسينيات والستينيات حتى الثمانينيات من القرن العشرين لا يستطيع الاستمرار لفترة طويلة، وأنه كان يقوم في الواقع على استغلال البلدان الأخرى اقتصاديًّا، وأن كل هذا لم يَعُد من الممكن أن يستمر في مرحلةٍ ما (طالب ألماني).

هناك أناس [نشطاء] يكتبون كتيبات صغيرة. هناك مجموعة صغيرة جدًّا من الناس الذين يقرءون ما ينشره هؤلاء. إنها نفس المجموعة من الناس. لا أعتقد أن هناك آخرين يحاول هؤلاء النشطاء الوصول إليهم؛ ولذا فهم مجرد مجموعة مغلقة من الناس. ربما يزداد العدد سنويًّا؛ لأن هناك أناسًا في الجامعة، على سبيل المثال طلاب قسم علم الاجتماع الذين هم الأكثر وعيًا بأشياء من هذا القبيل ويحصلون على مثل هذه الكتيبات أو المطبوعات أو الصحف أو المجلات، ولكن أعتقد أن عدد الأشخاص الذين يقلعون عن قراءة هذه المطبوعات يتساوى مع عدد هؤلاء الذين ينضمون لقراءتها؛ لأنهم يرون أن كل شيء على ما يرام، وأنه لا توجد فائدة، وأن عليهم أن يسعوا فقط لكسب رزقهم، وعليهم فقط أن يتوافقوا مع الأمر الواقع، حسب ما أعتقد (طالب كرواتي).

لست متفائلًا في واقع الأمر. هناك شعور بخيبة أمل، هذا ما كنت أتحدث عنه، وهو أمر مخيف بعض الشيء بالنسبة إليَّ. إلى ماذا وأين سيفضي ذلك؟ هناك عدة احتمالات لما يمكن أن يحدث. أنا لست متفائلًا. عندما أنظر حولي، أرى أُناسًا مدمرون بالفعل. لم يَعُد لديهم ما يكفي من المال للعيش، وليست لديهم خطط مستقبلية مقنعة بالنسبة إليهم؛ ومن ثَمَّ أعتقد أنه خلال خمس سنوات سوف يؤدي هذا إلى حدوث شيء جذري …

هناك قوًى متوارثة أساسًا من الاشتراكية؛ إذن فخيبة الأمل هذه ليست ناتجة عن الرأسمالية وحدها، أو الصورة المجرية منها، ولكن خيبة الأمل المتعلقة بكيفية رؤية المجريين لأنفسهم؛ كيفية عمل النظام الجديد، وكيفية

افتقاره إلى العمل كذلك؛ لذلك أعتقد أنه في المجر هناك العديد من الخطوات التي يتعين اتخاذها لتصبح ما يسمى بالدولة الغربية. ولكن لا أستطيع أن أكون متفائلًا، هناك جروح عميقة في الداخل وليس من السهل تجاوزها، ربما يحدث في جيل آخر، ربما في جيلي أو الجيل التالي؛ لذلك أعتقد أننا يمكننا أن نصنع بلدًا جديدًا، ولكنني أعتقد أن جميع الشباب يقولون إنهم يودون ذلك. ولكن أنا مقتنع بأن جيلنا مختلف؛ ولذا فأنا متفائل. ولكن فيما يتعلق بالنظام الحالي، هذا النظام، فأنا لا أشعر بالتفاؤل تجاهه (طالب مجري).

في توقعاتي الأقل تشاؤمًا ما زلت أقول إن مثل هذه الدولة الشمولية والنظام الشمولي سيبقيان، وكذلك التسلط، وحتى لو كان تأثير شكل الديمقراطية الخاص بأمريكا سيسود، فلا يمكننا أن نعرف نتيجة ذلك في بلادنا. قد يتسبب هذا في مشكلة كبيرة، ولا أحد يعرف ما هي الآثار التي ستترتب على ذلك (طالب روسي).

كيف ترون المستقبل في روسيا؟

«مرة أخرى، ليس لدي أي فكرة. أفضِّل عدم التفكير في الأمر.»

لماذا؟

«لأن هذا النوع من الأفكار يمكن أن يكون مزعجًا، وأساسًا لا أرى أي فائدة منه. لا يمكننا التنبؤ بالمستقبل. ما من شأنه أن يحدث سيحدث. قد تعتقد أنني روسي قدري نموذجي في هذا الصدد! [يضحك] (طالب روسي).»

(٤) دراسات حالة جغرافية حيوية

قد يبدو ما عرضناه أعلاه من أفكار وآراء ومزاعم حول العالم تعسفيًّا ودون هدف. ماذا عن مزاعم من لم نَذْكرهم هنا؟ أهم من ذلك، هل استطاع أي رأي مما تم التعبير عنه حول أيٍّ مِن هذه النقاط من جانب أيٍّ مِن الستين طالبًا أن يعبِّر بحق عن وجهة نظر الجيل العالمي ككل إزاء العالم؟

تتمثل قيمة المقابلات النوعية المطولة في أنها تدخل الرواية في القضايا قيد المناقشة. لقد علمنا من النظر في المقابلات الفردية ككلٍّ الكثيرَ عن وجهات نظر هؤلاء الطلاب

والوضع الاجتماعي والسياسي للدول التي يعيشون فيها. هذه الروايات الفردية سمحت لنا أن نرى طرق الجمع بين الخطاب والأيديولوجية لتشكيل تصورات التحولات والتغيرات الاجتماعية الأكبر. لقد تحدثنا أعلاه عن التعامل مع هذه المقابلات بوصفها نصوصًا أدبية؛ شكلًا من أشكال النظر للعالم الذي يلفت الانتباه إلى تمثيل استجابات الطلاب بالإضافة إلى محتواها. وبغية تقديم المزيد من التفاصيل حول الجيل الذي التقيناه، نود أن ننهي هذا العرض بثلاث دراسات حالة جغرافية حيوية، وهي روايات للذات والمكان، والتي سوف تساعد على تحديد سياق التعليقات المعروضة أعلاه وإطارها. وعلى النقيض من سلسلة وجهات النظر المتشائمة المعروضة أعلاه، نقدم ثلاث وجهات نظر أقل سلبية صادفناها، وسردًا لردودها على القضايا التي أثارتها أسئلتنا. (لقد اختلقنا أسماء الطلاب المذكورة هنا.)

(٤-١) الطالبة الديمقراطية الاجتماعية: كرواتيا/بترا

بترا طالبة تبلغ من العمر ٢٥ عامًا وحاصلة على درجة علمية في علم الاجتماع. وبوصفها أكاديمية طموحة، قدمت بترا ردودًا دقيقة وحذرة على الأسئلة التي طرحناها. إنها ديمقراطية اجتماعية تقليدية. وعندما طُلب منها وصف بعض المشكلات التي تواجه كرواتيا، أشارت إلى الاقتصاد، وتحديدًا عدم وجود فرص عمل وانعدام الأمن المالي الذي يشعر به الناس نتيجة لذلك. ومع ذلك، قالت كذلك إن هناك مشكلة أكثر تجريدًا؛ وهي: «تطوير ثقافة مدنية، حتى يشعر الناس حقًّا بأنهم جزء من مجتمع ديمقراطي، وليسوا جزءًا من الدولة فحسب.» تستطيع بترا التحدث بلغة الناتج المحلي الإجمالي، وصندوق النقد الدولي، والاستثمارات المالية، وأسعار الأسهم، لكنها عادت مرة تلو الأخرى أثناء مناقشتنا إلى ضرورة وجود ضمان اجتماعي وحقوق اجتماعية، بما في ذلك زيادة فرص الحصول على التعليم، والرعاية الصحية، والخدمات العامة الأخرى. تقول: «إن السياسة بالنسبة إليَّ تعني أن جميع الأطراف يتشاركون في وضع أفضل السياسات الممكنة للمواطنين في البلاد. إلا أن الأحزاب السياسية لا تزال تقود معظم الأمور، والقطاع غير الحكومي وقطاع التعليم والعلم لا يزالان غير مشارِكَين في وضع السياسات والسياسة بالنسبة إلى البلد ككلٍّ.»

وكما كان الحال بالنسبة إلى العديد ممن قابلناهم من البلاد التي تمرُّ بمرحلةٍ ما بعد الشيوعية (كرواتيا والمجر وروسيا)، امتد هذا الإحباط للحدود السياسية لعالمٍ ما بعد

عام ١٩٨٩ ليشمل النظام الاقتصادي كذلك. ترى بترا أن ظهور الرأسمالية في كرواتيا ليس أكثر من «ذريعة للسرقة». كانت فترة إعادة توزيع الأصول المملوكة للدولة خلال التحول من الشيوعية إلى الرأسمالية فرصة للنخب السياسية للتأكد من أن أصدقاءهم وزملاءهم سيخرجون من المرحلة الانتقالية هذه وهم غير خاسرين. بالنسبة إليها، كان غياب مجتمع مدني فاعل في كرواتيا في الوقت الحالي وعدم وجود نظام اقتصادي يعمل لصالح الناس ككل لا يعدان مبررًا لاتهام الرأسمالية الديمقراطية في حد ذاتها. أما أملها بالنسبة إلى كرواتيا فهو أن تطوِّر نظامًا «رأسماليًّا أفضل»، كما هو الحال في الدول الاسكندنافية.

إن الشكل النموذجي لرؤية الطلاب لأمريكا — وصف السلوك الأمريكي على مستويات متعددة، وتقييم آثاره، وتقييم ردود فعل الناس في جميع أنحاء العالم — كان متمثِّلًا في ردود بترا. قالت بترا إن معظم الكروات يظنون أن «الأمريكيين أغبياء» (وهي العبارة والشعور اللذين سمعناهما كثيرًا في المقابلات التي أجريناها في كرواتيا). وتقول بترا إنها سمعت هذا من أساتذتها كذلك: «بنحو أساسي، كانوا يقولون إن الأمريكيين أغبياء؛ فهم بدائيون، وعدوانيون، ولديهم طموحات إمبريالية.» وقالت إنها ترى في ذلك خطأً: «فكرة الناس عن الولايات المتحدة خاطئة تمامًا. يرى الناس الولايات المتحدة بنحو أساسي من خلال منظور السياسة الخارجية الأمريكية، لسوء الحظ، وفي كثير من الأحيان، الثقافة الشعبية الأمريكية — المغنية بريتني سبيرز وما شابه — وهذا المنظور سطحي جدًّا. أنا لا أعتقد أن هذا يمثل أمريكا.»

أرادت بترا أن تضيف المزيد من الحيوية قدر الإمكان إلى هذه الصورة الأولى، الأبيض والأسود، للولايات المتحدة. تقول: «من الصعب حقًّا أن نتحدث عن أمريكا بوصفها كيانًا واحدًا.» وأعربت بترا عن رفضها لما تظنه تجاوزًا في رؤية الولايات المتحدة «الأخلاقية» لنفسها؛ حيث ترى أمريكا أنها أفضل مكان ممكن على هذا الكوكب؛ ومن ثَمَّ فهي مكلفة بمهمة توجيهية عالمية لنشر أنظمة الحياة خاصتها في جميع أنحاء العالم، من خلال أي وسائل تقتضيها الضرورة: تقديم منح دراسية للدراسة في الولايات المتحدة، وإرسال بعثات تبشيرية دينية لإضافة من يغيرون دينهم إلى رعاياها، واستخدام قوتها العسكرية ونفوذها السياسي، وما إلى ذلك. في الوقت نفسه، أعربت عن امتنانها لما فعلته الولايات المتحدة لكرواتيا في أعقاب حرب البلقان (على سبيل المثال، تقديم المعونات والمساعدات الإنمائية فيما يتعلق بإعادة بناء البنية التحتية). وهي معجبة بعمق وقوة المجتمع المدني

في الولايات المتحدة، والذي تجد أنه ينقص كرواتيا: «هناك الكثير من المنظمات الشعبية في الولايات المتحدة، والكثير من المؤتمرات والكثير من المظاهرات، والكثير من النشاط.» وتمتلك بترا طموحات أكاديمية تعتقد أنها يمكن أن تحققها على أفضل نحو في الولايات المتحدة. وقد عادت إلى مناقشة مميزات النظام الجماعي الأمريكي مرارًا وتكرارًا — من صرامة، ومعايير عالية، وروح جدارة — على النقيض من النظام الجامعي في وطنها، الذي وصفته بأنه رسمي أكثر من اللازم، ومنغلق، ويخاف من العالم الخارجي.

كانت بترا تشعر بالقلق حيال تدخل الولايات المتحدة في العالم اقتصاديًّا وسياسيًّا وعسكريًّا. ولكن التأثير الثقافي للولايات المتحدة لم يبدُ لها على هذا القدر من الأهمية، سواء في كرواتيا أو في أوروبا. تتشكل التفضيلات الثقافية «للناس العاديين» من خلال أفلام ومسلسلات الولايات المتحدة. ومع ذلك، أشارت إلى العديد من الخيارات الثقافية الأخرى للكروات المستقاة من كلٍّ من أرشيفهم الناشئ الخاص بالكتب والأفلام والبرامج التليفزيونية، وأيضًا من المدخلات الثقافية من أوروبا. وأعربت عن اعتقادها بأن التعبير الثقافي في الولايات المتحدة كان صادقًا أكثر من اللازم، في حين وضعت الثقافة الأوروبية مسافة تولِّد طرقًا مختلفة للوجود والتصرف:

> لا تقف الثقافة الشعبية الأمريكية على مسافة ساخرة من نفسها، الأمر الذي تتصف به ثقافة الشعبية الأوروبية على ما أعتقد. لا توجد مفارقات في الولايات المتحدة؛ فهُم يتصفون بالنقاء والسذاجة الشديدين في كلِّ ما يفعلونه، وما يصورونه، وما يغنونه. إن هذا، بطريقةٍ ما، يبعث على الخوف، أن نرى هذا النوع من ... الناس ليسوا ... إنه أمر لا يصدق. أعتقد أن هذا شيء لا يروق للشباب. إن أحد أنواع الفكاهة الأساسية في كرواتيا، لا سيما بين الشباب، هو أن تسخر من نفسك، وحياتك ومجتمعك، وهم لا يرون ذلك. عندما ترى طلابًا أمريكيين في حفل، فلن ترى أيًّا من هذا ... يبدو الأمر مضحكًا، يبدو مضحكًا لأنهم جادون جدًّا حول شرب الكحوليات ليصلوا إلى مرحلة السكر.

ترى بترا أن الحديث عن معاداة أمريكا أكثر إثارة للاهتمام من تناول العولمة بالحديث. وكان جزء من السبب هو تركيز طاقاتها واهتمامها نحو بلدها وفرصه المستقبلية. في حين رأى العديد من أقرانها أن هناك ندرة في التعبير السياسي بين الشباب، والذي أشارت إليه هي نفسها في التعليقات الافتتاحية حول عدم وجود ثقافة مدنية

نشطة، قالت أيضًا إن الفترة التي تلت أحداث ١١ / ٩ أعادت النشاط للسياسة. هناك الكثير من النقاط فيما يتعلق بمعاداة أمريكا تزيد الأمور سوءًا ويمكن أن تؤدي إلى أخطاء في كيفية التفكير، ليس في الولايات المتحدة فحسب، بل العالم بأسره. ولكن تعتقد بترا كذلك:

> يمكن لهذه الطاقة المعادية للولايات المتحدة أن يكون لها تأثير إيجابي جدًّا على تحريك وعي الناس بالسياسة. يدرك الناس أكثر فأكثر أنهم قد يجدون أنفسهم في مثل هذا الوضع؛ إذا كانت بلادهم تفعل أشياءَ من هذا القبيل، فماذا سيفعلون؟ أعتقد أن الناس يصبحون أكثر ميلًا للمشاركة في الحياة السياسية وأكثر وعيًا بهذا الموضوع. إذا كنا بصدد إرسال قواتنا إلى العراق، فسيرفض الناس.

إحدى النتائج الإيجابية العديدة للمشاعر المعادية للولايات المتحدة إمكانية انتخاب باراك أوباما، التي من شأنها أن تعكس صدمة أوروبا الكبيرة في إعادة انتخاب جورج دبليو بوش. إذا تم انتخاب أوباما، «فسيكون أمرًا رائعًا … إنه سيكون مقيدًا لأن لديه الكثير من الأمور التي عليه أن ينظر فيها، ولكنني ما زلت أعتقد أن السياسة الخارجية الأساسية ستتغير، وستكون أكثر احترامًا لغيرها من الثقافات والبلدان، والسياسات والسياسة والشعوب.»

يبدو المستقبل القريب لكرواتيا صعبًا، ولكن ماذا عن المدى الطويل؟ بالنسبة إلى بترا، يبدو المسار واضحًا. لا تقدم الدول الاسكندنافية أفضل شكل ممكن للحكومة فحسب، ولكن ليس هناك إمكانية أخرى للنظر فيها. تساعد الحكومة النشطة والمجتمع المدني القوي (المنظمات غير الحكومية وجماعات الضغط وأصحاب المصلحة من مختلف الأنواع) على تهذيب الحواف الحادة للرأسمالية. تتعامل بترا مع هذه العناصر المكونة (الحكومة، والمجتمع المدني، والرأسمالية) بوصفها عناصر مستقلة بعضها عن بعض، كما لو كان يمكن للمرء أن يتخيل عمل اثنين منها حتى لو كان الثالث معطوبًا. لو كان لدينا زعيم مثل باراك أوباما في وطننا، لسارت الأمور على نحو أكثر سلاسة؛ إذا كان لدى الولايات المتحدة مثل هذا القائد، فسيكون قادرًا على ضمان حُسن سلوك أمريكا، على الأقل إلى أقصى درجة ممكنة بالنظر إلى كل تلك المصالح التي قد تعوق أهدافه التقدمية وتقيده.

(٤-٢) الطالب غير المستاء: تايوان/تشي-شيان

أبدى الطلاب الذين حاورناهم من تايوان مواقف عاطفية مماثلة تجاه بلادهم، والولايات المتحدة، والعولمة، والمستقبل مثلهم مثل الطلاب الذين أجرينا معهم مقابلات من الدول الخمس الأخرى. ولكن، من الواضح تمامًا أن مرجعياتهم كانت مختلفة. كان أهم تلك المرجعيات علاقة تايوان بالصين والولايات المتحدة واليابان. أجرينا مقابلات في تايوان في أعقاب انتخاب الرئيس التايواني ما يينج-جيو، مرشح حزب الحزب القومي الصيني (الكومينتانج) في مارس عام ٢٠٠٨؛ حيث حقق انتصارًا كبيرًا على منافسه من الحزب التقدمي الديمقراطي. حاول الحزب التقدمي الديمقراطي إقناع الناخبين بأن فوز الحزب القومي الصيني سيعيد تايوان إلى ماضيها الاستبدادي ويقوض استقلالها عن الصين. ولكن مع وجود صورة البطالة والتضخم حاضرة في أذهان الجميع، كان لهذه الرواية الخاصة بالحرب الباردة تأثير بسيط. بالإضافة إلى ذلك، كلما اندمجت الصين في النظام الرأسمالي العالمي قلَّت أهمية مثل هذه المخاوف السياسية الرجعية. وبالمثل، يبدو أن الأدوار التي لعبتها اليابان (تحت مسمى المستعمر «الجيد») والولايات المتحدة (تحت مسمى القوة العظمى «الجيدة») ساعدت أيضًا على تغيير السيناريو الجديد.

لم يملك الطالب التايواني تشي-شيان إلا أن يمرر جميع إجاباته من خلال عدسة اقتصاد بلده الواهي. بعد ذكر كيف أن عددًا كبيرًا من أصدقائه عاطلون عن العمل (حتى بعد تخرجهم في الجامعة وحصولهم على تقديرات عالية)، اعترف بأن الصين تمثِّل في آنٍ واحدٍ السببَ والحلَّ المحتملَين للمشكلات الاقتصادية الحالية في تايوان.

> بعض أقاربي ذهبوا لتوِّهم للعمل في الصين؛ لأن فرص العمل هناك أكبر منها في تايوان. يقول بعض الناس بأن الصين سوف تسيطر على تايوان بسبب الاقتصاد والوظائف التي تقدمها … وقد وعدَنا الرئيس الحالي بأنه سيكون هناك تعاون مع الصين دون أن نفقد استقلالنا. أعتقد أن هذا هو ما يأمل الناس في تحقيقه.

كما أشار تشي-شيان إلى أن الاقتصاد الرأسمالي الناجح في تايوان في نظره ليس الناتج المحلي الإجمالي أو حتى القوة العسكرية، بقدرِ ما أطلق عليه «رأس المال الثقافي».

> لديَّ طلاب وأصدقاء هنا يحاولون أن يجدوا طريقة لإنتاج أفلام تايوانية أكثر؛ أعتقد أن هذا النوع من رأس المال الثقافي سيكون أحد أهم العناصر بالنسبة

إلينا للتعريف بتايوان. إنها قضية مهمة جدًّا لأنك يمكن أن ترى الصراع بين الجماعات الثقافية المختلفة هنا بسبب أننا لا نمتلك صورة واضحة عما تعنيه تايوان في واقع الأمر.

وقد رأى تشي-شيان أن هناك تناقضًا بسيطًا في الجمع بين التأثيرات الخارجية الرئيسية الثلاثة على المجتمع التايواني: التعاون الاقتصادي مع الصين (مما يتيح المزيد من فرص العمل)، والتعاون السياسي مع الولايات المتحدة (مما يعزز توفير المزيد من الحريات الفردية)، والتعاون الثقافي مع اليابان (مما يعزز ثقافة شعبية معترف بها عالميًّا، مثل الإنجازات اليابانية في مجال الرسوم المتحركة وموسيقى البوب).

لا يجب أن يبدو هذا المزيج من القوى التي تبدو متعارضة مفاجئًا إذا تَذكَّرنا، على سبيل المثال، أن الشكوك حول الإمبريالية الثقافية التي تم التعبير عنها في العديد من الأماكن التي تعمل على إنهاء الاستعمار، أو التي دخلت مرحلةَ ما بعد الاستعمار في جميع أنحاء العالم، كانت أقل وضوحًا في تايوان واليابان وكوريا الجنوبية؛ فمع وجود أيديولوجيات أقل قوة من الفردية والأصالة، يمكن للعلامات التجارية الغربية أن تحصل على اعتماد فوري من رجال الأعمال المحليين بحيث ينظر إلى أشياء مثل ديزني لاند أو ماكدونالدز بوصفها تايوانية بقدرِ ما هي أمريكية. وحول هذا الموضوع، يشرح تشي-شيان أن متجر مثل ٧ / ١١ في تايوان يعد أقرب إلى النموذج الياباني الذي يقدم جميع أنواع الخدمات المساعدة (من تلك الخاصة بمكتب البريد وحتى الخاصة بالبنوك). وقد دفعت هذه اللامبالاة تجاه ما يسمى عادة بـ «الأمركة» تشي-شيان إلى ذِكْرِ أنه لا يعلم بوجود حركات نقدية ضد الثقافة الأمريكية أو أي حركات لمعاداة أمريكا في البلاد.

أما بالنسبة إلى الأنشطة المناهضة للعولمة التي ظهرت في جميع أنحاء العالم منذ أحداث سياتل عام ١٩٩٩، أبدى تشي-شيان قليلًا من الاهتمام بها. يقول: «بالنسبة إلينا، لا يتعدى ذلك كونه مجرد خبر أو قصة تناقلتها وسائل الإعلام.» أما بالنسبة إلى العولمة بنحو أعم، فيقول: «لا يمكننا مقاومتها في حياتنا اليومية؛ علينا فقط أن نتقبل سيادة العولمة.» عندما وصلنا إلى نقطة المستقبل (مستقبل تشي-شيان الشخصي، ومستقبل تايوان، ومستقبل العالم)، بدا أن لهجته تغيرت:

أنا غير متأكد الآن. بالنسبة إلي، أنا غير متفائل بشدة بالمستقبل، وخصوصًا عندما نواجه صعود الصين ووضع أمريكا، فضلًا عن العلاقات بين

> تايوان وأمريكا. الشيء الأكثر أهمية هو الانقسام السياسي؛ الاختلاف الكبير بين الكتلتين السياسيتين الكبيرتين [الحزب القومي الصيني والحزب التقدمي الديمقراطي]. يتجه الناس إلى طرفي النقيض: إما إلى الاستقلال عن الصين وإما إلى علاقات أوثق معها. إنه وضع خطير، ويتم ذلك عن طريق التلاعب السياسي. بالنسبة إلى عامة الناس، ليس لديهم فرصة كبيرة أو خبرة كافية لفهمٍ أفضل للأمور. أشعر بالقلق. بوصفي طالبًا، لست متفائلًا؛ ولكن بوصفي مدرسًا، فلا يزال هناك ما يمكنني القيام به. ما زلت سعيدًا جدًّا برؤية الحركات المستمرة، مثل هؤلاء الذين يدعون إلى زيادة نسبة العمالة أو حماية العاملات في مجال تجارة الجنس. هناك الكثير ممن يقومون بدورهم لمساعدة مجتمعنا، الذين يعملون لتحقيق الوئام الاجتماعي في تايوان. الشيء الآخر المهم هو الحرية والديمقراطية. غالبًا ما ترتبط الحرية بأمريكا، ولكننا في تايوان، لا تزال لدينا حرية المناقشة. من المهم بالنسبة إلينا تأسيس مجتمع حيث يمكننا أن نحظى بحوار أكثر عقلانية بين الأشخاص المختلفين. أنا متفائل بشأن هذا الجانب. لا تزال تايوان تتمتع بالحرية والديمقراطية.

اللافت للنظر هنا هو الاعتراف بالهياكل السائدة، إن لم يكن الخضوع لها أيضًا، ولكنه اعتراف لا يتصف باللامبالاة أو قلة الاكتراث. وفي الوقت نفسه، يبدي تشي-شيان القليل من الحماس السياسي أو المشاعر القوية تجاه أيٍّ من الموضوعات التي ناقشناها. يتحول إدراكه للعالم إلى قبول بطبيعة الأمور، الذي نادرًا ما يضطرب بسبب شعور متكرر بالأمل أو اليأس. أما ما نجده لافتًا للانتباه بوجه خاص في حالته، فهو الرغبة المستمرة في المعرفة والمشاركة في العالم (سياسيًّا وثقافيًّا)، في حين أنه لا ينتج عن ممارسة هذه الرغبة الكثير من المتعة أو اليأس. يأتي دافع تشي-شيان دون أي توقعات في المقابل؛ يقدم هذا نموذجًا ممتازًا للسياسة الراديكالية؛ أي السياسة الخالية من الاستياء.

(٤-٣) الطالب المتفائل: ألمانيا/كلاوس

كان الطلاب الذين أجرينا معهم مقابلات في ألمانيا هم من أظهروا أكبر قدر من الإيمان بالمستقبل. رأى كلٌّ منهم أن مستقبله حافل بمختلف الإمكانات وفرص الانفتاح؛ فهو

فرصة يجب اغتنامها أكثر منه تحديًا أو عقبة يجب التغلب عليها. ماذا عن مستقبل ألمانيا ككل؟ أعرب جميع الطلاب عن عدم ارتياحهم لتبنِّي رواية قومية، ورأوا أن المستقبل يحمل بين طياته إحلال أوروبا محل ألمانيا بوصفها مركزًا للانتماءات الجماعية. من وجهة نظرهم، لا يشعرون بأن هذا الأمر يعد خسارة، ولكنهم ينظرون إليه باعتباره تطورًا من شأنه أن يُنتج «المزيد» من الفرص بالنسبة إليهم (على سبيل المثال، سهولة السفر والعمل في المدن خارج ألمانيا).

كان كلاوس أحد الطلاب الأكثر ثقة وتطلعًا مِن بين مَن أجرينا معهم المقابلات. لقد عرَّف نفسه بأنه ينحدر من عائلة تنتمي إلى الطبقة المتوسطة العليا، وقال إنه تَخصَّصَ في الدراسات الإنجليزية والأمريكية والتاريخ الحديث. وعندما طلبنا منه تحديد بعض المشكلات الاجتماعية والسياسية الأساسية في ألمانيا في الوقت الراهن، أشار كلاوس إلى التحديات التي تمثلها الهجرة بالنسبة إلى المجتمع الألماني والأثر الاقتصادي للعولمة، وما تتضمنه من تهديدات محتملة لاستمرار وجود دولة الرفاهة الألمانية. كان كلاوس مدركًا لضرورة وحتمية زيادة مستويات الهجرة إلى ألمانيا (بسبب تراجع معدلات المواليد في البلاد).[12] بالنسبة إليه، كانت إحدى المشكلات الناتجة عن الهجرة هي أن الوافدين الجدد يميلون إلى أخذ مميزات من نظام الرعاية الاجتماعية أكثر من مقدار مساهمتهم فيه. وكان واضحًا أيضًا في نظرته أن مشكلات الهجرة ترتبط صراحةً بالعرق: «ليست لدينا مشكلات مع المهاجرين من فرنسا أو سويسرا، ولكن المشكلة تتعلق بالأتراك في المقام الأول ... للأسف ليست لدينا فسحة من النقاش المفتوح حول إن كان هذا سلوكًا عنصريًّا أم لا؛ حيث إن العنصرية في ألمانيا ربما تكون أكثر إثارة للجدل حتى مما هي عليه في الولايات المتحدة؛ نظرًا إلى تاريخنا.»

على الرغم من أن كلاوس قدم نفسه بوصفه ألمانيًّا يقدر أنشطة الدولة الألمانية، فإنه انزعج من المشاعر القومية الجديدة التي ظهرت في البلاد منذ بطولة كأس العالم لكرة القدم عام ٢٠٠٦.[13] عند مناقشة هتافات تشجيع المنتخب القومي، والتلويح بالعلم، ووضع الأعلام خارج المحال التجارية، كان من المهم بالنسبة إليه أن يشير إلى أن هذا لا يزال لا يمثل المشاعر القومية، ولكنه دعم لمجموعة من اللاعبين: «أعتقد أن بطولة كأس العالم أظهرت أن الألمان يريدون أن يرتبطوا ببلادهم، على الرغم من أنني لست متأكدًا إن كانوا يرتبطون بالعَلَم والبلاد أم الفريق الذي يرمز إلى البلاد، وأعتقد أن الفريق كان هو حقًّا ما يدعمونه وليس ألمانيا.» وخلال كأس العالم لكرة القدم لعام ٢٠٠٦، كان

أمرًا كاشفًا بالنسبة إلى كلاوس أن: «معظم المهاجرين الوافدين لألمانيا، الذين ليس لديهم ارتباط بالتاريخ الألماني، ولم يكن أجدادهم موجودين هنا، ومن ثم فليس لديهم أي اتصال تاريخي بألمانيا؛ ليس لديهم مشكلة في التلويح بعلمهم الألماني والإشارة به.»

تلعب القومية دورًا مثيرًا للاهتمام في ألمانيا؛ حيث يبدو أن المهاجرين «أكثر» قومية من أصحاب البلد؛ يزيد الانزعاجُ الذي يشعر به الكثير من الألمان مع تزايد أعداد المهاجرين صعوبةَ توظيف الرواية المعتادة الخاصة بالدفاع عن الوطن ضد الأجانب التي تقدمها القومية. على أي حال، يرى كلاوس أن هذه مشكلة مؤقتة فحسب:

> لا أظن أن القومية بمعناها التقليدي موجودة لدى الجيل الجديد ... أعتقد، كيف يمكنني أن أصيغ هذه العبارة، أن هناك فجوة بين الألمان في كيفية رؤيتهم لهذه الرموز القومية وكيفية ربطها بالدولة القومية؛ لأن ... جيلي نشأ بالفعل على فكرة أن أوروبا هي الكيان الأكبر وأنها شيء مثالي يجب أن نسعى جاهدين للعمل من أجله.

للعولمة دور في إدخال أوروبا إلى حيز الوجود: «إن أعظم أمنياتي هي أن تختفي من خلال عملية التوحيد الأوروبية الدولة القومية، وربما في يوم من الأيام نتحدث عن الأقاليم الثقافية ... ونظرًا لظهور العولمة، فقد أصبح لديك حافز آخر لتقول: حسنًا، إن العالم يتقلص ليصبح قرية، فلماذا لا ننضم معًا ونقول دعونا ننسَ الحدود لأنها غير ذات معنًى.»

بالنسبة إلى كلاوس، تعني العولمة ضغط المكان، واختفاء الحدود، والمنافسة العالمية النطاق في الأسواق. هذه هي التطورات الإيجابية، وليس فقط لأنها قد تؤدي إلى اختفاء الحدود بين دول أوروبا. يشير كلاوس إلى «أنها مصدر تهديد إذا نظرت إلى الجانب السلبي لها، ولكن ... هناك الكثير من الإمكانيات والفرص المتاحة لي، أكثر من تلك التي كانت متاحة لوالدي ووالدتي على سبيل المثال، وهذه هي الحقيقة.»

كان كلاوس يمتلك رؤية متوازنة للدور الذي تلعبه الولايات المتحدة في العالم. في بعض الأحيان، قد ينظر إليها على أنها أقرب إلى الإمبراطورية الرومانية: «قوة سياسية هائلة وحيدة تُحْكم قبضتها على كل الأشياء، ولكنها في نفس الوقت واقعة باستمرار تحت ضغط من أطراف تلك الإمبراطورية.» ولكن إذا كانت الولايات المتحدة تقوم بهذا الدور في يوم من الأيام، فهو يرى أن هذا في طريقه للانتهاء. ويتوقع كلاوس أن يشهد

القرن الحادي والعشرون نشأة قوًى جديدة، وتكون النتيجة أن «الشعب الأمريكي والثقافة الأمريكية والسياسة الأمريكية سيتعين عليها الاختيار بين عزلة جديدة وحل وسط جديد.» هناك معاداة لأمريكا في ألمانيا، وتنبع من حقيقة أنه بسبب أن الولايات المتحدة يبدو أنها تتدخل في كل شيء تقريبًا في العالم، فهي تتحمل الكثير من المسئولية عما يسير على نحو خاطئ كذلك. ولكن في حين أنه قد تكون هناك مشاعر معادية لأمريكا تجاه السياسات التي تنتهجها، وخاصة فيما يتعلق بالسياسة الخارجية، فإن مثل هذه المشاعر لا تمتد إلى الثقافة الأمريكية أو المجتمع الأمريكي ككل. يصف كلاوس جيلًا ذكيًّا ومتوازنًا للغاية في نظرته للولايات المتحدة. وبينما كان هو وأقرانه ينتقدون (على سبيل المثال) حرب الولايات المتحدة في العراق أو إقامة مركز الاعتقال في خليج جوانتانامو، كانوا يستفيدون من عمل الصحفيين والمدونين الأمريكيين لِيظلوا مطَّلِعين على ما يحدث في الحرب على الإرهاب، ووجدوا أن الأصوات الأمريكية التي تنتقد الحكومة الأمريكية مهمة للغاية. وكما هو الحال مع الغالبية العظمى ممن أجرينا المقابلات معهم، لا يُدين كلاوس وأقرانه الولايات المتحدة على نحو كامل. في الواقع، فقد أشار إلى أنه، بطرق عدة، من المرجح أن تلعب أمريكا دائمًا دور كبش الفداء العالمي بحكم مكانتها في العالم في الوقت الراهن. وفي حين أن هناك «الكثير من الانتقادات الموجهة للمؤسسات الأوروبية، فإن أوروبا ببساطة لا تلعب نفس الدور، فهي ليست على نفس القدر من الأهمية، وهي ليست كما تبدو، وليس تأثيرها كبيرًا في كل مكان. إن حقيقة صعوبة تورط الاتحاد الأوروبي ككل، على سبيل المثال، في شيء مثل العراق يجعل من الأسهل توجيه الأنظار إلى الولايات المتحدة.»

وماذا عن رؤيته للمستقبل؟ يشعر كلاوس بالتفاؤل تجاهه. فهو لا يعتقد أنْ ستكون هناك مشكلات جيوسياسية بنفس نطاق تلك التي كانت موجودة في القرن العشرين؛ إذ يعني الانتشار العالمي للرأسمالية أنه حتى دول مثل روسيا، و«ديمقراطيتها التي تشبه الديكتاتورية»، والصين سيكون لها حتمًا دورٌ لتلعبه وفقًا للقواعد الدولية. مهما كانت المشكلات التي قد تظهر، فهو لا يعتقد أنْ ستكون هناك أي مواجهة عسكرية بين القوى الكبرى. ويرى أن هذه المواجهات إذا كانت ستحدث فستكون على القيم، وستكون نقطة التوتر الرئيسية بين الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة. يقول:

> إن التحدي الأكبر الذي سيواجه أمريكا سيكون التعامل مع حقيقة أن أوروبا سوف ترتفع إلى وضع يساعد الرواية الأوروبية على تحدي الرواية الأمريكية

— الرخاء والحرية والتحرر — وستكون هناك رواية أوروبية قوية لنفس القيم تقريبًا، ولكن في شبكة اجتماعية أو مُثل اجتماعية مختلفة؛ أي دولة الرفاهة وما إلى ذلك. وأعتقد أنه يتعين على المجتمع الأمريكي أن يأتي بسرعة برموز جديدة ومقنعة إذا أراد الحفاظ على وضعه باعتباره منارة للحرية والتحرر وما إلى ذلك، حتى لا يتجاوزه الأوروبيون الذين سيكونون أكثر عقلانية وأكثر براجماتية حيال مُثلهم. قد يكون هذا هو التحدي الثقافي الأعظم بالنسبة إليهم.

في بداية حوارنا، أخبرنا كلاوس أنه أمضى سنة يَدْرس في مدينة أتلانتا الأمريكية حيث كان طالبًا في المدرسة الثانوية. بينما كان أساتذته يُعِدُّونه لتوقع الصدمة الثقافية الناتجة عن تجربة الانتقال من برلين إلى أتلانتا، وجد أن الانتقال كان سهلًا. وكما هو الحال في تجربته الشخصية في الانتقال من مدينة إلى أخرى، لا تمثِّل حركة العالم إلى المستقبل العديدَ من التهديدات أو المشكلات بالنسبة إليه؛ فهو يرى أن الديمقراطيات الموجودة بالفعل تمثل أفضل نظام سياسي ممكن؛ هذا النظام الذي شيد مبدأً أساسيًّا لنفسه (وهو الديمقراطية)، ويحاول أن يطبقه على الرغم من التحديات التي تواجهه على طول الطريق (كان المثال الذي قدمه هو تأثير المال على الانتخابات الأمريكية وعملية صنع السياسات)؛ فالمستقبل دائمًا أفضل من الحاضر، وكذا سيكون الحال بالنسبة إلى مستقبله أيضًا.

(٥) لا يمكن أن نصل إلى المستقبل من الحاضر

ما وجدناه مذهلًا حقًّا في هذه المقابلات هو الطريقة المباشرة، الصريحة، اللطيفة التي تَنَاوَل من خلالها الطلابُ مشكلاتِ العولمِة. ونرى أن هذا النوع من التناول عرضٌ من أعراض حدوث تحول رئيسي. عندما ظهر خطاب العولمة لأول مرة في بدايات تسعينيات القرن العشرين (عندما ظهرت كلمة «عولمة» باعتبارها السبيل المهيمن الذي يمكن من خلاله وصف تحولات القوة التي انبثقت بعد نهاية الحرب الباردة)، انقسم النقاش فورًا إلى معسكرين رئيسيين: من ناحية، كان هناك مَن يروِّجون للحداثة في كل شيء، ويَسْخرون من غير المؤمنين بها؛ وعلى الجانب الآخر ظهر المنكرون لذلك، الذين سَخِروا من المؤيدين لأنهم أغفلوا الحقيقة الواضحة بأن العالم المعاصر ما زال يعمل إلى حدٍّ

كبير بنفس الطريقة التي عمل بها طوال السنوات المائتين الماضية. كان هذان المعسكران المتعارضان يشتركان في افتراض أن المستويات المختلفة للنظام العالمي قد تغيرت، أو لم تتغير، معًا. وبعبارة أخرى، كان هناك رأي إجمالي يشير إلى تشابك المستويات الثقافية والاقتصادية والسياسية بحيث أصبح يُرى أن كلًّا منها يتحرك بنفس سرعة الآخرين؛ على سبيل المثال، كان لا بد من ارتباط الفكرة القائلة بأن قوة الاقتصادات الوطنية بدت باهتة بالمقارنة بما تحقِّقه الشركات المتعددة الجنسيات، بتلك التي تقول بأن الهويات القومية كانت تضعف مع صعود الهويات العابرة للحدود القومية، وكذا الربط الضروري بين الفكرة التي ترى أن الإنتاج الثقافي القومي بعد الحرب الباردة كان يقوى بالفعل، بتلك التي تؤمن بالأهمية المتنامية للممثلين السياسيين القوميين. إذن، فما كان ينقص المناقشات المبكرة حول العولمة هو الحساسية إزاء إمكانية أن تكون المستويات الاقتصادية والسياسية والثقافية تتحرك بسرعات مختلفة.

في الواقع، كان هذا التفاوت تحديدًا هو الأقرب لكيفية سير عمليات العولمة بالفعل. لا نحتاج إلى الكثير من التأمل، على سبيل المثال، لندرك أن الأنشطة الثقافية القومية قد تصبح أكثر قوة في نفس وقت مواجهة الاقتصادات القومية لتحديات من جانب السلطة المتنامية لصانعي القرارات الاقتصادية العالمية، أو أن الحركة القومية قد تشهد انتعاشًا تحديدًا بسبب ارتفاع تدفقات الهجرة العالمية (كما حدث مرارًا، بدرجات متفاوتة من النجاح، بدءًا من جان-ماري لوبان في فرنسا، إلى جون ميجور في أستراليا، إلى إنشاء حزب الديموقراطيين السويدي). بمجرد إدراك هذا الانفصال النسبي للجوانب المختلفة، ودمجه في الخطاب السائد (والاحتفاء به لما يقدمه من تباين وتنوع)، ظهرت بقعة عمياء جديدة: الدولة القومية. تعمل فئة الأمة على الحد من الفكر، ويتحول تقريبًا كل نقاش حول العولمة إلى نقاش حول الأمة (هل تم التغلب عليها أم استعادت نشاطها؟ هل هي رجعية أم تقدمية من الناحية السياسية؟) وهذا الجدل الدائر حول كون الدولة القومية «أكثر» أو «أقل» مما كانت عليه يصرف الانتباه عن الوظيفة الأيديولوجية لخطاب العولمة؛ أولًا: للانتصار للرأسمالية في النقاش الدائر حولها، وثانيًا: لإخفاء الجدل حول ما قد يأتي «ما بعد» العولمة. إذن فقد كان الجدل الدائر حول الدولة القومية في هذه المرحلة الثانية من خطاب العولمة بمنزلة مشاركة فعالة في مشروع تأريخ الحاضر باعتباره امتدادًا خطيًّا للماضي، وكذلك استعمار المستقبل من خلال حدود الحاضر.

مع الأزمة الاقتصادية لعام ٢٠٠٨، دخلنا إلى ما يشبه المرحلة الثالثة لخطاب العولمة. وتتميز هذه المرحلة، ليس فقط بعودة الرأسمالية باعتبارها خطابًا يمكن التحدث عنه،

ولكن أيضًا بتحول التركيز من دراسة الرأسمالية باعتبارها منطقًا سياسيًّا في الأساس (كما كان سائدًا خلال الحرب الباردة) إلى دراستها في إطارها الاقتصادي. هذا لا يعني أن الاقتصاد لم يكن دائمًا جزءًا من النقاشات الخاصة بالعولمة، ولكنه يعني أن الوقت قد حان ليسود، ويتم التحدث عنه بنحو جديد؛ إذ يتم تناوله ليس بوصفه جزءًا مكونًا من السياسة — باعتباره ذلك المد المرتفع الذي «سيرفع كل القوارب» (وهو التعبير الذي يفضله وزير الخزانة الأمريكي السابق روبرت روبين)؛ ومن ثم يساعد على نشر الديمقراطية — ولكن بصورة أكثر مباشرة وصراحة. عندما يتحدث المرء عن العولمة اليوم، فهو لا يشير إلى الحرية، والديمقراطية، والفردية، والتحرر والفئات السياسية الأخرى، بقدرِ ما يشير إلى الناحية الاقتصادية الصريحة، مثل التوزيع، والإنتاج، والاستهلاك، والربح، والأزمة، وتوسيع السوق، والكفاءة؛ أصبحت مجموعة كاملة من المفاهيم الاقتصادية على مدى العقدين الماضيين جزءًا من الخطاب اليومي المعتاد، كما أنها المقياس الأساسي الذي نستطيع من خلاله تقييم مدى نجاح الروايات الجماعية أو فشلها. لقد أصبحت الفكرة التي تربط بين الرأسمالية والديمقراطية غير مقنعة اليوم كما كانت تلك التي تربط بين الاشتراكية والأوتوقراطية (ولا يعني ذلك أن هذين الربطين قد أصبحا مهجورين). عوضًا عن ذلك، يتم الحكم على الرأسمالية أكثر من خلال ما تنتجه؛ أي نتائجها «الفعلية»: درجة تحقق المساواة، والسلام، والعدل، والصحة البيئية، ونوعية الحياة من خلال الممارسات والمعاملات «الاقتصادية». هذا التحول تحديدًا؛ من الأيديولوجيات السياسية الأكثر رومانسية للرأسمالية إلى الأيديولوجيات الاقتصادية الأكثر واقعية؛ هو ما نلمحه في المواقف الشعورية العامة للطلاب الذين قابلناهم، وهو اعتراف أو رد فعل لهذا التحول الذي يبدو أقل وضوحًا بكثير في روايات الكُتاب المعروفين الذين عرضنا لأفكارهم في الفصل الثاني. حتى بول كروجمان، الخبير الاقتصادي، يتعامل دائمًا مع تحليله للرأسمالية من خلال ليبراليته السياسية، تمامًا كما لا يَسَعُ ناعومي كلاين، المحللة الأكثر انتقادًا للرأسمالية في مجموعة المفكرين الذين عرضنا لهم هنا، إلا أن تتناول الرأسمالية على أساس الفساد السياسي.

سيكون من السهل الشعور بالرثاء تجاه الطلاب لأنهم في المجمل منفصلون عن العالم وأصبحوا غير مهتمين به، ومستسلمين لقدرهم في ضوء نطاق النظم التي تشكل الواقع الاجتماعي العالمي، فضلًا عن حجم المشكلات التي نتجت عن هذه الأنظمة. ولكن هذا ليس صحيحًا تمامًا. إن عدم وجود أيديولوجيات قوية يمكن التأكيد على صحتها

بسهولة، أو التأكيد على الروايات السياسية التي يصفها الخبراء، يوحي لنا بوجود فرصة سياسية. لم يُبدِ الطلاب أي اندهاش على الإطلاق من الفساد وعدم المساواة اللذين تَنْتَهجهما الرأسمالية؛ الرأسمالية العالمية. هذا الحذر إزاء الأفكار الراسخة قد لا يفسح المجال لحقبة مريحة يمكن العيش فيها، ولكنه يحوِّل اهتمام الطلاب بعيدًا عن تأكيد أي إيمان أعمى بالأطروحات السبع التي نفيناها في نهاية الفصل الأول. نحن لا نقصد أن اتخاذ موقف جذري جديد يجب أن يركز على العنصر الاقتصادي للرأسمالية على حساب كل العناصر الأخرى، ونحن بالتأكيد نقدِّر ارتباط المجال الاقتصادي الذي لا ينفصم ليس فقط بالمجال السياسي، ولكن بالمجالات الثقافية والنفسية كذلك (وأن الرأسمالية نفسها تشكيل تاريخي يضم كل أشكال النشاط البشري). في الواقع، يبدو أن الطلاب فهموا هذا بينما في نفس الوقت (وعلى عكس العديد من مُنظري العولمة) لم يفترضوا أن المستويات المختلفة لهذا التشكيل كانت تتحرك بنفس السرعة، أو كانت مرتبطة بأي شكل محدد (على الرغم من أنهم كانوا أيضًا يميلون إلى ذكر بعض العبارات الشائعة عما كانت عليه العولمة وكيفية عملها).

نريد أن نجادل بأن التفضيل المؤقت للاقتصاد اليوم هو أحد سبل اجتياز «الحد الزمني» للعولمة الذي يُنهي أي تكهنات تتناول ما سيأتي بعدها. كما نريد أن نجادل بأن التفضيل الاقتصادي لا يعني أن على كل شخص أن يعود إلى الجامعات ويتخصص في الاقتصاد، خاصةً مع هيمنة الأسس الكلاسيكية الجديدة على مناهج العديد من أقسام الاقتصاد بالجامعات بطريقة نادرًا ما تتطرق إلى السياسة (في أمريكا الشمالية، على سبيل المثال، تم تقسيم معظم أقسام الاقتصاد السياسي إلى قسمين؛ واحد للاقتصاد، والآخر للسياسة منذ عقدين)، وعدم وضع تلك المناهج لإطار نظري للعلاقة بين الاقتصاد والعلوم الإنسانية أو العلوم الطبيعية. إن كيفية تعلُّم علم الاقتصاد بدقة من خارج الدراسة الجامعية هي إحدى أكبر التحديات اليوم، ويبدو أن الطلاب يفهمون ذلك تمامًا، مع اهتمامهم بعلم الاقتصاد (أو على أقل تقدير، إدراكهم لأهمية علم الاقتصاد) على الرغم من عدم دراسته رسميًّا. (بالمناسبة، هذا هو أيضًا الموضع المناسب للتأكيد على تقديرنا لناعومي كلاين، فعلى الرغم من انتقاداتنا لعملها إلا أننا نعتقد أنها تقدم نموذجًا يُحتذى به في كيفية القيام بمثل هذه الدراسة الذاتية.)

بالإضافة إلى هذا الاهتمام المتزايد بعلم الاقتصاد، لاحظنا أيضًا تغيرًا كبيرًا في الموقف تجاه الأمة؛ ليس الأمة التي ينتمي إليها كل طالب، ولكن تجاه الأمة ككيان أعم. وبدلًا

من تعديل معظم الردود حول كيفية سير الأمور في بلدانهم، كان الاتجاه السائد في أغلب المقابلات هو التحدث بنحو أعم حول المستقبل، والرأسمالية، ومعاداة أمريكا، وغيرها من الموضوعات. وحتى في هذا القسم من المقابلات الذي ركز على مخاوف الطلاب الخاصة المتعلقة بأمتهم، كانوا عادة يستدعون أسبابًا فوق قومية أكثر مثل تدمير البيئة أو الهياكل الجيوسياسية.

هذان الميلان — الأول: الانتباه إلى العمليات اليومية للاقتصاد الرأسمالي بنحو يفوق الاهتمام بالادعاءات السياسية المثيرة للرأسمالية، والثاني: الارتباط الذي انتهى نسبيًّا بالأمة التي يعيش فيها كل طالب — أدهشانا واعتبرناهما مبشرَين للغاية. في الواقع، نرى أن هذين الميلين يفضيان إلى نقد أيديولوجي حاسم للهيمنة المؤقتة للعولمة. وكما تأكد في كل مقابلة من المقابلات الستين، لم يستطع الطلاب أن يتخيلوا (ولم تكن بهم رغبة في أن يتخيلوا) ما يأتي بعد العولمة. بدلًا من رؤية هذا على أنه مشكلة، نرى أن هذا التشاؤم يشير إلى احتمالات جديدة: عزوف عن التسليم بالروايات القائمة حول كيفية تحسين الحاضر من أجل المستقبل، ورفض رؤية أي بريق أمل في الأفق في الاتجاه الحالي للعالم، ونقد صريح للأنظمة السياسية التي يعيشون فيها، وإدراك للحقائق الاقتصادية القاسية في العالم. وحتى لو كان معظمهم يرغبون في نظام ديمقراطي اجتماعي، وهو المثال الوحيد المتاح لنظام «أفضل» قليلًا من ذلك الذي يحيون في إطاره، فإن الشكوك العميقة تملؤهم كذلك حول النظام الاقتصادي المصاحب له؛ وهو: الرأسمالية. ويميل الطلاب إلى البحث عن الأشياء التي قد تنقذهم، وكيف لا يفعلون ذلك؟ ولكنهم يتفقون معنا في النقاط التالية: التعليم لا يقدم أي ضمانات، والأخلاق لا تأثير لها على الواقع القاسي للجيوسياسة، والأمة محل شك، والرأسمالية لا يمكن الوثوق بها، والتاريخ اختفى إلى حدٍّ كبير، والمستقبل لا يبشر إلا بعواقب وخيمة.

إن اللحظة الراهنة غير ملائمة، وخطرة، وتمتلئ بعدم اليقين. والمستقبل، وهو احتمالية وجود بديل للأنظمة التي نحن محاصرون بداخلها الآن، يبدو من الصعب تخيله؛ فكيف يمكن أن نصل إلى المستقبل من الحاضر؟

الخاتمة: «لا تسألَنَّ عن السبب!»

عندما أستيقظ صباحًا، أقول دعائي اليومي: «امنحني اليومَ وَهْمِي، امنحني وهمي اليومي»؛ لأن الأوهام أصبحت ضرورة لا غنى عنها للعيش في عالم يخلو تمامًا من أي ضمير يوتوبي وحس يوتوبي.

إرنست بلوخ، كتاب «شيءٌ ما مفقود»[1]

موضوع هذا الكتاب هو الوضوح؛ فهو عما يمكن وما لا يمكن إدراكه وفهمه. أثناء الحرب الباردة، كان المستقبل مليئًا بالاحتمالات، سواء كان هذا هو الوضع حقيقةً أم لا، كان المستقبل يبدو غير مؤكد، مع احتمالية التحرك ليس فقط في اتجاهين (الشيوعية والرأسمالية)، بل في عدة اتجاهات: استمرار الجمود الذي طال أمده، وتسوية الاختلافات عن طريق حل وسط هو الديمقراطية الاجتماعية (يتحول بمقتضاه العالم إلى دول مثل السويد)، وصعود دول أخرى ليتحول العالم ذو القطبين إلى آخر ذي ثلاثة أقطاب، أو أقطاب متعددة، وما إلى ذلك. في بعض الأوقات، عدم اليقين هذا كان خطيرًا، ليس بسبب التهديد الحقيقي بالدمار المتبادل المؤكد فحسب؛ بل لأن المعروف عن الحاضر كان مشكوكًا به تمامًا مثل المستقبل: إن الحاضر الذي كنا نعيشه سوف يبدو مختلفًا من منظورِ ما سيحدث مستقبلًا.

بعد انتهاء الحرب الباردة، كانت العولمة هي الخطاب الذي تم تقديمه ليصبح الحاضر (الزمان) والكوكب (المكان) مفهومَين. إن كلمة «مفهومين» لا تعني واضحَين أو بسيطَين؛ فالعولمة كانت بالتأكيد مُرْبِكة بما فيه الكفاية كَرِواية وكواقع على حدٍّ سواء. إن حل الصراعات السياسية والاقتصادية والعسكرية التي طال أمدها، والتي تبعت الحرب

العالمية الثانية، تم في نفس وقت ظهور تقنيات جديدة ووجود حماس شديد للتكنولوجيا الحديثة، وظهور مخاوف واضحة فيما يتعلق بالحدود البيئية، والمخاوف الديموغرافية (انخفاض التعداد السكاني في أغلب الدول الغربية يقابله انفجار سكانيٌّ هائل في سائر دول العالم)، وظهور ثقافة جماهيرية عالمية وازدهارها؛ مجتمع قوي واسع النطاق من المشاهدين، تَضاعَفَ مرة أخرى في القوة والثقل الاجتماعي منذ أن وصفه جاي ديبورد لأول مرة في ستينيات القرن العشرين.[2] إن اتجاهات القوة ومواضع التأثير الممتدة عبر النطاق الذي ما زلنا نرسم من خلاله خريطة وجودنا الاجتماعي، وهي الاقتصاد والسياسة والثقافة والمجتمع، هي ما تخيلت العولمة ووضعت تصورًا لها. مع ذلك، كانت العولمة، بالرغم من تعقيدها، مفهومة؛ فهي عملية (أو مجموعة من العمليات)، أو حقبة من الزمان، أو حتى رواية أيديولوجية، يمكن فهمها وتحديد تفاصيلها بدقة. وكانت هناك مؤسسات أكاديمية ضخمة مخصصة لخدمة هذا الغرض فقط، مدعومة بأدوات تقنية حديثة سمحت بتوصيل أسرع للنتائج وأساليب جديدة للتحليل.

كانت العولمة اسمًا للحاضر، وكانت مشروعًا أيديولوجيًّا — كما أصررنا على وصفها — وظيفته السيطرة على الحاضر. لقد كتبت العولمة أخيرًا نهاية مشروع التطور الاجتماعي الإنساني، وأعلنت وصول مختلف دول العالم إلى اتفاق حول المبادئ الحاكمة للاقتصاد السياسي. كانت هناك بعض الأطراف الساخطة وغير الراضية (لا يوجد نظام كامل)، ولكن كان هناك أيضًا اتفاق واسع على سبل مواصلة النجاح والتقدم الاجتماعيين (أي الاقتصاديين)، في الوقت الحاضر وإلى الأبد.

خلال عملية تعريف الحاضر والسيطرة عليه، كان للعولمة تأثير ربما لم يكن لأحد أن يتصوره عند استدعاء «النظام العالمي الجديد» إلى حيز الوجود. أصبحت العولمة حاضرًا أبديًّا؛ مشروعًا وحقبة بلا نهاية. يمكن تلخيص أزمة اليسار التي يُشار إليها عادة في عدم القدرة على إبداء أدنى مقاومة ضد إعادة هيكلة الزمن هذه؛ أي إعادة تعريف الزمن التي تترك المستقبل من أجل الحاضر، وتحوِّل ما هو واقعي إلى ما هو أنطولوجي. وتؤكد أزمة عام ٢٠٠٨ الاقتصادية هذا التغير الزمني. في حين كان من الممكن أن نتوقع ردة فعل عالمية على مستوى الثورات الأوروبية عام ١٨٤٨، أو الصراعات على مستوى العالم بين المحتجِّين ورجال الشرطة عام ١٩٦٨، اليوم أصبح لدينا غضب دون أي تحرك كبير. لَم تُستقبل القرارات التي أُعلن عنها مؤخرًا بتبرع مليارديرات الولايات المتحدة بنصف ثرواتهم للأعمال الخيرية في الصحافة بالتحليلات الملائمة لها؛ فارتفعت

أصوات الانتقادات؛ على سبيل المثال، شَنَّ سلافوي جيجك حملة انتقادات واسعة على شخصيات مثل رجل الأعمال جورج سوروس الذي ينهب الناس نهارًا فقط ليعيد إليهم نصف ما نهب في المساء،[3] ولكن مع الثناء على ما يفعل. لقد أبلى أبطال العصر الرقمي بلاءً حسنًا، مرة أخرى![4] الآن، أصبح مفهومًا بوضوح أن النظام الرأسمالي غير عادل، ولكنْ بدلًا من أن نأمل في وضع نهاية له، أصبح هناك تكيف خانع معه، مع أمل (نظرًا لعدم وجود بدائل) بأنه من الممكن أن نجعله يعمل لصالح معظم الناس؛ أي إننا نُقِرُّ بأنه لا يمكن أن يعمل لصالح الجميع.

ما الذي يجعل هذا الوضع واضحًا ومفهومًا؟ يكتب بول كروجمان في مدونته «ضمير ليبرالي» قائلًا: «لا يمكن أن ينسجم معًا نظامُ هجرةٍ مفتوحٌ وشبكةُ أمانٍ اجتماعيٍّ قويةٌ؛ إذا كنت ستضمن رعاية صحية ودخلًا لائقًا للجميع، فلا يمكنك أن تقدم هذا العرض على مستوى العالم.»[5] يمكن لشبكة أمان اجتماعي قوية أن تساعد على التخفيف من حدة المشكلات الناتجة عن أنظمتنا الاجتماعية والاقتصادية. وعلى الرغم من ذلك، يتم الإعلان على الفور عن أن عددًا قليلًا محظوظًا فقط هو من يمكنه أن يتمتع بهذا الأمان؛ أي إنه مستحيل على النطاق العالمي. وإليكم حالة نموذجية لحدود الليبرالية: كما يقول نيكولاس براون، الحاجة إلى «الإيمان بأمرين متناقضين في آنٍ واحد: ضرورة حماية غير المحظوظين، وضرورة عدم حمايتهم.»[6] وقد أعرب كروجمان عن عدم سعادته إزاء هذا الوضع؛ تحرك ضميره الليبرالي مرة أخرى، وسمح له بحل مسألة تناقضات النظام عن طريق اللجوء إلى استبداد القومية ونزعة أخلاقية تتسم بالافتقار إلى الأخلاق. إن هذا المزيج من النزعة الأخلاقية والقومية، الذي يسمح بالتنصل من مشكلات وحدود الرأسمالية العالمية، هو المنطق الذي رأيناه فاعلًا في أعمال الكُتاب الآخرين الذين عرضنا مِن قَبل لأفكارهم عن العولمة: إنها بصيرة ناتجة عن العمى، بالرغم من الدفاع عنها وكأن العالم نُظر إليه من خلال معالجة بالأشعة السينية للقوى الخفية التي اتضحت فقط أمام عيون كروجمان.

كانت الكتب موضع البحث في الفصل الثاني دائمًا موجهةً لجمهور الولايات المتحدة، حتى وهي تتحدث عن العالم كله. هذه ليست مجرد إشارة شكلية أو بلاغية؛ أي ليست شيئًا مطلوبًا لأغراض خاصة بالحصة السوقية وضمان عمل تقييمات لها في المؤسسات الإخبارية المناسبة الخاصة بتيار الوسط الليبرالي. بل إنها بالأحرى تُعَد اعترافًا بالفجوة بين الولايات المتحدة وسائر بلاد العالم؛ إدراكًا لعدم حقيقة الخطاب السياسي القائل

بأن العولمة مفيدة للجميع، والحاجة إلى زيادة الفرص والموارد المحدودة لكل أمة. من هذا المنطلق، يصبح عالمُ ما بعد أمريكا بالنسبة إلى زكريا أمريكيًّا تمامًا، وتظهر رغبة فلوريدا في وجود يوتوبيا رأسمالية تقوم على الإبداع في إطار المنافسة بين الأمم (وبالتأكيد بين مدنها)، ويجوب فريدمان العالم ليحصل على الحكايات التي قد تساعده على فهم أسرار العالم الجديد الذي تواجهه أمريكا حتى تستطيع أمريكا أن تستفيد منها. حتى دارسةُ العولمةِ الكنديةُ كلاين على استعداد لقبول عالم تسوده المنافسة القومية، وتظل الرأسمالية قائمة فيه، حتى لو كان ذلك في شكل أسواق مختلطة. لا تحل وجهة النظر تلك مشكلة الظلم الاجتماعي والاقتصادي، ولكنها تكرر منطق كروجمان المتناقض، حتى لو بدت أفكارها السياسية يسارية.

إن التقنيةَ والخبرةَ والكفاءةَ — وَهْمَ التحكم المعرفي الذي نراه واضحًا في فيلم «مايكل كلايتون» — هي جزء مكوِّن من ممارسة محاولة فك تعقيدات العالم لخدمة الأهداف القومية. وعلى الرغم من ذلك، أصبح ضروريًّا للحفاظ على تماسك هذا الوهم الجمعُ بين هذه الخبرة التقنية مع نزعة أخلاقية تحكم الاستخدام السليم للمعرفة الخاصة بالعالم وإنهاء التناقضات التي قد تنشأ عند تطبيق النظرة التقنية للمضي قدمًا على حساب الآخرين. إن التراجع عن الروايات الهيكلية أو المنهجية لصالح استدعاء منطق الرجل الشرير على نفس مقدار أهمية هذا الإصرار على الأمة. يأخذ هذا في أحد أشكاله المتطرفة شكل نظريات المؤامرة العالمية، بدءًا من أن هذا الكوكب تديره مجموعة بيلدربرج أو عائلة روتشيلد، إلى الاعتقاد بأنه يتم تبادل الخطط بين النخبة في دافوس. إلا أن النهج الأخلاقي لا يحتاج إلى مثل هذه الأشكال المتطرفة؛ فقد أصبح المعيار الأخلاقي في الحكم على الشركات والمنتجات والمُلاك والساسة والرياضيين، وما إلى ذلك، منتشرًا على نطاق واسع. وهناك مغزًى لكون واحدة من أكبر الشركات على الكوكب، الشركة التي تجسد توجهات اللحظة العالمية أكثر من غيرها، ترفع شعارًا يدعو إلى الالتزام بالأخلاق. وكما هو الحال مع ضمير كروجمان، لا يمنع شعارُ جوجل «لا تفعل الشر» الشركةَ من اتخاذ قرارات مشبوهة فيما يتعلق بالخصوصية أو السيطرة والإدارة غير الديمقراطية للمعلومات، ما دام يساعدها على الاستمرار في أن تصور نفسها أنها ليست شركة تجارية في الواقع (فدوافعها مختلفة!) حتى مع نمو قيمتها السوقية (التي وصلت إلى ١٨٥ مليار دولار في يناير عام ٢٠١٠).[7] في اللحظة الراهنة، لم تَعُد السياسة تتعلق بالسياسات والتغييرات في الأنظمة بقدر تعلقها بالسلوكيات والمعتقدات الفردية الخاصة بمن هم

في موقع المسئولية. وفي اللحظة التي لا يسع المرء فيها إلا أن يهتم بالأنظمة العالمية المترابطة؛ من الأنظمة الاقتصادية إلى البيئية؛ تعود نظرية الرجل العظيم التاريخية، مع التركيز على النزعة الأخلاقية للزعيم. لم ينشأ الشعور بخيبة الأمل خلال السنوات الأولى من إدارة أوباما من النتائج السياسية بقدرِ ما نشأت من صدمة أن العالم لم يتغير نتيجة خلافة زعيم «جيد» لزعيم «سيئ».

موضوع هذا الكتاب هو الوضوح. وما خلصنا إليه هو أن ما يعتبر مفهومًا وواضحًا اليوم، لا ينتج تبصرًا في حاضرنا ومستقبلنا، بل يعمل بنشاط من أجل ترسيخ إحساسنا بالحدود التي نواجهها والاحتمالات المتاحة أمامنا. ولا يخفى على أحد أن الرأسمالية هي نظام تشغيل هذا الكوكب. لكن هذه المعرفة بالرأسمالية ليست مثل فهمها وفهم تأثيرها على عاداتنا، وفهمنا، وتوقعاتنا، ووجهات نظرنا للماضي والحاضر، وما قد يأتي بعد ذلك. إن ما نطلق عليه الوضوح هنا — وهي كلمة تبدو تعسفية، وتفتقر إلى الجاذبية التي يتمتع بها العديد من المفاهيم أو الأرقام — يُطلَق عليه في سياقات أخرى اليوتوبيا. لقد صارت اليوتوبيا تعني نوعًا معينًا من التفكير الخيالي أو التوَّاق إلى المستحيلات. إلا أن هذا يُعد سوء فهم لأهمية اليوتوبيا لكلٍّ من السياسة وتوليد المفاهيم. إذا كانت اليوتوبيا ترتبط بالمستحيل، فهي تفعل ذلك بأقصى رغبة في تغيير نطاق الممكن؛ لذلك، فاليوتوبيا تتعلق في نهاية المطاف بالإمكانية، وبنحو خاص، تتعلق بإمكانية أن تصبح الأشياء على غير ما هي عليه؛ على سبيل المثال، أن نستطيع أن نصنع عالمًا يستطيع الجميعُ فيه الحصولَ على كميات كافية من الغذاء، أو المياه النظيفة، أو حتى مجرد فرصة العمل.[8] إنها الرغبة في هذه الإمكانية، حقيقية وغير منقوصة، التي نشعر أنها مفقودة. ويدرك الطلاب الذي أجرينا معهم مقابلاتٍ غيابَ هذه الإمكانية المستقبلية من الحاضر، إلا أنهم غير راغبين أو غير قادرين على معالجة هذا الأمر. ماذا عن الليبراليين؟ إنهم يهدرون طاقتهم على وضع استراتيجية للهروب تقع مباشرة في إطار علاقات قائمة، ثم يعبِّرون عن رضائهم، بل ودهشتهم، عندما يجدون ما كانوا يعرفون دومًا أنه موجود. وكما يذكِّرنا نيتشه: «إذا أخفى أحدٌ شيئًا وراء شجيرة، ثم بحث عنه ووجده هناك، فإن هذا البحث والوجود ليسا جديرين بالثناء.»[9]

هناك شيءٌ ما مفقود عندما نجد دائمًا وفي كل مكان نفس الأفكار حول كيفية المضي قدمًا، بدلًا من إمكانية الاختلاف الجذري. بالطبع، هناك شيءٌ ما مفقود منذ فترة طويلة، حتى إذا قدَّمَت العولمة سياقًا مختلفًا (ومن ثَمَّ، تحديات متمايزة للنقد) تسير فيه

الأمور على هذا النحو. تأتي هذه العبارة من مناقشة حول الإمكانية السياسية أُجريت منذ ما يقرب من نصف قرن. «شيءٌ ما مفقود» (١٩٦٤)[10] هو عنوان المناقشة التي تَمَّتْ بين إرنست بلوخ وَتيودور أدورنو حول اليوتوبيا ومصيرها. يرى المفكران أن فكرة اليوتوبيا أصبحت شائعة في العالم المعاصر من خلال ظهور جميع أنواع الاختراعات التكنولوجية ذات الطابع اليوتوبي (التليفزيون، والسفر جوًّا) وأصبحت واسعة الانتشار بعد أن صارت مرتبطة حتى بعملية شراء أي شيء (الخيال الذي قد يتحول إلى حقيقة، الأمنية التي يمكن أن تتحقق، على الرغم من أن أدورنو قد أشار إلى أن ذلك يؤدي إلى أن «يرى المرء نفسه مخدوعًا دائمًا تقريبًا»).[11] يركز جوهر مناقشة بلوخ وَأدورنو على أهمية النظر لليوتوبيا على نحو «سلبي»؛ ليس بوصفها هذا أو ذاك النوع من المجتمع، كما تشكله شخصيات مثل توماس مور أو توماسو كامبانيلا، ولكن بوصفها «القدرة على تخيل المشهد الكلي باعتباره شيئًا يمكن أن يكون مختلفًا تمامًا.»[12] إن التعامل مع اليوتوبيا سلبيًّا يكون بمنزلة وقاية من «اليوتوبيا الرخيصة، اليوتوبيا الزائفة، اليوتوبيا التي يمكن شراؤها.»[13] وبوصف اليوتوبيا نفيًا لما عليه الأمور في الواقع، فإنها بمنزلة نقدٍ للحاضر، وإشارةٍ إلى ما يجب أن يكون عليه. محتوى اليوتوبيات أقل أهمية من التعبير عن الرغبة في أن يكون الحاضر مختلفًا. عندما يقال إن أحد الأهداف أو الغايات اليوتوبية «لا يمكن أن يتحقق»، يكون ما يقال حقًّا هو أننا «لا نريد له أن يتحقق.»[14] يشير بلوخ إلى أن تلك النزعة اليوتوبية قد ظهرت في عبارة «شيءٌ ما مفقود» — «واحدة من أكثر العبارات التي كتبها بريخت عمقًا على الإطلاق»[15] — التي أخذها بلوخ من أوبرا «صعود وسقوط مدينة مهاجوني» لِبرتولت بريخت وَكورت فايل التي ظهرت عام ١٩٣٠. إن التضاؤل أو الغياب التام لهذه النزعة بحلول ستينيات القرن العشرين ليس من قبيل المصادفة. يشير بلوخ إلى أن «هناك سعيًا واضحًا جدًّا لمنع العالم من أن يتحول إلى ما هو ممكن.»[16]

ويستحق الأمر أن نعود بهذه العبارة إلى أصولها. في حين أن «صعود وسقوط مدينة مهاجوني» أوبرا تنتقد الأوبرا البرجوازية من حيث الشكل والمضمون، وتُعَد رمزية وحشية للحياة في ظل الرأسمالية، فيُنظر لنصها الذي كتبه بريخت بوصفه نصًّا تعليميًّا وفجًّا على نحو متعمَّد. وقد أظهر هذا النص، الذي تقع أحداثه في الغرب الأمريكي المتوحش — تلك المساحة من الرأسمالية غير المقيدة التي يحكم فيها المال وتقلُّ القوانين وتتباعد — ما يبدو عليه العالم تحت القشرة الخارجية للثقافة البرجوازية الأوروبية.

يصل جيمي وطاقمه من الحطَّابين إلى مهاجوني وهُم على استعداد لإنفاق النقود التي جمعوها بعد سبع سنوات من العمل في البرية؛ فبعد عملهم الشاق لفترة طويلة، توقعوا أن يستخدموا هذه الأموال في إشباع كل رغباتهم؛ السعادة وحرية الاستهلاك التي يتخيل المرء أنها مكافأة المشاركة في الإنتاج. لكن الأمور تسوء على الفور. يقرر جيمي، الذي ملَّ من الويسكي والجين الرخيص، ومن صيد الأسماك والتدخين، وتَعِبَ من القواعد التي بدأ لوكادجا بيجبيك يضعها في تلك البلدة التي كانت مهجورة؛ أن يغادر مهاجوني، ويفرَّ إلى الشاطئ ليلحق بقارب ويخرج من البلدة. يحاول أصدقاؤه أن يُثْنوه عن الرحيل، واصفين له كل ما يزال في وسعه القيام به في المدينة: النوم، والسباحة، وإمتاع نفسه بطرق لا تُعد ولا تحصى. وأمام كل توسلاتهم، ظل يكرر: «شيءٌ ما مفقود!»[17] لقد كان جيمي يعاني يأسًا وجوديًّا: «ولماذا لا يوجد شيء مفهوم على الإطلاق/أخبرني أنت، من فضلك، لماذا لا يوجد شيء مفهوم على الإطلاق ... أخبرني! لماذا خُلق الإنسان؟»[18]

ويؤكد ما يلي من أحداثٍ صحةَ ما يراه الكثيرون من أن الأوبرا نقدٌ حادٌّ لمظالم الرأسمالية؛ فبعد سلسلة من المصائب، التي بدأت بالإعصار الذي كاد يصيب المدينة وسمح لِجيمي بسحب السلطة من بيجبيك، انتهت الأوبرا بمثول جيمي أمام المحكمة لمسئوليته عن مشكلات المدينة. حُكم على جيمي بالإعدام، ليس بسبب جرائمه المتعلقة بالشراهة، أو السُّكْر، أو الشجار، أو الدعارة؛ ولكن لعدم امتلاكه المال لدفع ديونه (جولتين من الويسكي وقضيب سكك حديدية مكسور). على أحد المستويات، كان الدرس صريحًا. كما كتب أدورنو في استعراضه للأوبرا، «انكشفت فوضوية النظام الحالي، بقوانينه وحقوقه وما إلى ذلك؛ نحن أنفسنا نعيش في مهاجوني؛ حيث كل شيء مسموح إلا شيء واحد: عدم امتلاك المال.»[19]

لكن الأوبرا أكثر تعقيدًا من ذلك. فلو كانت مجرد نقد للرأسمالية وعدم قدرتها على إنتاج السعادة البشرية، فإنها ستفشل في استكشاف المغزى الكامل لمشاعر جيمي بأن هناك شيئًا ما مفقودًا. أولًا، هذه الأوبرا استكشاف لحدود اليوتوبيا السيئة؛ بمعنى، اليوتوبيا التي تتخيل أنها يمكن أن تتحقق في صورة مجموعة من القواعد والإجراءات، أو حتى في الحرية المفترضة التي تأتي عندما يتم تعليق العمل بهذه القواعد والإجراءات. إن استجابة جيمي لشعوره بأن هناك شيئًا ما مفقودًا (بعد التهديد بأكل قبعته؛ «جيمي! أكل القبعات ليس هو الشيء الذي خُلق الإنسان من أجله»)[20] كانت، وسط اضطراب الذعر من الإعصار، هي السيطرةَ على مهاجوني، والقضاءَ على قرارات بيجبيك،

والمحظوراتِ التي أقرَّها، وإعادةَ تقديمه للفوضوية التي كانت سائدة من قبل. وقد سمحت الأزمة للمدينة بالتحول من الركود إلى الازدهار، لكنها لم تستطع أن تنهي حالة الفقد التي يعانيها جيمي. بدلًا من ذلك، كانت النتيجة هي النقيض المأساوي للحرية الخالصة التي كان يأمل فيها. وعلى الرغم من أنه قد يبدو أن نسخة جيمي من مهاجوني قد ألغت حدود نسخة بيجبيك، فإن النظام الأكبر الذي تكونت داخله النسختان ظل باقيًا في مكانه. إنها نقطة لم يستطع بريخت أن يقاوم إبرازها في خاتمة الأوبرا، في العبارات المكتوبة على لافتات المتظاهرين:

«المجموعة الأولى». بيجبيك، فاتي ماسك الدفاتر، ترينتي موزيز وأنصارهم، تقول العبارات المكتوبة على لافتات المجموعة الأولى الآتي:

«من أجل التضخم»
«من أجل صراع الجميع بعضهم مع بعض»
«من أجل الفوضى في مدننا»
«من أجل إطالة أمد العصر الذهبي»

«المجموعة الأولى»:

«من أجل مهاجوني الرائعة هذه
التي تستطيع أن تمتلك كل شيء فيها، إن كنت تمتلك المال.»
«سيكون حينئذٍ كل شيء متاحًا لك
لأن كل شيء للبيع
وليس هناك ما لا يمكن شراؤه.»

«وتقول العبارات المكتوبة على لافتات المجموعة الثانية»:

«من أجل التملك»
«من أجل استغلال الآخرين»
«من أجل التقسيم العادل للسلع الروحية»
«من أجل التقسيم غير العادل للسلع الدنيوية»
«من أجل الحب»
«من أجل شراء الحب وبيعه»

«من أجل الفوضى الطبيعية للأشياء»
«من أجل إطالة أمد العصر الذهبي»[21]

ليس من المفاجئ أن يتصور جيمي أنه سيجد اليوتوبيا في الرفض البسيط والمباشر للحظر وإطلاق العنان للرغبات الفردية، تلك الرغبات التي كانت بالضرورة نتاجًا لتلك الحدود ذاتها؛ ومن ثَمَّ لا تزال مرتبطة بها. وكما تذكِّرنا ليديا جور: «عكست أوبرا «مهاجوني» عالمًا مغلقًا لا توجد به «مساحة غير رأسمالية».»[22] على الرغم من كل عبارات الظلم والاستغلال والفوضى التي كتبت على لافتات المحتجين، فإن كلًّا منها كان ينتهي بأمل: «من أجل إطالة أمد العصر الذهبي.» ما تم تقديمه في تلك الأوبرا هو «العالم المغلق للوعي البرجوازي الذي يَعتبر الواقع الاجتماعي البرجوازي أمرًا غير قابل للتغيير.»[23] الشيء المفقود ليس ببساطة عالمًا خارجيًّا يجعل في الإمكان رؤية قوانين السعادة البشرية تشكِّل الحياة في مهاجوني باعتبارها منتجة اجتماعيًّا وليست طبيعية بأي حال، ولكنه نوع من التبدل أو التغير الذي قد يفتح المجال أمام إمكانية رؤية أن العصر الذهبي هو أي شيء غير ذلك. قدمت الأوبرا نقدًا مباشرًا للرأسمالية، لكنها فعلت ذلك بأسلوب من شأنه أن يلفت انتباهنا إلى الحواجز السياسية أو المفاهيمية التي يجب التعامل معها إذا ما كان المرء سيقوم بما هو أكثر من تأكيدها حتى عبر إنكارها، كما فعل جيمي للأسف.

ولكن كيف نفعل ذلك من دون أن نحاول الوصول إلى العالم الخارجي غير الموجود في عالم مهاجوني أو استدعاءه؟ هذه هي مشكلتنا أكثر مما كانت مشكلة بريخت؛ بالنسبة إليه لم يكن أمامه الدرس المباشر من الثورة السوفيتية فقط، ولكن أيضًا جميع أنواع الاضطراب السياسي داخل ألمانيا، وحتى داخل الولايات المتحدة، التي سبقت وتَلَتْ ذلك الفشل الأول للنظام العظيم المتمثل في الكساد الكبير لعام ١٩٢٩. وفي أعقاب انهيارنا، كانت لدينا مجموعة قليلة من الأنظمة المعارضة الجاهزة التي يمكننا اللجوء إليها من أجل الحصول على الأفكار، وبالتأكيد لم تكن هناك مساحة غير رأسمالية لرسمها أو استكشافها: لقد جعلت العولمة ذلك أمرًا يقينيًّا، حتى لو كانت هناك بعض المناطق الصغيرة التي تُختبر فيها أنماط أخرى من الحياة. في السنوات المتخللة، كان عرض بريخت المسرحي لمهاجوني على أنها تمثل المساحة المفقودة من الغرب الأمريكي قد تحقق بالفعل. لقد غيَّر عرضُ الأوبرا في أوبرا لوس أنجلوس عام ٢٠٠٧ إدراكَنا للمدينة وجَعَلَها لاس فيجاس، وهو المكان الذي يذهب المرء إليه بعد فترة طويلة من

العمل من أجل الراحة الخالصة والانغماس سرًّا في رغباته («ما يحدث في فيجاس يبقى في فيجاس»). وفي عصر التحرر من القيود والحريات الزائفة باعتبارها نتيجة لتراجع الدولة، لم تَعُدْ مهاجوني رمزية لاحتمالٍ ما يزال في الأفق بقدرِ ما أصبحت هي الواقع الذي يتعين علينا قبوله.

يقدم لنا بريخت نظرة ثاقبة حول كيفية إظهار طابع عصرنا الذهبي؛ أي أن نجعله واضحًا ومفهومًا، وهو ما يعني أنْ نحوِّله لنظام له تاريخ، غير قابل للتغيير، ولا يحاصرنا مثل القدر. وقد لفت أدورنو الانتباه، في استعراضه للأوبرا، إلى تغير رئيسي كان من الممكن إسقاطه أو إغفاله. في المشهد الأول، يقول رفيقًا بيجبيك، فاتي وَموزيز، إن «مدينة مهاجوني بأكملها موجودة فقط لأن كل شيء سيئ للغاية، لأنه لا يوجد سلام ولا وئام، ولأنه لا يوجد ما يمكن للمرء أن يؤمن به.»[24] لقد جاء رد جيمي بوصفه نفيًا لـ «متعة السلام والوئام»[25] هذه: «آه، لا يمكن لأحد مطلقًا أن يكون سعيدًا في مدينتكم لأن هناك سلامًا ووئامًا أكثر من اللازم، ولأن هناك أشياء أكثر من اللازم يمكن للمرء أن يؤمن بها.»[26] إن هذا الكم الكبير من المعتقدات هو ما يجب أن يواجهه التفكير النقدي؛ هذا الكم الكبير من الأشياء الفعلية والبراجماتية، من أوامر الحس العام، هو ما يقف في طريقِ ما هو ممكن. ما أساء جيمي فهمه هو أنَّ رَفْضه لنظام بيجبيك كان يجب أن يكون «جذريًّا» أكثر، طريقة تفكير لا ترضى فقط بإثارة التساؤلات حول ممارسات العصر الذهبي، بل حول وجوده ذاته. والسبيل الوحيد لتحقيق ذلك هو تحرير الفكر في نفس الوقت الذي نحرر فيه أنفسنا من الخضوع للحكم المهيمن للنظام الاجتماعي؛ بحيث يمكننا أن نتجاوز الحد الذي وضع حول ما هو ممكن.

لقد كُتبت أطروحاتنا السبع بصيغة النفي، ليس من أجل إغلاق الباب أمام الاحتمالات، بل للتأكد من أنها صارت في الإمكان بأقوى صورة ممكنة. بخلاف ذلك، وكما ناقشنا وأوضحنا، فإن أي تأكيد على «حلول» لمشاكلنا ومآزقنا الحالية يكون بالتفكير من خلال إطار يرى فكرةَ أن كل شخص يستطيع — بل وجب — أن يكون مُتَضمنًا في النظام الاجتماعي على أكمل وجه ممكن؛ غيرُ عملية. يُنتج النفي وعيًا بالنظام، وحدوده، بأسلوب قل أن يفعله أي أسلوب آخر. يقول أدورنو في نقاشه مع بلوخ في إحدى النقاط:

> بالأمس استشهدت بسبينوزا في نقاشنا حول العبارة التي تقول: «تشير الحقيقة إلى نفسها وكذا إلى ما يقابلها من زيف.» لقد غيرت ذلك قليلًا فيما يتعلق بالمبدأ الجدلي الخاص بالنفي المتعمد، وقلت: «يشير الزيف إلى نفسه

> وكذا إلى ما يقابله من حقيقة.» ويعني هذا أن الشيء الحقيقي أو الصحيح هو ما يعرِّف الشيء غير الحقيقي أو الخاطئ، أو عن طريق الشيء الذي يشير إلى نفسه بوصفه زائفًا. وبقدرِ ما هو غير مسموح لنا أن نطرح صورة اليوتوبيا، وبقدرِ عدم علمنا بما قد يكون حقيقيًّا، فإننا نعلم تمامًا، بالتأكيد، ما هو الشيء الزائف.[27]

لا تشير حقيقة أننا نبدو قد تخلينا عن الاحتمالات الثورية، وأننا نخشى تصور المستقبل اليوتوبي؛ إلى فشل اليوتوبيا، بل إلى خطأ الطرق التي نعيش بها حياتنا ونفكر بها في كوكبنا في الوقت الحاضر. إن صحة الطريقة التي يجب أن يكون عليها العالم تُظهر لنا خطأ الحال التي هو عليها الآن.

هناك شيءٌ ما مفقود، ليس هذا الشيء أو ذلك، الذي يمكن تحديده ببساطة ومن ثَمَّ تقديمه بطريقة تحل مشكلة البحث عنه للأبد. هناك شيءٌ ما مفقود؛ وهو قدرتنا على التفريق بين الحقيقة والزيف، ورؤية أفق يختلف عن الحاضر الذي نعرفه ونرى أنه مضطرب ومنتقص.

ملاحظات

الفصل الأول: نهاية العولمة

(1) For examples of Johann Wolfgang von Goethe's comments on world literature *(Weltliteratur)* see "Some Passages Pertaining to the Concept of World Literature," in *Comparative Literature: The Early Years: An Anthology of Essays,* ed. H-J. Schulz and P. Rhein (Chapel Hill, NC: University of North Carolina Press, 1973), 1–11.

(2) For most recent figures on comparative levels of military expenditure around the world, see figures compiled by the Stockholm International Peace Research Institute (SIPRI), which are available on its website: http://milexdata.sipri.org/ (accessed October 15, 2010). In 2009, US military spending measured as a percentage of global spending was 43 percent.

(3) The figure usually cited for box office receipts for *Fahrenheit 9/11* is US$119.2 million. See note in Michael Cieply, "Muscular 'Expendables' Enlivens Battle for Studio," *New York Times,* August 16, 2010. Available at: http://dealbook.blogs.nytimes.com/2010/08/16/muscular-expendables-enlivens-battle-for-studio/ (accessed October 15, 2010).

(4) Moore told the media on several occasions that he hoped that the film would influence the outcome of the 2004 US presidential election. See, for instance, Martin Kasindorf and Judy Keen's interview with Moore, "*Fahrenheit 9/11:* Will It Change Any Voter's Mind?" *USA Today,* June 24, 2004. Available at: www.usatoday.com/news/politicselections/nation/president/2004-06-24-fahrenheit-cover_x.htm (accessed October 15, 2010).

(5) See for example Brendon O'Connor and Martin Griffiths, eds, *The Rise of Anti-Americanism* (New York: Routledge, 2005), and Brendon O'Connor, ed., *Anti-Americanism* (Oxford: Greenwood, 2007), a four-volume set collecting academic writing as well as original source material on anti-Americanism. Other examples of such texts are discussed in Part III.

(6) In the wake of 9/11, an enormous number of books have been written assessing the status of US power – its decline, continuation, or rise, or its legitimacy or illegitimacy – with respect to competitor regions or nations. In English alone, a full list would run in the hundreds – enough to create a new genre of books that cut across political science, international relations, advice manuals for foreign policy makers, and pop-psychology at a national level. This includes titles such as: Robert Cooper, *The Breaking of Nations: Order and Chaos in the Twenty-first Century* (New York: Atlantic Books, 2004); Richard Crockatt, *After 9/11: Cultural Dimensions of American Global Power* (New York: Routledge, 2007); Robert Kagan, *The Return of History and the End of Dreams* (New York: Knopf, 2008); Ken Booth and Tim Dunne, eds, *Worlds in Collision: Terror and the Future of Global Order* (Basingstoke, UK: Palgrave, 2002); Ivo Daalder and James D. Lindsay, *America Unbound: The Bush Revolution in Foreign Policy* (Washington, DC: Brookings Institution Press, 2003); Nina Hachigian and Mona Sutphen, *The Next American*

Century: How the U.S. Can Thrive as Other Powers Rise (New York: Simon & Schuster, 2008); Stefan Halper and Jonathan Clarke, *America Alone: The Neo-Conservatives and the Global Order* (Cambridge: Cambridge University Press, 2004); Robert Harvey, *Global Disorder: America and the Threat of World Conflict* (New York: Carroll & Graf, 2003); Michael Hirsh, *At War with Ourselves: Why America Is Squandering Its Chance to Build a Better World* (Oxford: Oxford University Press, 2003); Michael H. Hunt, *The American Ascendancy: How the United States Gained and Wielded Global Dominance* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 2007); G. John Ikenberry, ed., *America Unrivaled: The Future of the Balance of Power* (Ithaca, NY: Cornell University Press, 2002); Andrew Kohut and Bruce Stokes, *America against the World: How We Are Different and Why We Are Disliked* (New York: Times Books, 2006); Charles Kupchan, *The End of the American Era: U.S. Foreign Policy and the Geopolitics of the Twenty-first Century* (New York: Knopf, 2002); Anatol Lieven and John Hulsman, *Ethical Realism: A Vision for America's Role in the World* (New York: Pantheon, 2006); Kishore Mahbubani, *Beyond the Age of Innocence: Rebuilding Trust Between America and the World* (New York: Public Affairs, 2005); Robert W. Merry, *Sands of Empire: Missionary Zeal, American Foreign Policy, and the Hazards of Global Ambition* (New York: Simon & Schuster, 2005); Cullen Murphy, *Are We Rome?: The Fall of an Empire and the Fate of America* (Boston: Houghton Mifflin Co., 2007); Ralph Peters, *New Glory: Expanding America's Global Supremacy* (New York: Penguin, 2005); Jeremy Rifkin, *The European Dream: How Europe's Vision of the Future Is Quietly Eclipsing the American Dream* (New York: Penguin, 2004); Dennis Ross, *Statecraft: And How to Restore America's Standing in the World* (New York: Farrar, Strauss & Giroux, 2007); Rockwell A. Schnabel and Francis X. Rocca, *The Next Superpower?: The Rise of Europe and Its*

Challenge to the United States (New York: Rowman and Littlefield, 2007); Nancy Soderberg, *The Superpower Myth: The Use and Misuse of American Might* (New York: John Wiley & Sons, 2005); and Stephen M. Walt, *Taming American Power: The Global Response to U.S. Primacy* (New York: Norton, 2005).

(7) Michael Hardt and Antonio Negri, *Empire* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2000).

(8) See Giovanni Arrighi, "Hegemony Unravelling," *New Left Review* 32 (2005): 23–80 and *New Left Review* 33 (2005): 83–116; David Harvey, *The New Imperialism* (Oxford: Oxford University Press, 2003); and Neil Smith, *The Endgame of Globalization* (New York: Routledge, 2005).

(9) See Niall Ferguson, *Empire: The Rise and Demise of the British World Order and the Lessons of Global Power* (New York: Basic Books, 2003) and *Colossus: The Price of America's Empire* (New York: Penguin Press, 2004).

(10) The US share of global GDP declined to 27.7 percent in 2006 from 30.8 percent in 2000. See www.data360.org for figures (accessed October 15, 2010).

(11) In addition to those texts listed in note 6 above, see Dan Diner and Sander L. Gilman, *America in the Eyes of the Germans: An Essay on Anti-Americanism,* trans. Allison Brown (Princeton: Markus Wiener, 1996); J. L. Granatstein, *Yankee Go Home? Canadians and Anti-Americanism* (Toronto: HarperCollins, 1996); Denis Lacorne, Jacques Rupnik, and Marie-France Toine, eds, *The Rise and Fall of Anti-Americanism: A Century of French Perception* (New York: Palgrave Macmillan, 1990); and "What We Think of America," special edition of *Granta 77* (Spring 2002), which includes articles by Ariel Dorfman, Michael Ignatieff, Ivan Klíma, Doris Lessing, Orhan Pamuk, Harold Pinter, J. M. Coetzee, and others.

(12) See Russell A. Berman, *Anti-Americanism in Europe: A Cultural Problem* (New York: Hoover Institution Press, 2004); and Ian Buruma and Avishai Margalit, *Occidentalism: The West in the Eyes of Its Enemies* (New York: Penguin, 2004).

(13) For example, see Christopher Connery, "On the Continuing Necessity of Anti-Americanism," *Inter-Asia Cultural Studies* 2.3 (2001): 399–405; and Andrew Ross and Kristin Ross, *Anti-Americanism* (New York: New York University Press, 2004).

(14) The 2011 Budget Request for the US Office of Homeland Security is $54.7 billion. To track the growth in expenditures, see the documents collected on Whitehouse's Office of Management and Budget website: www.whitehouse.gov/omb/budget/Historicals/ (accessed October 27, 2010).

(15) For example, such influential texts as Benedict Anderson, *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism* (New York: Verso, 1983; rev. edn, 1991); Ernest Gellner, *Nations and Nationalism* (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1983); Eric Hobsbawm, *Nations and Nationalism since 1780: Programme, Myth, Reality* (New York: Cambridge University Press, 1990); and Anthony D. Smith, *The Ethnic Origin of Nations* (Oxford: Basil Blackwell, 1986).

(16) Daniele Archibugi has made an argument for a "cosmopolitical democracy" that would maintain the existing system of states while creating a new global democratic structure in which the planet's populace could cast ballots and elect those who control the supranational functions currently carried out by organizations such as the World Bank or the World Trade Organization. See Archibugi, "Cosmopolitical Democracy," in Archibugi, ed., *Debating Cosmopolitics* (New York: Verso, 2003), 1–15.

(17) For an overview of theories of globalization, see Imre Szeman, "Globalization," *Encyclopedia of Postcolonial Studies,* ed. John Hawley (Westport, CT: Greenwood Press, 2001), 209–217; and "Globalization," *The Johns Hopkins Guide to Literary Theory and Criticism,* ed. Michael Groden, Martin Kreiswirth, and Imre Szeman (Baltimore: The Johns Hopkins University Press, 2005), 458–465.

(18) Roland Robertson, *Globalization: Social Theory and Global Culture* (London: Sage, 1992); and Arjun Appadurai, *Modernity at Large: Cultural Dimensions in Globalization* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1996).

(19) Amongst the most powerful of these deflationary accounts of the claims of globalization – especially with respect to the idea of a global economy – is Paul Hirst and Graeme Thompson, *Globalization in Question* (Cambridge: Polity Press, 1999).

(20) Francis Fukuyama, *The End of History and the Last Man* (New York: Free Press, 1992), 4.

(21) Robert Kagan, *The Return of History and the End of Dreams* (New York: Knopf, 2008).

(22) Kagan, *Return of History,* 3.

(23) Ibid., 5.

(24) Ibid., 12.

(25) Ibid., 97.

(26) Text and video of Obama's Berlin speech can be found on-line at http://my.barackobama.com/page/content/berlinvideo/ (accessed October 28, 2010).

(27) Barack Obama, "The Nobel Peace Prize 2009 – Presentation Speech." Nobelprize.org. 13 Sep 2010. Available at: http://nobelprize .org/nobel_prizes/peace/laureates/2009/presentation-speech.html (accessed October 28, 2010).

(28) The full transcript of Obama's speech at the West Point Military Academy on December 1, 2009, can be found at: www.stripes.com/ news/ transcript-of-president-obama-s-speech-at-west-point-1.96961 (accessed October 28, 2010).

(29) Joseph Stiglitz and Linda Blimes, "The Three Trillion Dollar War," *London Times,* February 23, 2008. Available at: www.timesonline.co. uk/ tol/comment/columnists/guest_contributors/article3419840.ece.

(30) Richard Florida, *The Rise of the Creative Class* (New York: Basic Books, 2002), 69.

(31) Pierre Bourdieu, *On Television* (New York: New Press, 1999), 6.

(32) Franco Moretti, *"New York Times Obituaries," New Left Review* 2 (2000): 105.

(33) J. H. von Herder, *Outlines of a Philosophy of the History of Man,* trans. T. Churchill (London, 1800), 166.

(34) Theodor Adorno, "On the Question: 'What is German?,'" *Critical Models: Interventions and Catchwords,* trans. H. W. Pickford (New York: Columbia University Press), 205.

(35) For information on its activities, see www.repohistory.org (accessed October 28, 2010).

(36) See two recent additions to an ever-expanding field of books: George A. Akerlof and Robert J. Shiller, *Animal Spirits: How Human Psychology Drives the Economy, and Why It Matters for Global Capitalism* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2009); and Justin Fox, *The Myth of The Rational Market* (New York: Collins Business, 2009).

(37) See Emmanul Saez, "Striking It Richer: Evolution of Top Incomes in the United States." Available at: http://www.elsa.berkeley.edu/~saez/ saez-UStopincomes-2006prel.pdf (accessed October 28, 2010). Saez has written a number of influential papers on this topic with Thomas Piketty.

(38) Leonard Cohen, "Everybody Knows," *I'm Your Man.* Columbia, 1988.

(39) Yevgeny Zamyatin, *We,* trans. Natasha Randall (New York: Modern Library, 2006). The reference is to the activities of R-13, a poet in One State, and his method of approaching his craft.

الفصل الثاني: حدود الليبرالية

(1) Wendy Brown, "Neo-liberalism and the End of Liberal Democracy," *Theory & Event 7,* no. 1 (2003): para. 9.

(2) Slavoj Žižek, *First as Tragedy, Then as Farce* (New York: Verso, 2009), 5.

(3) Robert Kagan, *The Return of History and the End of Dreams* (New York: Knopf, 2008), 3.

(4) Kagan, *Return of History,* 97.

(5) Fareed Zakaria, *The Post-American World* (New York: W. W. Norton, 2008), xx.

(6) Zakaria, *Post-American World,* 36.

(7) Ibid., 70.

(8) Ibid., 78.

(9) Ibid.

(10) Ibid., 218.

(11) Kagan, *Return of History,* 81-82.

(12) Sarika Chandra, *Dislocalism: The Crisis of Globalization and the Remobilizing of Americanism,* unpublished manuscript.

(13) We take the phrase in the title from Jamie Peck's excellent, "The Creativity Fix," *Eurozine,* June 28, 2007: www.eurozine.com/articles/2007-06-28-peck-en.html (accessed October 29, 2010). Originally published in *Fronesis* 24 (2007).

(14) Karl Marx, “The German Ideology: Part 1,” *The Marx-Engels Reader,* ed. Robert C. Tucker (New York: W. W. Norton, 1978), 160.

(15) David Brooks, *Bobos in Paradise: The New Upper Class and How They Got There* (New York: Simon and Schuster, 2001), 10.

(16) See *The Flight of the Creative Class* (New York: Harper Business 2005), in which he examines the global competition of states and cities to attract members of this class; *Cities and the Creative Class* (New York: Routledge 2004), which constitutes an elaboration of his description of the communities creative workers are attracted to and in which they flourish; and *Who’s Your City?: How the Creative Economy Is Making Where to Live the Most Important Decision of Your Life* (New York: Basic Books, 2008), which puts his analysis to use in the form of a city guide for members of the creative class.

(17) Though the CCNC predates Florida’s books, its growth and expansion since becoming a not-for-profit organization in 2002 has been enabled by the spread of the idea that city spending on culture supports economic development. The CCNC acts as advocate of and clearinghouse for ideas linking culture and economic development. For example, the January 2010 Creative City News reports on the investment of $5 million by the City of Woodstock in the creation of a new art gallery; the December 2009 newsletter includes stories on urban investments in culture in places such as Barrie and Collingwood, ON, Halifax, NS, and Barrie, ON.

(18) Governments across the world have in recent years produced planning strategies for their cultural sector in relation to its economic impact, or have developed new departments of government to manage the economics of culture. To give a few examples: Winnipeg is concluding its year as Cultural Capital of Canada with the production of an arts

and culture strategy document, "*Ticket to the Future:* The Economic Impact of the Arts and Creative Industries in Winnipeg." In the UK, the Creative & Cultural Skills unit of the national government announced £1.3 million to create 200 culture jobs for young people claiming unemployment benefits, including positions "such as theatre technician, costume and wardrobe assistant, community arts officer and business administrator." See www.thestage.co.uk/news/newsstory. php/26804/government-announces-13-million-fund (accessed October 29, 2010).

The action is just as great on the international level. Numerous international conferences focus on culture and economics, such as the annual Culturelink Conference (the third meeting of which was held in Zagreb, Croatia, in 2009) and the World Summit on the Arts (the fourth meeting held in Johannesburg in 2009). The recently released report of the Commonwealth Group on Culture and Development, a body established in 2009, links the achievement of development goals with the support of culture. And UNESCO's November 2009 World Report, "Investing in Cultural Diversity and Intercultural Dialogue," warns governments against cutting funding to culture during the current financial crisis, not just because it will impact on the issues contained in the report's title, but because such fiscal cost saving will have a deep impact on any possible financial recovery.

(19) See Florida's review of Thomas Friedman's *The World is Flat*, "The World is Spiky," *Atlantic Monthly* (October 2005): 48–51.

(20) Richard Florida, *The Rise of the Creative Class* (New York: Basic Books, 2002), 260.

(21) Florida, *Rise of the Creative Class,* 250.

(22) Ibid., 4.

(23) Ibid., 31.

(24) Ibid., 32.

(25) Ibid., 190–211.

(26) Ibid., 14.

(27) Ibid., 320.

(28) Ibid., 317.

(29) Ibid., 37. The quotation Florida includes here is unattributed.

(30) Ibid., 69.

(31) Ibid., xiii. The number of times this claim is asserted is too frequent to cite, but take for instance statements such as these at opposite ends of the book: "Today's economy is fundamentally a Creative Economy" (44) and "creativity is the fundamental source of economic growth" (317).

(32) Florida, *Rise of the Creative Class,* 21.

(33) The critical importance of tolerance to managing the perpetuation of hegemony appears in numerous works in the genre of popular books on current affairs. See, for example, Amy Chua, *Day of Empire: How Hyperpowers Rise to Global Dominance – and Why They Fall* (New York: Doubleday 2007).

(34) Florida, *Rise of the Creative Class,* xiii.

(35) Ibid., xiii.

(36) Ibid., 23.

(37) Ibid., 262–263.

(38) Ibid., 325.

(39) Mobility is presumed to be a central characteristic of the Creative Class. They can go wherever they want, which is why cities have to make certain that they have the appropriate environs to attract them. Yet even in the case of certain members of the Super-Creative Core, this mobility is close to a fiction. For example, academics find it extremely difficult to

move; the nature of their work means that they have to participate in specific kinds of institutions (universities and colleges) that aren't found in the same proportion as institutions of private industry and many of which are located in smaller cities and towns. There's a reason why Durham, NC and State College, PA rank highly on his rankings of creative cities: it's not because they have ahugenumberof amenities (art, coffee houses, alternative music, etc.) that exist outside of work, but because the nature of the institutions that exist there render large numbers of PhDs (especially relative to population) immobile.

(40) Florida, *Rise of the Creative Class, 77.*

(41) Ibid., 88–101.

(42) See, for instance, Jill Andresky Fraser, *White Collar Sweatshop* (New York: W. W. Norton, 2002); Christian Marazzi, *The Violence of Financial Capitalism* (Los Angeles: Semiotext(e), 2010); Andrew Ross, *Nice Work If You Can Get It: Life and Labor in Precarious Times* (New York: New York University Press, 2009); Juliet Schor, *The Overworked American: The Unexpected Decline of Leisure* (New York: Basic Books, 1993); and Tiziana Terranova, "Free Labor: Producing Culture for the Digital Economy," *Social Text* 18, no. 2 (2000): 33–58.

(43) "The no-collar workplace is not being imposed on us from above; we are bringing it on ourselves … We do it because as creative people, it is a central part of who we are or want to be" (134).

(44) Peter B€urger, *Theory of the Avant-garde,* trans. Michael Shaw (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1985), 49.

(45) Florida, *Rise of the Creative Class,* 13.

(46) Ibid., 201.

(47) Ibid., 191.

(48) For an overview of the uses and abuses of creativity, see Rob Pope's enormously helpful *Creativity: Theory, History, Practice* (New York: Routledge, 2005).

(49) Florida, *Rise of the Creative Class,* 46.

(50) Andrew Ross, "The Mental Labour Problem," *Social Text* 63 (2000): 6.

(51) Ibid., 11.

(52) Paul Krugman, *The Return of Depression Economics and the Crisis of 2008* (New York: W. W. Norton & Co 2009), 24.

(53) Section 2 of Hardt and Negri's *Multitude* (New York: Penguin, 2004) remains the most useful and compelling description of the long emergence of the common in and under capitalism.

(54) "There is an aesthetic base component in human nature." Paolo Virno, "The Dismeasure of Art. An Interview with Paolo Virno," *Open* 17 (2009). Available at: www.skor.nl/article-4178-nl.html?lang=en (accessed October 29, 2010).

(55) See Antonio Negri, *Insurgencies: Constituent Power and the Modern State,* trans. Maurizia Boscagli (Minneapolis: University of Minnesota Press, 2005).

(56) The single reference to globalization in *The Great Reset* confirms that his ideas about creativity and innovation are situated within its general parameters: "As globalization has increased the financial return on innovation (by widening the consumer market), the pull of innovative places, which are already dense with highly talented workers, has only grown stronger." Florida, *The Great Reset* (Toronto: Random House Canada, 2010), 152.

(57) Friedman's books to date are *From Beirut to Jerusalem* (New York: Anchor, 1989); *The Lexus and the Olive Tree: Understanding Globalization*

(New York: Anchor, 2000); *Longitudes and Attitudes* (New York: Anchor, 2002); *The World Is Flat: A Brief History of the Twenty-First Century* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2005); and *Hot, Flat, and Crowded: Why We Need a Green Revolution - and How It Can Renew America* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2008).

(58) Friedman, *The Lexus and the Olive Tree,* 7.

(59) Ibid., 9.

(60) Ibid., 9.

(61) Friedman, *The World Is Flat,* 9.

(62) Friedman, *The Lexus and the Olive Tree,* 7.

(63) David Harvey, *The Condition of Postmodernity: An Enquiry into the Origins of Cultural Change* (Oxford: Blackwell, 1991).

(64) Friedman, *The Lexus and the Olive Tree,* ix.

(65) Ibid., 109.

(66) Karl Marx, "The German Ideology: Part 1," *The Marx-Engels Reader,* ed. Robert C. Tucker (New York: W. W. Norton, 1978), 172.

(67) See David Bell's "Does This Man Deserve Tenure?" *The New Republic,* September 6, 2010. Bell criticizes the holes and gaps that exist in MarkC. Taylor's *Crisis of Campus: A Bold Plan for Reforming Our Colleges and Universities*. The problem? The deformations and mutations of ideas as they grow froman 800-word op-ed piece into a 50 000-word book. He writes, "far from reinforcing the original logic and evidence, the new accretions of text only strain them further, while smothering the original provocations under thick layers of padded anecdote, pop sociology and oracular pronouncement. Call the syndrome Friedmanitis, after aprominent early victim, the *New York Times* columnist Tom Friedman." Friedmanitis is possible only through rapid and unending appeals to common sense. Available at: www.tnr.com/book/review/marktaylor-crisis-campus-colleges-universities (accessed November 1, 2010).

(68) Friedman, *The Lexus and the Olive Tree,* 30.

(69) Ibid., 31.

(70) Lionel Gossman. "Anecdote and History," *History and Theory* 42 (2003): 167–168.

(71) Joel Fineman, "The History of the Anecdote," in *The New Historicism,* ed. H. Aram Veeser (New York and London: Routledge, 1989), 49–76. Fineman goes onto write, "The anecdote produces the effect of the real, the occurrence of contingency, by establishing an event within and yet without the framing context of historical successivity." Gossman also quotes this on pp. 163–164 of his essay.

(72) Bertolt Brecht, "Anecdotes of Mr. Keuner," *Tales from the Calendar,* trans. Yvonne Kapp and Michael Hamburger (London: Methuen & Co., 1961), 110–124.

(73) Brecht, "Anecdotes of Mr. Keuner," 121–122.

(74) Paul Krugman and Maurice Obstfeld, *International Economics: Theory and Policy,* 8th edn (Boston: Addison Wesley, 2008).

(75) The two papers usually cited as the first elaborations of Krugman's "new trade theory" and "new economic geography" are, respectively, "Increasing Returns, Monopolistic Competition, and International Trade," *Journal of International Economics* 9.4 (1979): 469–479, and "Increasing Returns and Economic Geography," *Journal of Political Economy* 99.2 (1991): 483–499.

(76) "Enemies of the WTO: Bogus Arguments Against the World Trade Organization," *The Great Unraveling* (New York: W. W. Norton & Company, 2004), 367–372.

(77) Paul Krugman, "Global Schmobal," *The Great Unraveling: Losing Our Way in the New Century* (New York: W. W. Norton, 2004), 367–368.

(78) Ibid., 370.

(79) Paul Krugman, *The Conscience of a Liberal* (New York: W. W. Norton, 2009), 265.

(80) Krugman, *Conscience of a Liberal*, 4.

(81) Ibid., 4.

(82) Ibid., 6.

(83) Ibid., 7.

(84) Ibid., 7.

(85) Ibid., 10–11.

(86) Ibid., 145.

(87) Ibid., 163.

(88) Ibid., 172.

(89) Ibid., 182.

(90) Ibid., 193.

(91) Ibid., 115.

(92) Ibid., x.

(93) Paul Krugman, *The Return of Depression Economics and the Crisis of 2008* (New York: W. W. Norton & Company, 2009), 133.

(94) Krugman, *Return of Depression Economics,* 10.

(95) Ibid., 14.

(96) Ibid., 102.

(97) Ibid., 163.

(98) Ibid., 136.

(99) Ibid., 186.

(100) Ibid., 103.

(101) Ibid., 113.

(102) Ibid., 114.

(103) Ibid., 118.

(104) "Most, probably, of our decisions to do something positive, the full consequences of which will be drawn out over many days to come, can

only be taken as the result of animal spirits—a spontaneous urge to action rather than inaction, and not as the outcome of a weighted average of quantitative benefits multiplied by quantitative probabilities." John Maynard Keynes, *General Theory of Employment Interest and Money* (London: Macmillan, 1936), 161. See also Christian Marazzi, *The Violence of Finance Capitalism* (New York: Semiotext(e), 2010), especially chapter 4.

(105) Robert Kurz, "World Power and World-Money: The Economic Function of the US Military-Machine within Global Capitalism and the Background of the New Financial Crisis," trans. Imre Szeman and Matt MacLellan, *Mediations* 25 no. 1 (2009-2010), forthcoming.

(106) How might Krugman react to the historicization of economics? Take, for instance, Immanuel Wallerstein's description of the roots of the contemporary organization of academic social science: "From the dominant liberal ideology of the nineteenth century which argued that state and market, politics and economics, were analytically separate … Society was adjured to keep them separate, and scholars studies them separately. Since there seemed to be many realities that apparently were neither in the domain of the market [economics] nor in that of the state [political science], these realities were placed in a residual grab-bag which took as compensation the grand name of sociology … Finally, since there were people beyond the realm of the civilized world, … the study of such people encompasses special rules and special training, which took on the somewhat polemical name of anthropology." Immanuel Wallerstein, *The Essential Wallerstein* (New York: New Press, 2000), 133.

(107) Michael Denning, *Culture in the Age of Three Worlds* (New York: Verso, 2004), 27.

(108) Naomi Klein, *No Logo: Taking Aim at the Brand Bullies* (Toronto: Vintage Canada, 2000).

(109) Naomi Klein, *The Shock Doctrine: The Rise of Disaster Capitalism* (Toronto: Vintage Canada, 2008).

(110) Klein, *Shock Doctrine,* 4.

(111) Ibid., 4.

(112) Ibid., 7.

(113) Ibid., 7.

(114) *Democracy Now,* September 24, 2007, *Alan Greenspan vs. Naomi Klein on the Iraq War, Bush's Tax Cuts, Economic Populism, Crony Capitalism, and More.* Available at: https://www.democracynow .org/2007/ 9/24/alan_greenspan_vs_naomi_klein_on (accessed November 3, 2010).

(115) Klein, *Shock Doctrine,* 24.

(116) An earlier version of these paragraphs on a "non-moralizing critique of capitalism" can be found in Cazdyn's *The Already Dead: The New Time of Politics, Culture and Illness* (Durham: Duke University Press, forthcoming).

(117) Matt Taibbi, "The Great American Bubble Machine," *Rolling Stone,* April 5, 2010; Jeremy Scahill, *Blackwater: The Rise of the World's Most Powerful Mercenary Army* (New York: Nation Books, 2008).

(118) This delineation of crisis and disaster is taken from Cazdyn's "Disaster, Crisis, Revolution," in *Disastrous Consequences,* ed. Eric Cazdyn, *South Atlantic Quarterly* 106, no. 4 (2007): 647–662.

(119) WikiLeaks published this "Afghan War Diary" or, as the archive is also called, "The War Logs," on July 25, 2010. Prior to releasing these documents on its web site, WikiLeaks made the records available to the *Guardian*, the *New York Times*, and *Der Spiegel*, which published many of the records on that same day.

(120) WikiLeaks. Available at: http://wikileaks.org/wiki/WikiLeaks: About.

(121) The White House, Office of the Press Secretary, "Press Briefing by Press SecretaryRobert Gibbs," July 26, 2010. "And, again, I think it's – let's be clear, and Iwant tomake sure that I'm clear onthis – based on the fact that there's nothing – there's no broad new revelations in this, our concern isn't that people might know that we're concerned about safe havens in Pakistan, or that we're concerned, as we are, about civilian casualties. Lord, all you need is a laptop and amouse to figure that out, or 50 cents or $1.50, depending onwhichnewspaper you buy. I don't think that is, in a sense, top secret. But what generally governs the classification of these documents are names, operations, personnel, people that are cooperating – all of which if it's compromised has a compromising effect on our security." Available at: www.whitehouse.gov/the-press-office/pressbriefing- press-secretary-robert-gibbs-7262010 (accessed November 3, 2010).

(122) *Democracy Now,* transcripts from July 28, 2010.

(123) *Democracy Now,* transcripts from July 28, 2010.

(124) *Democracy Now,* "WikiLeaks Founder Julian Assange: 'Transparent Government Tends to Produce Just Government,'" July 28, 2010. https://www.democracynow.org/2010/7/28/wikileaks_founder_julian_assange_transparent_government (accessed November 3, 2010).

(125) Estimated by WikiLeak researchers. See *Democracy Now,* "Julian Assange Responds to Increasing US Government Attacks on WikiLeaks," August 3, 2010.

(126) Klein, *Shock Doctrine,* 31-32.

(127) J. A. Hobson, *Imperialism: A Study* (London: George Allen & Unwin, 1902).

(128) Joel Bakan, *The Corporation: The Pathological Pursuit of Profit and Power* (New York: Free Press, 2005).

(129) *It's a Wonderful Life,* dir. Frank Capra, Liberty Films, 1946.

(130) Jacques Rancière, *The Emancipated Spectator,* trans. Gregory Elliot (New York: Verso, 2009), 33.

(131) See Fredric Jameson's Introduction to *Archaeologies of the Future* ("Introduction: Utopia Now"). Jameson writes, "For even if we can no longer adhere with an unmixed conscience to this unreliable form, we may now have recourse to that ingenious political slogan Sartre invented to find his way between a flawed communism and an even more unacceptable anti-communism." *Archaeologies of the Future* (New York: Verso, 2005), xvi.

الفصل الثالث: الجيل العالمي

(1) See note 6 in Part I for a representative list of works that have been published on America and anti-Americanism in the wake of 9/11.

(2) In Canada, Ronald Wright's *What Is America? A Short History of the New World Order* (Toronto: Knopf Canada, 2008), an examination of the social and political psyche of the United States that locates its roots in discovery of the New World, proved to be an extremely popular text. Philippe Roger, *L'Ennemi américain: généalogie de l'antiaméricaine français* (Paris: Seuil, 2002) and Jean-François Revel, *L'obsession anti-américaine* (Paris: Plon, 2002) are examples of post-9/11 work on anti-Americanism in France.

(3) See for example Andrew Ross and Kristin Ross, eds, *Anti-Americanism* (New York: New York University Press, 2004), and Ivan Krastev and Alan McPherson, eds, *The Anti-American Century* (Budapest: CEU Press, 2007).

(4) Harold Pinter, "Nobel Lecture – Literature 2005." Nobelprize.org. August 13, 2010: http://www.nobelprize.org/nobel_prizes/

literature/ laureates/2005/pinter-lecture-e.html (accessed November 8, 2010).

(5) Pinter had described to the press what the general tenor of his comments at the Nobel ceremonies would be in advance of his acceptance speech.

(6) James Traub, "Their Highbrow Hatred of Us," *New York Times Magazine,* October 30, 2005.

(7) Cazdyn develops this point by referring to the work of Masao Miyoshi and Edward Said in his Introduction to *Trespasses: Selected Writings of Masao Miyoshi* (Durham: Duke University Press, 2010), pp. xv–xxxiii.

(8) Benedict Anderson, *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism* (New York: Verso, 1983).

(9) Louis Althusser, "Ideology and Ideological State Apparatuses," *Lenin and Philosophy, and Other Essays* (London:NewLeft Books, 1971), 127–186.

(10) To preserve the anonymity of interview subjects, we identify these quotations merely by country.

(11) Alain Badiou, *The Communist Hypothesis* (New York: Verso, 2010), 5.

(12) For a recent discussion of demographic tensions in Germany, see "Graying Germany Contemplates Demographic Time Bomb," *Der Spiegel,* June 27, 2010, at: www.spiegel.de/international/germany/0,1518,697085,00.html (accessed November 8, 2010).

(13) For a discussion of the social tensions raised by the flying of the German flag during the 2010 World Cup, see Kevin Hagen, "Immigrants Defend the Flag While Left-Wing Germans Tear It Down," *Der Spiegel,* June 29, 2010, at: www.spiegel.de/international/ germany/0,1518,703533,00

.html (accessed November 8, 2010). Similar anxieties appeared as a result of the flag waving that accompanied the success of the German national team during the 2006 World Cup in Germany. See Michael Sontheimer, "How Germans Learned to Stop Worrying and Love the Flag," *Der Spiegel,* June 29, 2006, at: www. spiegel.de/international/0,1518,424373,00.html (accessed November 8, 2010).

الخاتمة: «لا تسألَنَّ عن السبب!»

(1) Ernst Bloch and Theodor Adorno, "Something's Missing: A Discussion between Ernst Bloch and Theodor W. Adorno on the Contradictions of Utopian Longing," in Ernst Bloch, *The Utopian Function of Art and Literature: Selected Essays,* trans. Jack Zipes and Frank Mecklenburg (Cambridge, MA: The MIT Press, 1998), 14.

(2) Guy Debord, *Society of the Spectacle,* trans. Donald Nicholson-Smith (New York: Zones Books, 1994).

(3) Slavoj Žižek, "Nobody has to be vile," *London Review of Books* 28, no. 7 (April 6, 2006): 10.

(4) For an exception to this general trend in media coverage of Bill Gates's and Warren Buffett's "Giving Pledge," see "Negative Reaction to Charity Campaign: German Millionaires Criticize Gates' 'Giving Pledge,'" *Der Spiegel,* August 10, 2010. Available at: www.spiegel.de/international/germany/0,1518,710972,00.html (accessed November 8, 2010).

(5) Paul Krugman, "The Curious Politics of Immigration," The Conscience of a Liberal Blog *(NY Times)*, April 26, 2010. Available at: http://krugman.blogs.nytimes.com/2010/04/26/the-curious-politicsof- immigration/ (accessed November 8, 2010).

(6) Nicholas Brown, "Hegel for Marxists (and Marxism for Everyone)," unpublished paper.

(7) For a more detailed analysis, see Imre Szeman, "'Do No Evil': Google and Evil as a Political Category," *Topia: Canadian Journal of Cultural Studies* 18 (2007): 131–139.

(8) Fredric Jameson has suggested that "the most radical demand to make on our own system … [is] the demand for full employment, universal full employment around the globe" (37). What such a demand reveals starkly is the shape and character of political and economic structures that render any such demand unrealizable. The possibility for all individuals to engage in productive social labor simply *cannot* happen because of the structural need for a reserve army of labor, which takes distinct forms in different parts of the world. Jameson's point here, as in much of his writing on utopia, is that because so basic a right cannot be realized, a political opening is possible: a demand for a "society structurally distinct from this one in every conceivable way, from the psychological to the sociological, from the cultural to the political" (37). Jameson, "The Politics of Utopia," *New Left Review* 25 (2004): 35–54.

(9) Friedrich Nietzsche, "On Truth and Lying in an Extra-Moral Sense," *Friedrich Nietzsche on Rhetoric and Language,* ed. and trans. Sander L. Gilman, Carole Blair, and David J. Parent (New York: Oxford University Press, 1989), 251.

(10) Bloch and Adorno, "Something's Missing," 1–17.

(11) Ibid., 1.

(12) Bloch in ibid., 3-4.

(13) Adorno in ibid., 11.

(14) Adorno in ibid., 13.

(15) Ibid., 15.

(16) Bloch in ibid., 7.

(17) "Aber etwas fehlt," though translated as "But it won't quite do" and "But they won't quite do" in Bertolt Brecht, "The Rise and Fall of the

City of Mahagonny," in *Bertolt Brecht: Collected Plays,* vol. 2, part 3, ed. John Willett and Ralph Mannheim (London: Eyre Methuen, 1979), 19. The title of Scene 8 is "Seek and ye shall not find."

(18) Brecht, "The Rise and Fall of the City of Mahagonny," 20.

(19) Theodor W. Adorno, "Mahagonny," in *The Weimar Republic Source book,* ed. Anton Kaes, Martin Jay, and Edward Dimendberg (Berkeley, CA: University of California Press, 1994), 588. First published as "Mahagonny," *Musikblätter des Anbruch* 14 (February–March 1932): 12—15.

(20) Brecht, "The Rise and Fall of the City of Mahagonny," 20.

(21) Ibid., 63–64.

(22) Lydia Goehr, "Hardboiled Disillusionment: *Mahagonny* as the Last Culinary Opera," *Cultural Critique* 68 (2008): 4–5.

(23) Adorno, "Mahagonny," 589.

(24) Adorno, "Mahagonny," 589.

(25) Brecht, "The Rise and Fall of the City of Mahagonny," 24.

(26) Adorno, "Mahagonny," 589.

(27) Bloch and Adorno, "Something's Missing," 12.